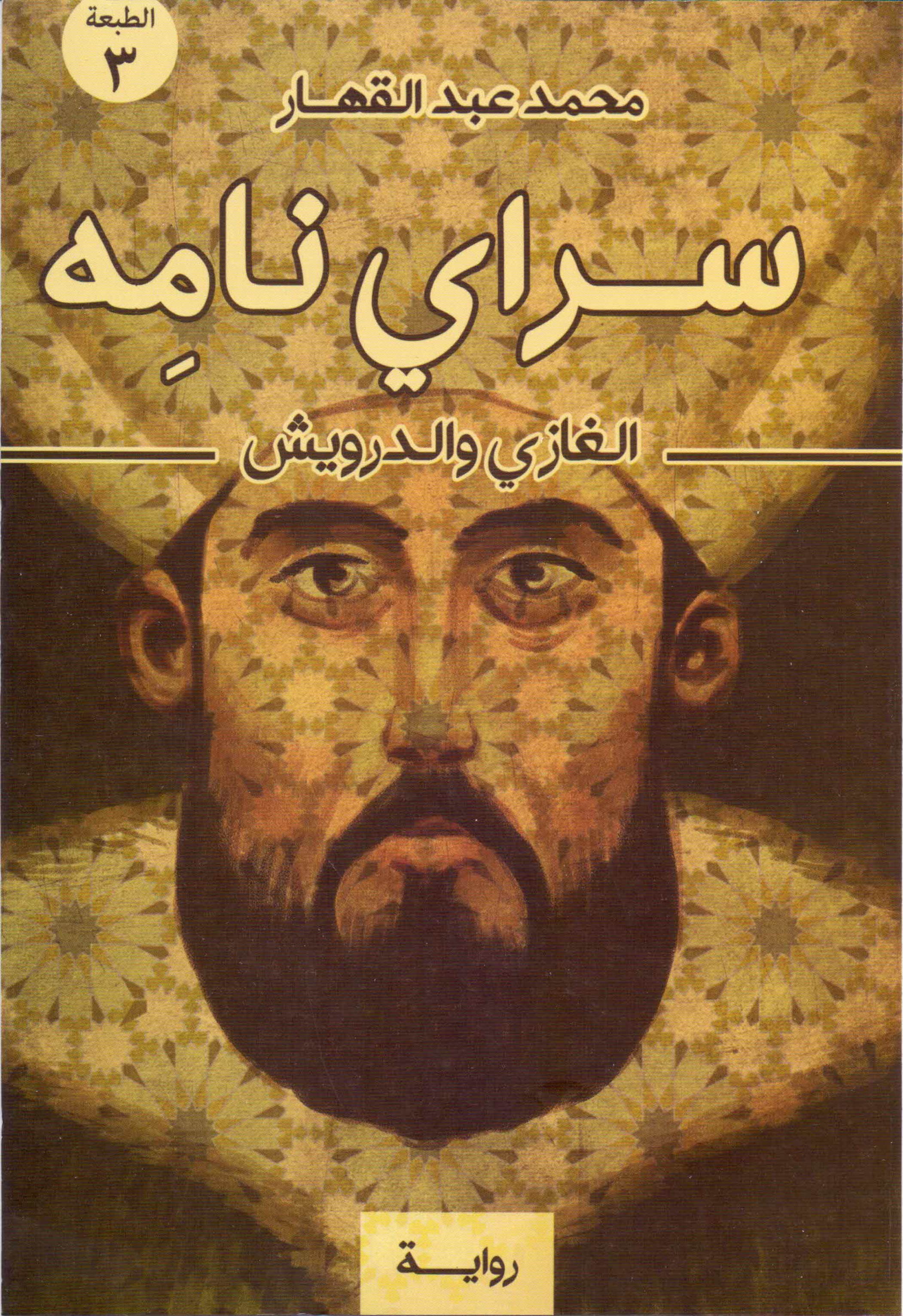

الطبعة
٣
محمد عبد القهار
سراي نامه
الغازي والدرويش
رواية



سـراي نامِه
الغازي والدرويش
مدارات للأبحاث والنشر
MADARAT for Research and Publishing

روايـــة

سـراي نامه

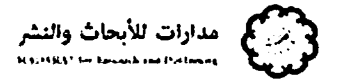
الغازي والدرويش

سراي نامِه: الغازي والدرويش

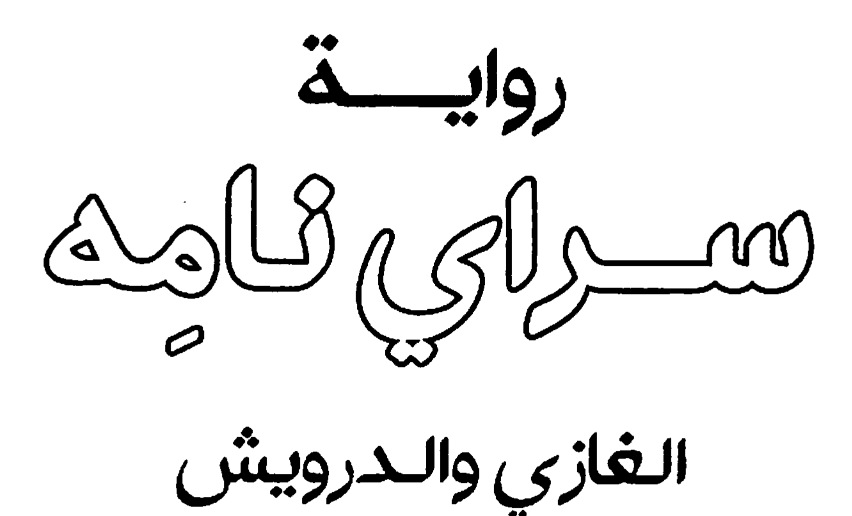
محمد عبد القهَّار

صورة الغلاف بريشة الفنان: عبد الرحمن نجم الدين
مراجعة لغوية: شيماء علي
الطبعة الأولى: رجب ١٤٣٤ / يونيو ٢٠١٣م
الطبعة الثانية: المُحرَّم ١٤٣٥ / نوفمبر ٢٠١٣م
الطبعة الثالثة: ربيع الأول ١٤٣٦ / يناير ٢٠١٥م
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٣/١٠٢١٦
الترقيم الدولي: ISBN 978-977-85022-0-6

تليفون: ٠١٠٢٤٤٤٦٣٧٠ - ٠١٠٢٤٤٤٦٣٧١ - ٠١٠٢٤٤٤٦٣٧٢
البريد الإلكتروني: info@madarat-rp.com



محمد عبد القهَّار





وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ

"سورة العنكبوت، آية ٦٩"

[١]

هطلت الأمطار غزيرة كأن أبواب السماء فُتحت دفعة واحدة، و جرى فُلك مسقوف بين الأمواج المتلاطمة التي فغرت فاهًا أسود وأغلقته في تكرار محموم. موجة كبيرة ابتلعت الفُلك لبرهة و انساب بعض لعابها من بين ألواح السقف، فبدا أشبه بقبر طاف لا سفينة نجاة. علا الصياح من حناجر الرجال و النساء و الأطفال كما علاَ نهيق ونباح وخوار. وعلى قمم الجبال البعيدة لاحت نيران متأججة انعكست على وجوه شامتة عابثة. وقف صبي على حافة إحدى تلك القمم. تنهد وقال: «ألم أقل لك يا أبي أن تبقى معنا؟ ألم أقل لك يا سليل نوح إن الجبل سيعصمني، فأبيت إلا البحر- تزعم- في ركوبه النجاة؟» ثم برق بصره حين رأى الأمواج تبتلع الفُلك

دون أن تلفظه و تمتم: «صدقت كلمات إلهك أن لا عاصم لك من الغرق اليوم».

و دوّت خلفه القهقهات، ثم أعادته ضربة سوط إلى جحيم إخوته العبيد ليعاود خدمة أسياده . .

لقد غرق الشيخ الفاني اللحوح.

***

«اسجد لبعل إلهك و إله أجدادك و سيد الآلهة أجمعين، اسجد و إلا لقيت مصير إبراهيم».

قالها الأب و هو يحث ابنه على السجود.

-و ما مصير إبراهيم؟.

-أُلقي في نار عظيمة حين كفر بديننا و حطم الآلهة الصغيرة. و حين سلخت النيران جلده سمعناه يقول: لقد خُدعت. . النار تحرق. . أنقذني يا آزر. . إني آمنت بربكم فأنقذون، و هذا جزاء كل من يذكر آلهتنا بسوء.

و سجدا معًا لـ(بعل) رب العالمين.

***

تأججت ألسنة من اللهب و خمدت من أفواه كأفواه الجانّ. رقصوا في الخرائب الممتدة حولهم رقصاتهم الماجنة العابثة. قرّبوا أجسادهم الشبحية بعضها لبعض و تباعدوا. علت عطعطتهم وأبعد أحدهم غلامًا

في سأم وقال: «ويحك يا لوط ضَنَنتَ علينا بضيفك حتى سئمنا هؤلاء الغلمان»، ثم ضحك ضحكة رقيعة و ضرب فخذه قائلاً: «أوَيَضير كونهم ملائكة؟»، ثم التفت إلى من حوله صائحًا: «هل جربتم من قبل مضاجعة الملائكة؟»

فلم تجبه إلا عطعطة المتراقصين حول النيران، ثم صمتوا فجأة حين تناهى لمسامعهم مقدم ركب من بعيد. .

لقد أتى ضيفٌ جديد.

***

اقترب صرير العجلات الحربية حاملاً نذير الهلاك، ورماح المنية طوالٌ غلاظ اهتزت بيد الراكبين ذوي الأجساد السمراء اللامعة.

وقف البائسون وقد التصق بعضهم ببعض، وتدثروا بدثار يسترهم بالكاد كأنه يمنحهم القوة. أمسك كبيرهم بالعصا و ضرب اليم حتى ابتلت ثيابه. لماذا لم يفلح كما أفلح من ضرب اليم قبله؟

لماذا لا ينقذهم الله؟ صاح في أتباعه من يمنع عنهم النجاة بدنسه فليُلقِ بنفسه في اليم، ثم ألقى بنفسه وتبعوه واحدًا تلو الآخر، و من بقي يلهيه الأمل سجد للعجل الذهبي؛ ظن خواره يحمل بُشرى النجاة.

و غُمست أسنة الرماح - الدقيقة كالأقلام - في المداد القاني.

***

تنهض من فراشك فجأة يا (مصطفى) غازي، فتسمع الناقوس يُدق في أذنيك. تلهثُ كأنك نجوت من ألف ذئب و لسانك من هول ما رأيت من أضغاثٍ يردد: «شيطان رجيم. . شيطان رجيم»!

❀❀❀

-الله كريم.

-هو.

- الله كريم.

-هو.

صياح الدراويش يصل إلى عنان السماء، يهللون بأصوات شبعت من لحم العيد. يتبخترون في الطرقات بملابسهم الخضراء الزاهية. قليلةٌ تلك الأيام التي يأكلون فيها اللحم، وقليلة أيضًا تلك التي يتقدمون فيها موكب السلطان. لا يخرجون إلا في أيام عيدٍ أو نصرٍ على الكفار، و تلك الأخيرة لم تعد كثيرةً بأي حالٍ بعد وفاة السلطان (سليمان) القانوني منذ عقود.

وراءهم يركب قادة السباهية؛ فرسان الجيش و عماد خيالته. يتبخترون بخيولهم تبختر الدراويش. يرتدون قمصانًا من الزرد و عمائم بيضاء. شاكو السلاح يرفعون رماحهم التي تعانق سحب الصيف المتناثرة. جاؤوا من إقطاعاتهم البعيدة، ليشاركوا السطان فرحته و ينالوا من عطاياه الجزيلة. في الماضي كانوا كثيرًا ما يتركون إقطاعاتهم و زراعتها، ليشاركوا في الحرب و يسلحون أنفسهم من ريع غلالها، لكن هذه الأيام قلما يخرجون إلا لعيدٍ

أو ختان أمير؛ يتكئون فوق تلال من غلال لا تأكلها الحرب، و يحمدون الله -بصدق- على عصر السلاطين التنابلة!

يتأخر عن قادة الجيوش الأخرى - كالعادة - لكنه يرد ذلك إلى أقدمية النشأة و المراسم فحسب؛ فلو أنصفوا لتقدم الموكب بجنوده، أو ربما استأثروا بالسلطان وحدهم دون الجميع!

يخطر أغا الإنكشارية و جنوده راجلين متلبلبين وقد ضاقت أحزمتهم بالسلاح. بدا الحزم و البأس على وجوههم. تلقوا نظرات الإعجاب بجفاء، ورفعوا -بكبر- رؤوسهم التي غطتها القلنسوات البيضاء المسنّمة. وما ذلك عنهم بغريب؛ فَلِمَن التكبر و العُجب إن لم يكن لخاصة السلطان ومماليكه الذين يقررون من يتسلطن و من يُخلع، فجوارهم قوة و جفاؤهم هلكة. يبثون الرعب في قلوب الأعداء والأصدقاء على السواء. ينتشر بينهم الزمّارون و الطبّالون، فتختلط الموسيقى بأذكار الدراويش.

أما السلطان، فقد توسط موكبه بين الصدر الأعظم وشيخ الإسلام يتبعهم القضاة والوزراء. ينثر أكياسًا من الآقجات [١] والدوكات [٢]. نال أغلبُها جيشَه الذي أحاط به دون العامة المصطفّين على جانبي الطريق. هتفت ألسنة العوام بحياة السلطان وقد ملّت قلوبهم من الشكوى. رمقت عيونهم المال المنثور، فتمتموا بالحكمة التي أكدتها الأيام: «أهناك خيرٌ لم يصبه العسكر بعد؟».

---

(١) عملة فضية

(٢) عملة ذهبية

يسير الموكب و يتهادى في طريقه وسط الزحام. تختلط روائح العرق بالبخور الآتي من التكايا و البيوت.

طبل..

زمر..

«الله كريم»..

بارود..

زغاريد..

«هو»..

أناشيد المدَّاحين..

رنين الذهب و الفضة..

كل شيء التحم كأن الدنيا و ما عليها تسير مع السلطان، وقد اكتست الرياض بوشاحٍ أخضر مطرزٍ بأندر الزهور. حتى البحر صفا ماؤه من السمك؛ كأنه عرف أن اليوم يومُ نحرٍ لا يوم صيد.

من بعيد لاحت بوابة الهمايون-أولى بوابات قصر السلطان- فانصرف الدراويش قانعين إلى تكاياهم، و الناس إلى بيوتهم، فرحين بفتات الذهب و الفضة مُعفراً بثرى الطرقات. ترك العسكر قادتهم عائدين إلى الثكنات.

«السلطان محمد ظل الله على الأرض ، حاكم الكون ، سيد البرين والبحرين ، سيد الشرق و الغرب ، فاتح القسطنطينية» . استقبل الموكبَ تلك الكلماتُ التي حُفرت للفاتح على بوابة الهمايون .

يخترق الموكب البوابة و قد أُطلقت الأبواق بينما يستكمل السلطان سيره في حديقة الخارج . يتوقف الموكب ساعة أمام «آية إيرين» ؛ الكنيسة التي حوَّلها الفاتح إلى مخزن للسلاح الملكي ، و بقيت هي و آثار الروم التي حولها من حياضٍ خربةٍ و أعمدة متفرقة شاهدةً على النصر الذي رفع بني «عثمان» إلى مصافِّ الغزاة و الفاتحين الكبار . يتقدم خازن السلاح من السلطان ، و يلثم ذيل ردائه الشاهاني ، ثم يرفع إليه سيفًا رُصِّع غمده بالذهب و الأحجار الكريمة قد حُمِل على وسادة من قطيفة . نظر السلطان إلى السيف بإعجاب ، و أخرجه من غمده ليضوي نصله في أشعة الشمس ، فنظر للخازن باستحسان و ألقى إليه كيسًا من الدوكات ثم ناول السيف للدفتردار القيِّم على مال السلطان و خزائنه ، ليودع السيف في دولابه الخاص .

عند بوابة السلام ترجّل الجميع من على جيادهم عدا السلطان ، و هتف القادة و الحرس بحياة البادشاه خاقان البرين و البحرين ، سلطان الدولة العلية العثمانية ؛ (أحمد) الأول .

لكن السلطان لم يلبث أن سعل بشدة ألجمت الجميع ، و هرع الحرس السلطاني يحولون بينه و بين السقوط عن جواده حيث شعر بالدوار ، ثم أرقدوه على الأرض بخفة و وضع شيخ الإسلام يده على جبهة السلطان

ليرقيه حتى جاء رئيس الطواشي السود مع خصيانه بالمحفة، ليحملوا سلطانهم إلى حجرته الشاهانية في جناح الحريم.

***

وقت طويل مر و هو نائم، كم لبث؟

لا يدري، لعن الحمى التي تنتابه من حينٍ لآخر، نهض و لَبِس عباءته. مضى لما عزم أن يفعله مستغلاً صخب العيد.

أصدر صندله الفضي رنينه داخل جناح الحريم مُعلنًا قدومه. خرجت كل جارية من بابها تدعوه بكل ما تمتلك من فتنة و إغراء، لكنه لم يلتفت؛ كان هدفه القفص...

القفص الذي يؤوي أخاه الذي رفض قتله على عادة الأجداد.

***

«على كل من تؤول إليه السلطنة من أبنائي أن يقتل إخوته؛ فذلك يحفظ نظام العالم، و معظم العلماء يجيزون ذلك، فلا تثريب على السلاطين أن يتصرفوا بمقتضاه».

قانون محمد الفاتح

***

لديه من البنين خمسة، فمن يدريه إذا تولى أخوه العرش أن يحذو حذوه؟

اقترب من قفص أخيه الذي ليس إلا بيتًا صغيراً يتوسط حديقة تحدّها جدران عالية. انحنى له الخصيان و فتحوا باب القفص. دخل و تأكد أن

خنجره الذهبي مثبت بحزامه. رأى السلطان أخاه موليًا إياه ظهره يقرأ القرآن كعادته. اقترب من الأخ المُغيَّب و استل الخنجر من غمده و رفعه عاليًا، ليهوي به على مؤخرة العنق المنحنية على المصحف. التفت القتيل إلى قاتله وقد أوزغت منه الدماء. لم يكن ذلك وجه (مصطفى) المكتنز، بل وجه أبيهما قد كسته لطخات دماء وخرجت منه الديدان، أمسك باليد الغادرة و قال بابتسامة شيطانية: «ها قد حذوت حذوي فلنلق نفس المصير».

ثم هوى القفص و من فيه إلى اللامكان.

***

انتفض السلطان بغتة، فأمسك به طبيبه و ناوله قدحًا من الماء، فشهق بشدة بعد أول جرعة كأنه نجا من الغرق. فتح عينيه بصعوبة، ونظر في وجوه جلسائه ثم أمر: «أريد شيخ الإسلام فحسب، و لينصرف الجميع».

اقترب (أسعد) أفندي من السلطان و جلس على طرف فراشه، سأل في حنانٍ أبويٍ: «ماذا بك يا مولاي؟ أرأيت في منامك ما أفزعك؟».

قبض السلطان الشاب على يد شيخ الإسلام بيديه الدافئتين، وسأله بدوره بصوت متحشرجٍ: «أين تراني يا شيخي؟ أفي الجنة أم في النار؟»

-لِمَ تقول ذلك يا مولاي؟

-رأيت في منامي ما لا يسُر.

ربت الشيخ على كتف السلطان و قال: «إنما هي أضغاث أحلامٍ ووسوسة شياطين. أنت محمومٌ يا مولاي فلا تشقْ على نفسك، ثم إذا

دخل النار من أوقف ماله على التعليم و التكايا، فمن يدخل الجنة؟ أيردُّ الله مناجاتك إياه شعراً يقطرُ وجداً وحبًا لذاته العلية؟ أيعذِّب الله عينًا طالما سهرت على صلاح الرعية، و يداً بطشت بالكافرين أعداء الملة؟».

فرَّجت كلمات الشيخ عن السلطان قليلاً فقال: «أريد أن أستفتيك في مسألة»، ثم ازدرد ريقه بصعوبة و أكمل: «إذا كان لدى تاجر غلامٌ ضعيف، فآواه وحماه ثم خاف إذا هو مات أن يتجبَّر الغلام، فيستبدُّ بتجارة سيده و يحرم أبناءه الصغار منها، فيشردهم بعد عز، فما هو حكم الله؟». نظر بلهفة إلى الشيخ الذي حمَّج عينيه و نظر كالمبهوت؛ إنه يعرف هذه الفتوى جيداً. يعرف من سألها من السلاطين السابقين و من كان ضحية الفتوى. يعرف حتى شيخ الإسلام الذي أجاب عن السؤال.. اللعنة على (طاشكبري زاده)! لماذا كتب عن كل شيوخ الإسلام و جعل سيرتهم دائمًا نصب عينيه تحرقه؟ كلا إنه ليس منافقًا؛ سيفتي على قدر السؤال، و من أدراه بقصد السلطان؟ أطلع على الغيب أم شق عن صدره؟ لكنه سمع صوتًا خبيثًا يقول: «أوليس هذا ما قاله من أجاب من قبل؟»

اللعنة!

بماذا يجيب؟

تعلقت به عينا السلطان بلهفة تحثه على سرعة الجواب.

ازدرد لعابه المرَّ و غمغم: «يُقتل العبد يا مولاي اتقاءً لشره... أو يُحبس».

تغير لون السلطان بغتة للكلمة الأخيرة فأضاف شيخ الإسلام بسرعة:

«والأمر لولي الأمر، إن عظُم الخطر يكون الجزاء القتل»، ثم همس خشية أن يسمعه السلطان جيدًا: «وهو مسؤول عن هذا أمام الله».

أشرق وجه السلطان ارتياحًا. أما شيخ الإسلام، فقد استأذن في الانصراف مُسرعًا يخشى أن تنزل عليه اللعنة في مجلسه.

استند السلطان براحتيه على الفراش ليريح رأسه على الوسادة من جديد. ظن أن الفتوى ستسلمه إلى النوم، لكنها سهّدته إلى غير رجعة. شعر أن وجهه صار شمسًا تشع لهبًا. تأمل النقوش التي زينت عامودًا من أعمدة الفراش الأربعة، غابة من الرسوم و العاج المطموس لا يتبين منها شيئًا، لكنها بثّت في نفسه إحساسًا غامضًا بالجمال. (مصطفى) الوحيد الذي يتخيلها أشكالاً عجيبة؛ فذاك حاجب وهذا عين، و تلك حية تلتف حول نفسها محاطة بالزهور، و تلك ريشة اقتطعت من طاووس. أغمض عينيه في أسف حين ذكر أخاه في نفسه. ها هو شيخ الإسلام قد أفتى. . فهل يفعل؟

سمع صرير الباب، فانتبه لتلك القادمة. . (كوسم مهبيكر) الباش قادين زوجته الأثيرة. . أو جاريته الأثيرة، لا فارق، بل ربما كونها جارية أفضل بكثير من الحرائر اللاتي عزف السلاطين عن الزواج بهن منذ زمن، فلن تكون لها عائلة تطمع في مرتبة عظيمة أو يرون أنفسهم أندادًا للسلاطين فيعظم خطرهم و يتطلعون -بمصاهرتهم- إلى العرش الشاهاني. تقدمت (كوسم) في خطوات سلطانة حرة قوية، نافذة كبلقيس سبأ، لِمَ لا و هي عشق صبا السلطان و رجولته و مستودع أسراره و مشورته.

-مالذي حدث يا مولاي؟ لقد فتك بي القلق؟

قالتها بصوتها الناعم ذي اللكنة التركية التي تعلمتها على يد المعلمات لتنسيها عجمة أصلها. انساب الصوت في أذنيه دفقة وراء دفقة. أسلم نفسه إلى عبيرها علّها تزيل همه.

جلست بجواره على الفراش و احتضنته واضعةً رأسه أسفل ذقنها. حدثته غير ناظرة إليه كأنها تحدث نفسها. كلمات المواساة و الاشتياق خرجت من فيها محمَّلةً بأنفاسها. أحنى رأسه ومال به على صدرها قائلاً في خفوت: «سأقتل مصطفى يا كوسم»

تصنعت دهشة من لم تعرف بما دار. ربتت على كتفه بيدها وقالت: «هوّن عليك يا مولاي. أنت تفعل هذا لتحمي أبناءنا، فمن يحميهم إن لم تفعل؟ من يحميهم من غدر أعدائك؟ ليس هناك من هو في طيبتك و رحمتك و رقة قلبك. لا تظن أن كل الناس مثلك يا حبيبي سيرحمون صغارنا».

شعر بصدره يضيق وقال بذات الخفوت: «سأرسل له طواشيًا يُنهي الأمر».

-لا يا مولاي.. يجب أن تفعل بنفسك، يجب أن تذهب إلى قفصه لتمضي قانون الفاتح، ثم تحضر جنازته وتدفنه بكل إجلالٍ في تربة آية صوفيا جوار والدكما، ليشعر الجميع بنفوذ إرادتك.

تعرف أن حجتها واهية، وأنها لا تصلح لإقناع فتى غرٍّ، لكنها تمنت بينها وبين نفسها أن يأخذ السلطان بمشورتها فتصير الأمور وفق إرادتها المبطّنة.

... وانتشرت أجنحة المنية فوق القفص من جديد.

[٢]

- أقسم أني لم أتعمد ذلك يا شيخي.

قالها الفتى في إصرار يائس للخوجة (عمر) الذي قال: «لا تقسم كذبًا يا عثمان، لقد عز عليك أن يصرعك أخوك أمام الحرس». همّ الفتى بالحديث مرة أخرى لكن صمت؛ كيف يدافع عن نفسه؟ هل يتعلل أن الزيت الذي دهنا به جسدهما قبل النزال جعل أخاه ينزلق فكُسرت ساقه؟ كلا، لن يصدقه شيخه، إنه يستطيع سبر أغواره بنظرة من عينيه ودائمًا ما يقول له: «يا عثمان إنك لا تجيد الكذب وما ينبغي لك يا سميّ جدك الأكبر أمير الغزاة». «لماذا تفوقت عليَّ يومها يا محمد؟» همس (عثمان) لنفسه، ليس الخوجة وحده الغاضب مما حدث؛ أحزنته نظرة (محمد) العاتبة وأنينه

وهو يقول: «لقد كُسرت ساقي يا عثمان». نظر عندئذ للحرس فوجد في عيونهم خوفًا واستنكارًا خفيًا بدلاً من الإعجاب. همّ بقَول أي شيء، لكن معلمه أشار له بالصمت وأكمل في غضب: «لا تكابر.. إني أعرفك أكثر من أبيك، فأنا من ربَّاك وخبر نفسك»، ثم لانت ملامحه قليلاً واستطرد: «على أية حال لم أرسل في طلبك لهذا، بل لأبلغك أن أباك السلطان عاودته الحمى ولزم الفراش. قدّرت أن الخبر لم يبلغك بعد».

هنا هدأ الشيخ ليغضب تلميذه الذي رد في حدة: «كيف يبلغني وجاريته ملكت عليه قلبه وجعلته يقصيني عنه أنا وأخي، فأصبحت سجينًا كعمّي حتى ترفع الجارية أولادها على العرش وتقتلني أنا وأخي». أشاح بوجهه وأردف بحنق: «ثم ماذا أفعل الآن وبِمَ يفيدني الخبر؟»

رفع الشيخ حاجبيه بدهشة وقال: «ألا تصله؟»

-«لقد قطعني قبل أن أقطعه، ثم أأنت من يقول ذلك؟ ألم تقل لي إنه خالف عرف الغزاة الذي أقاموا دولتنا؛ فقعد عن الجهاد وترك الإنكشارية يعيثون فسادًا في السلطنة؟ ألم تقل لي إنه استرخى وسط الحريم وترك كل شيء للحاشية يرفعون بالبقشيش ويخفضون بالدسيسة؟».

ضرب (عثمان) المائدة بيده ورمع أنفه من شدة الغضب. وجم الخوجة لحظةً ثم قال: «صحيح أن أباك أزرى بالسلطنة، لكنه في النهاية أبوك وليس الوصل أن تصل من وصلك، بل أن تصل من قطعك». صمت الشيخ مرة أخرى؛ فالإتيان على ذكر الغزاة الأُوَل قد وقع موقعًا مؤلمًا في نفسه فقال

بمرارة حاول أن يخفيها: «أما الغزاة فحتى من دانت لهم الدنيا يفرقون عنهم، فليس كمثلهم أحد. . كانوا يجتمعون على بساط خشن أو على صهوات الجياد ليقرروا مصائر أمم وممالك، كانوا. . .».

بتر عبارته بغتة ولام نفسه أن استرسل أكثر مما ينبغي، فصرف تلميذه قائلاً: «اذهب الآن يا ولدي فصل أباك وأرضِ أخاك. أريد أن أعرف في الصباح أنك عُدته واطمأننت عليه وإذا استطاع محمد أن يركب العربة ويذهب هو الآخر إلى أبيكما فلتصحبه معك. والآن اذهب واتركني وحدي».

انصرف الصبي متعجبًا من حال معلمه حين أتى على ذكر الغزاة، كأنهما يتحدثان عنهم لأول مرة. لم يعط الصبي الأمر اهتمامًا على أية حال وانصرف عازمًا العمل بوصية شيخه على مضض عالمًا إن زوجة أبيه ستمنعه من الزيارة كالعادة، وحين غاب عن النظر، انحنى الشيخ الوقور على صندوق عتيق.

رفع غطاء الصندوق بحذر، فأنّ صريرٌ رفيعٌ كأنما ساءه أن يوقظه أحد من سباته الطويل، وأخرج منه الخوجة- بحرص- لفافة من الأوراق البالية التي -من قدمها- عادت لصورتها الشجرية الأولى فقربها الشيخ من وجهه ليشم رائحتها، ووقعت عيناه الدامعتان على الحروف التي تصدرت أول صحيفة في هذه اللفافات. .

«آخيان نامه»[١]

***

(١) بالعربية: كتاب الأخيان والأخيان جمع كلمة آخي وهي تعني الشهم الكريم.

من بين الظلام يظهر القمر رويدًا رويدًا. يكتمل بدرًا ويخرج من صدر الشيخ (أده بالي) ليستقر في صدر زوج ابنته (عثمان)، إنها الرؤيا التي بشرت بقيام دولتكم. تحفظها يا (مصطفى) كما لقنك إياها الخوجة. ترى شجرة عظيمة تنبت من صدر جدك، فتغشى العالم كله بفيئها. ترى أربعة جبال؛ القوقاز وأطلس وطوروس والبلقان. تتفجر من تحتها أربعة أنهار؛ دجلة والفرات والنيل والطونه. تحيطك حقول خضراء وجبال كستها الغابات.

تملأ عينيك وديان زاخرة بالقباب والأعمدة والأبراج والهلال يعتلي هذا كله؛ هلال برونزي كبير كذلك الذي يعتلي آية صوفيا. تختلط في أذنيك أصوات الآذان مع تغريد البلابل الواقفة على فروع الشجرة المتداخلة. تستحيل أوراق الشجرة وفروعها سيوفًا تتجه نحو مدينة القسطنطينية التي تقع عند ملتقى برين وبحرين، لؤلؤة مرصعة بالياقوت، كاد جدك (عثمان) يضعها في يده، لكنها وقعت منه.

انتهت رؤيا جدك، لكنك مازلت ترى المزيد من الأجداد..

ترى اللؤلؤة تسقط وتمر بفرع من الشجرة عليه رجلان يأكلان من عناقيد عنب لا تنضب؛ أحدهما يمسك بسيفه، والآخر يمد قلمًا من البوص في دواة زرقاء ويكتب صُحُفًا من نور. ترى فرعًا آخر عليه رجل يرتدي عباءة قرمزية تفوح منها رائحة المسك وخيوط من عرق أحمر تنساب من جيده. في الفرع الذي تحته يمد رجل يده ليمسك تلك اللؤلؤة العنيدة، لكنها تَفلَّت منه وقد أمسكه من تلابيبه رجل يذبحه مرة بعد مرة، فتخرج أصوات منكرة

من حَلق الأول الذي كُبل بسلاسل من حديد، إنه جدك (بايزيد) الصاعقة، تُرى لماذا يُعذّب هكذا؟

ظلت اللؤلؤة تمر بفرع تلو آخر حتى وقعت في حجر رجل ينظر إليها ضاحكًا ثم ينظر إلى الفروع أسفله باكيًا. يناول الرجل اللؤلؤة لمن بعده فتنتقل من فرع إلى فرع مرة أخرى. تسمع الصراخ والعويل حتى غطى على الآذان والتغريد. ترى أقوامًا كلهم أجدادك، تشعر بالعرق يتفصد من جبينك والرعدة الباردة تعتريك. يستمر حلمك حتى تستيقظ فزعًا من طرق طواشيك على الباب يخبرك أن رنين الفضة يقترب من باب قفصك.

يقف الطواشيّ منحنين مصطفين بانتظار الفرمانات النافذة. تجلس الجواري كاسفات البال بعد أن تركن لعبهن البريء ولزمن حجراتهن بانتظار الطلعة الشاهانية. لمَ يقترب رنين الفضة الليلة من قفصك ويتجاهل مخادع القادينات والجواري؟

تقدم يا أحمد بتؤدة كما اعتدت دومًا، تتهادى كما عودك معلموك حين اغتالوا مشيتك الفتية وأنت بعد صبي. خذ نفسًا عميقًا واملأ صدرك برائحة الحسم. خنجرك الذهبي في حزامك وفتوى شيخ الإسلام تعود ضميرك. لست أول من يفعلها، الفاتح جعلها قانونًا يسري في آل عثمان. أبوك نفسه فعلها؛ قتل تسعة عشر أخ له ودفنهم في قبر أبيه يوم تولّى العرش بكل احترام وإجلال. أنت تصون الدولة وتحفظها، تحمي أبناءك وتورثهم عرشك من بعدك. لا تتأثم فمنامك أضغاث أحلام.

دخل السلطان قفص أخيه وأشار للخدم بالخروج فما إن فعلوا حتى رمى الأمير (مصطفى) نفسه على أخيه وقال: «الآن نحن وحدنا يا أحمد. . . أفعل ما أشاء. لا تضرب مصطفى كما فعلت سابقًا».

حاول السلطان أن يبعد أخاه البدين بجفاء، لكن الأمير زاد تشبثًا دافنًا رأسه في صدر أخيه وقال: «كنت أعلم أنك لن تتركني في هذا القفص. لقد لبثت هنا سنين لا أعرف عددها. لا أرى الشمس إلا من خلف نوافذ ملونة. حتى أبناؤك لم أرهم منذ وُلدوا كأنه ليس لهم عمّ. . هندان أم لا تزورني إلا لمامًا تزجرني وتعيب عليَّ هيئتي». رفع الأمير رأسه فرأى أخاه السلطان دامع العينين، فمسح دموع أخيه بكم ثوبه المتسخ وقال في حنان: «لا تحزن يا أحمد فلست غاضبًا منك. أعلم أن الحكم يشغلك، لكني أيقنت أنك ستأتي إليَّ وتجالسني كما كنا نفعل صغارًا، أليس كذلك؟»

أمسك الأمير بذراع أخيه وأجلسه على الفراش، ثم أراح رأسه الضخم على حجر زائره وقال: «هيا يا أحمد نغنِّ أغنيتنا كما كنا نفعل سويًا».

رد السلطان متلعثمًا: «مصطفى. . أنا. . أنا».

يدك المرتعشة على الخنجر لا تملك أكثر من لمسه. الدم يكاد ينبجس من وجهك ويمتزج العرق بدموع مقلتيك. هل حانت ساعة النهاية حقًا؟

هل ستقتل (مصطفى) بعد سنين من الإبقاء على حياته؟

كم ثقيلة تلك الطعنة! لماذا لا تكون كأبيك الذي قتل الرهط من إخوته، ثم وقف عند باب السعادة يتلقى التحايا وينعم بالأفراح؟

لم يلحظ الأمير ما يدور بخلد السلطان وقال: «ماذا بك؟ ألا تحفظ الأغنية؟» ثم صار يغني عن دب وذئب وغابات، والسلطان كالمسحور يقتفي أثر الكلمات، ثم لم يلبث أن سكن الرأس الضخم نائمًا على حجر أخيه. ترك السلطان أخاه يرقد على فراشه. دلف إلى حجرته الشاهانية معلنًا فشله في مهمته وقد تداعت الذكريات البعيدة على عقله.

***

«أحمد، الطواشي ضرب مصطفى على يده لأنه أطعم أسماك البوسفور، ألا تحب الأسماك الذهب؟»

***

«أحمد، الخوجة الجديد سيء، أريد الخوجة القديم عزت أفندي».

***

«أحمد، أريد أن أرمي الذهب للسمك في البوسفور، إنه أفضل»

***

-أحمد، هل ستقتل مصطفى بعد أن أصبحت سلطانًا؟

-أحمد لن يقتل مصطفى حتى لو ملك العالم كله.

***

عاد السلطان أدراجه والآلام تعصف برأسه؛ بدا أن الحمى عاودته من جديد. ألقى نظرة أخيرة على قفص أخيه غير عالم أنه يعرف كل شيء،

يعرف أنه حين وضع رأسه في حجر أخيه كان كإسماعيل يوم الفداء، لكنه سيُذبح بأمر السلطان لا بأمر الله، وأن روحه كانت فداءً لجلوس أبناء أخيه على العرش. لم يكن الأمر غريبًا على أهل الأمير ليستبعده ويركن إلى محبسه في دعة. كل يوم يمر عليه كان ينتظر هذه الزيارة. صحيح أنه ظل ينتظرها من طواش أسود يمسك سكينًا يحز رأسه في صمت، لكن الخوف هو الخوف، وفي كل يوم يُنحر كبش جديد حتى أتى هذا اليوم في عمر الأمير فهل يكون الكبش الأخير كبش إسماعيل أم إسماعيل نفسه؟

لا يدري الأمير السجين، لكنه قام من فراشه وهَمهَم باكيًا: «لقد كنت مخطئًا يا عزت أفندي؛ أحيانًا ينتصر الإنسان على السلطان».

●●●

[٣]

«**السلام عليك** يا وارث آدم صفوة الله، السلام عليك يا وارث نوح نبي الله، السلام عليك يا وارث إبراهيم خليل الله، السلام عليك يا وارث موسى كليم الله، السلام عليك يا وارث عيسى روح الله، السلام عليك يا وارث محمد حبيب الله، السلام عليك يا وارث علي أمير المؤمنين، السلام عليك يا وارث الحسن الشهيد سبط رسول الله، السلام عليك يابن رسول الله، السلام عليك يابن البشير النذير وسيد الوصيين، السلام عليك يابن فاطمة سيدة نساء العالمين، السلام عليك يا أبا عبد الله، السلام عليك يا خيرة الله وابن خيرته، السلام عليك يا ثأر الله وابن ثأره، السلام عليك أيها الوتر الموتور، السلام عليك أيها الإمام الهادي الزكي وعلى أرواح حلت

بفنائك وأقامت في جوارك ووفدت مع زوارك، السلام عليك مني ما بقيت وبقي الليل والنهار فلقد عظمت بك الرزية وجل المصاب في المؤمنين والمسلمين وفي أهل السماوات أجمعين، وفي سكان الأرضين فإنا لله وإنا إليه راجعون وصلوات الله وبركاته وتحياته عليك وعلى آبائك الطيبين المنتَجبين وعلى ذراريهم الهداة المهديين».

«السلام عليك يا رسول الله أحسن الله لك العزاء في ولدك الحسين، السلام عليك يا فاطمة أحسن الله لك العزاء في ولدك الحسين، السلام عليك يا أمير المؤمنين أحسن الله لك العزاء في ولدك الحسين، السلام عليك يا أبا محمد الحسن أحسن الله لك العزاء في أخيك الحسين، يا مولاي يا أبا عبدالله أنا ضيف الله وضيفك وجار الله وجارك ولكل ضيف وجار قرىً وقِرايَ في هذا الوقت أن تسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقني فكاك رقبتي من النار، إنه سميع الدعاء قريب مجيب».

يتردد دعاء «زيارة وارث» من آلاف الحناجر عند المقام، الوجوه مغبَّرة من أثر ما أُهيل عليها من تراب، وتنسكب الدموع من عيون محمرة، وقد مسحت الريح على رؤوسهم المشعثة مسحة مواساة وعزاء، يجرحون رؤوسهم وأيديهم بالحديد؛ لعل هذا يشعرهم ببعض آلام سيد شباب أهل الجنة، لعله يشعر أن شيعته لم تنسَ المُصاب. إنه يوم الحزن؛ عاشوراء..

يوم خرج (الحسين) سبط رسول الله تاركًا الحج موليًا وجهه شطر العراق ليرفع راية العصيان في وجه (يزيد). لم يرضَ أن يلتبس الحق بالباطل أو أن

يرتدي كسرى عمامة النبي. خرج موقنًا أنه مقتول لا محالة، لكن لم يدرِ أن تلك المقتلة العظيمة ستحل بآل البيت ويموت كل أنصاره بسيوف قضقضت أعضاءه قبل أن تمسهم، ولما قضى، صمت الكون وندب الريح وطأطأ الثرى رأسه؛ قد أشفق أن يسيل عليه دم (الحسين) ابن الأطهار .

مات (الحسين) لكن لم يتألم. لم يحزن إلا على أمته. لم يشعر بجراحه ولا بالطعنات الغادرة التي مزقت جسده فداء كلمة الحق. كمثل (إبراهيم) الذي أُلقي في النار فداء كلمة التوحيد، فصارت ورودًا حمراء على صدره.

***

«السلام عليك يا وارث إبراهيم خليل الله»

***

لم تكن تلك آخر مَقَاتل آل البيت وأحزانهم، صار الأئمة بين مقتول ومسموم ومطرود. عرفتهم الأيام مقتولين مشردين، تهواهم القلوب وتقطعهم السيوف.

لكن الصفويين شاهات فارس سيثأرون، سيثأرون من كل كسرى ناصب آل البيت العداء، سينتقم لهم الشاه الأعظم (عباس الحسيني) سراج السلالة المصطفوية، السلطان ابن السلطان والخاقان ابن الخاقان، ملك الملوك ظل الله، سيثأر لقتلى الجمل وصفين وكربلاء، سيثأر للأئمة جميعًا حتى يعود الإمام المهدي المعصوم من حُجُب الخفاء، ويدعو لنفسه في مكة فيملأ الأرض عدلاً كما مُلئت جورًا.

طما بحر الكربات في القلوب كطوفان نوح. ودُّوا لو تفجر من صدورهم ليهلك العصاة المتكبرين، وخرج دعاء من الموكب مؤيَّدا بالتهليل والتأمين: «اللهم عجل فرجهم والعن عدوهم وانصر الشاه عباس على بني عثمان».

نعم، فكل شهر هو المحرم، وكل يوم هو عاشوراء وفي كل أرض كربلاء.

***

«فيه مداهنة واكتراث بمداراة الناس، وفيه الميل الزائد والنعومة إلى أرباب الرياسة والحكومة».

داوم (أسعد) أفندي على قراءة هذا السطر مرات عديدة، وبعد كل مرة يرفع رأسه إلى أعلى ويفرك عينيه بكفيه ثم يزفر في أسى.

هل سيأتي يوم يقول الناس عنه ذلك؟

هل سيأتي يوم يُقال فيه إن شيخ الإسلام (أسعد) أفندي كان مداهنًا مداريًا؟

بئس الكاتب أنت يا (طاشكبري زاده) وبئس الكتاب عقدك المنظوم في أفاضل الروم!

مالذي يبقيه إذن؟

في كل الأحوال سيأتي أي شيخ ليقبل ما يريد رفضه؛ شيخ يفتي بقتل أمير بالأمس ويجعله وليًا للعهد اليوم.

صحيح أنه ارتاح لأن الأمير لن يُقتل بمقتضى فتواه، لكن أيعني هذا أن يولي الأمير المحبوس السلطنة وهو لا يدري من أمره شيئًا. يصير من شاة تُذبح إلى سلطان يُقبل طرف ثوبه!

رغم كل هذا لم يستطع أن يرفض أمر السلطانة، إنه كسحرة (موسى) قبل أن يتوبوا إلى الله، كلا إنه كهامان فرعون. .

لا! هل كان هامان يشعر بالذنب ويخشى اللعنة مثله؟

منذ اختط (سليمان) القانوني العديد من المراتب والمراسم للشيوخ والقضاة صار بعضهم كـ(بلعم بن عوراء) عابد بني إسرائيل؛ إذا بلغوا مرادهم لهثوا، وإذا نكصوا على أعقابهم لهثوا. بيد أن المشايخ- أنفسهم- بدؤوا تلك المسيرة منذ وقت طويل قبل سلطانهم؛ فالمداهنة تبدأ من بواكير العلم؛ من يداهن شيخه يكون مقربا في الحلقة، وأي حلقة تجذب كحلقة السلطان؟

و ما مصير تاركيها؟ ها هو (يحيى) أفندي -الذي حمل السلطان على قتل والٍ ظالم- تم نفيه دون علم السلطان إلى أقاصي الأناضول. ماذا كان يمكنه أن يفعل ليحمي الرجل من بطش الباشوات الموتورين لقتل صاحبهم؟

رغم ذلك حمّلها له (يحيى) أفندي، وأخبره أنه يزري بالعلماء ومكانتهم في نظام العالم الذي اختطه الفاتح مع ما اختط من مراتب خدم السراي وعمالها!

أدنى الشيخ قدح القهوة وارتشفها لتضارع مرارتها أفكاره، ثم قام فزعًا لصلاة القيام فيَ هذا اليوم المُبارك؛ يوم عاشوراء، لينسى آلامه مثل كل مرة، حتى تعاوده خشية اللعنة من جديد.

***

حاول السكبان باشي[1] (داوود) أن يغضب، لكن فشل فقهقه ساخراً حتى سعل. كم هي مسلية أخطاء (مير حسين) كاتب الإنكشارية[2]!

لا شك أن الحماقة تثير غضب (داوود) باشا وغيظه في كثير من الأحيان، إلا أنه يعرف جيداً أن أخطاء الكاتب الغبي أقل خطراً من معاون طامح.

-منذ كنت معاوني في قيادة الأورطة[3] فيما مضى وأنت تثبت دائمًا أنك جسد بلا رأس. أتذكر حين كنت تكتب في دفاتر العلوفة[4] أسماء مختلفة في كل مرة لتأخذ العلوفة مكانها؟ حتى حين جادت قريحتك باختلاق الأسماء لم تستطع حفظها بدلا من تغييرها كل مرة وكأنك تقف في ميدان الخيل وتعلن أنك سارق!.

زمَّ (مير حسين) شفتيه في خفوت وقال مجادلاً: «أقسم أنني لم أقصد هذه المرة»

---

(١) السكبان باشي: قائم مقام أغا الإنكشارية عند الذهاب للحرب.

(٢) كاتب الإنكشارية: مسؤول عن النواحي المالية في الحامية.

(٣) الفرقة من الجيش.

(٤) المرتب اليومي.

-«نعم، لم تقصد لكن إسلامبول كلها علمت أننا سنوزع على قادة الأورطات الجوخ والأقمشة لكسوة الجنود وغيرها من الأرزاق، فبدلاً من توزيعها حسب الحظوة، ونجعلها منة وفضلاً منا على قادة الأورطات ومنهم على جنودهم، تضعنا كلنا في مأزق وأزمة العلوفة المتأخرة ووزن الأقجة الناقص لم تنته بعد!»

كاد (داوود) يكمل كلامه المعتاد عن إثبات الإنكشارية دائمًا أن الحماقة لا حدود لها وأن السيف دائمًا ما يريح عقل صاحبه، لكن استأذن في الدخول عليه الباش أوجي القيّم على ضرب النار وبعد الرسميات المعتادة وغمغمة ساخطة من (داوود) باشا على أغا الإنكشارية الذي يترك له كل شيء، قال الباش أوجي في حذر: «الجنود أصبحوا صعاب المراس ولا ينصاعون للتعليمات أثناء التدريب في جل الأورطات ولا يعبأون بدقة تصويبهم يا باشا».

انتظر أن يصيح (داوود) باشا في وجهه ويعنفه لكنه فوجئ بالباشا يجيبه بلا اكتراث: «و ماذا في ذلك؟ ألا تسمع فرقعة بارود البنادق ويسلمونك إياها بعد التدريب وقد أفرغوا ذخائرهم؟ إنها أمور تافهة لا يجب أن تشغل نفسك بها». تدلّى فكُّ الباش أوجي من الدهشة وقال: «يا باشا إنهم يصوبون كالعميان!».

شعر (داوود) باشا بالضجر وزفر في ضيق قائلاً: «و هل تريدهم أن يصوبوا كالصقور؟ في الحرب أيها الباش أوجي لن يذهل الجندي عن كل ما

حوله ليصوب سلاحه على رجل بعينه. ثق أنه حين يشعر الإنكشاري بالخطر فسيصوب كأنما يمسك بعصا الموت»، ثم قام من مجلسه مشيراً للباش أوجي أن ينصرف. دنا منه (مير حسين) وأعطاه بعض الأوراق فصرفه (داوود) باشا كذلك وهو يطالع أخبار الأورطات وتمتم بخفوت: «هذه هي فائدتك الوحيدة أيها الغبي، أنك تملك فضول جارية عجوز وشراسة كلاب الصيد».

ذكَّرته تلك الصفة الأخيرة بقراقوش (محمد) الذي صار باشا، ذلك الباشا الذي طالما ذكره بحياته القديمة.

قاسية تلك حياة الثكنات، ثكنات نظيفة.. مكسوة بأحجار الخزف، لكن بلا روح إلا من همسات صغيرة بين الأسِرَّة المتجاورة تتحدث بتلك التركية التي وحَّدت عجمتهم.

ليس لهم سوى الكلام؛ في غرف النوم، في غرف اللهو، في الطريق إلى ميدان التدريب. رغم ذلك لم تخلُ الحياة من متاعب ومن محاولة البعض أن يسيطر على أقرانه.

تذكر (داوود) أول مرة تحرش به ذلك المدعو قراقوش (محمد)، يومها تشاجرا وحين جاء قائد الأورطة، أسلم القراقوش نفسه لـ(داوود)؛ فظهر الأخير كالمعتدي ليجلده القائد ثلاثين جلدة!

منذ ذلك الوقت لم يسلم من تحرشات القراقوش ومكائده، كان عليه أن يدفع ثمن استعصائه على الترويض.

في محلة سجرديم حيث تدربوا على الرمي بالبنادق، سُرقت ذخائر (داوود) ليظهر مهملاً وتكفلت شراسة طباعه لتجعله فوق ذلك مشاغبًا.

عانى من الحبس والجلد، وفي أحد أيام الحبس قلد قراقوش صوت قائد الأورطة وهو يأمر - من وراء الزنزانة- بإخصاء (داوود) وضمه للأغوات البيض، عندئذ تبول (داوود) على نفسه رغم أنه صبي وصرخ فرأى عيني قراقوش تطل من بين قضبان الزنزانة في تشف. وحين أُطلق سراحه كانت تلك بدايته مع الحشيش. في سمادير السكر كان ينتقم من قراقوش وينكل به. يصير ملكًا ويسبي من آل(عثمان) غلمانًا له. زاد وزنه وكسله وانتابته الضلالات، فلم يعد قادرًا على شيء. سُجن مجددًا ولما وصل قائد الأورطة الجديد، دخل عليه زنزانته وفي يده قدح من القهوة.

-ما اسمك؟.

-داوود.

-قائدك القديم ساخط عليك، ويريد أن يتخلص منك بأي شكل، حتى أنه يفكر بإخصائك.

-فليفعل.

-أنت بعد فتى في الثامنة عشر.. لماذا تؤذي نفسك؟

-و لِمَ تهتم أنت؟.

- لأنني لا أريد أن أخسر أي جندي أنفقت عليه الدولة لتجعل منه

غازيًا، ولأن الإنكشارية لا يتعاطون الحشيش كالصعاليك. إني أعرف ما يغضبك؛ قراقوش محمد أليس كذلك؟.

نظر (داوود) بعدم فهم للقائد الذي أضاف: «أعرف كل شيء يا داوود. أمهلك بضعة أيام لتبرأ مما أنت فيه. بعدها ستصير يدي اليمنى التي تقبض على الأورطة . . . وعلى قراقوش محمد».

مد القائد يده بقدح القهوة إلى (داوود) وقال متبسمًا: «اشرب هذا القدح، قهوة ممزوجة بالحشيش تودع بها أيامك القديمة».

تلألأت عينا (داوود) جذلاً وقبض على القدح بشغف وحين أغلق القائد كمانكش[1] (علي) باب الزنزانة وخرج. سمع صوت تهشم القدح بالأرض فابتسم ظافرًا؛ لقد سكر سجينه بخمر الفرصة وصار مدينًا له بكل شيء.

***

-«ألا تستريح قليلاً يا مولاي؟ إنك ترهق عينيك في القراءة على ضوء القناديل، وتهلك نفسك بالقراءة. أشعر بالذنب أن أقمت لك خزانة الكتب الصغيرة هذه»، قالها (سليمان) أفندي القيم على مال الأمير (محمد) بن السلطان (أحمد)، فطوى الأمير الصبي الكتاب ونظر لـ (سليمان) أفندي بامتنان وقال في أسى: «أنت تعلم يا سليمان أفندي، الكتب هي سلواي

(١) كمانكش معناها الرامي الماهر.

الوحيدة؛ الخوجة عمر يهتم بعثمان كثيرًا وأنا أمكث وحدي بين الخدم، ولمّا أردت أن أخالط أخي وحرسه، كُسرت ساقي، فأصبحت طريح الفراش منذ شهر كما ترى». تنهد الأمير وأضاف: «إنني أحب الكتب لأنني أشعر أنها تحوي الكثير من الحكمة. أحببت الأشعار والحكايات خاصة عندما..».

أراد أن يكمل جملته لكن حزنه قطعها؛ أراد القول إنه أحب القراءة والشعر الصوفي بسبب أبيه. لكن يبدو أنه لم ينل من «صفاء» أبيه نصيبًا غير التجاهل. هو يحب أباه رغم كل شيء ولا يتظاهر بغير ذلك على عكس أخيه (عثمان) شعر بيد حانية تمس شعره الأشقر وتنفض كل الذكريات الأليمة عن رأسه وسمع صاحبها سليمان أفندي يقول: «أعلم كم تحب القراءة يا مولاي، لكن يجب أن تستريح وتنام». تقهقر ناحية الباب وانحنى باحترام استعدادًا للمغادرة حتى استوقفه الأمير متسائلاً عن وجهته فقال: «اليوم يوم عاشوراء يا مولاي وسأذهب إلى خانقاه المولوية للاحتفال»

-«سأذهب معك»

-«كيف تذهب يا مولاي؟ أنت مريض ولا تستطيع النزول».

-«أريد أن أذهب معك، لقد سئمت جدران القصر وسئمت الخدم الذين يغلبون أنفسهم حين يلاعبونني النرد. أريد أن أحيا بين الناس.. أريد أن أعيش تلك الحكايات التي تحكيها عن صباك».

-«وساقك يا مولاي؟».

-«لا يهم؛ سنذهب بالعربة. مُر الحوذي يعدّها وأرسل إليّ خادمًا يعاونني في ارتداء ثيابي وائتني ببعض المال لأتصدق به على الفقراء».

هز (سيلمان) أفندي كتفيه في استسلام ونفذ ما أمر به أميره.

في الطريق احتضنت كف الأفندي الكبيرة كف الأمير الصغير، وأحس (محمد) يومها أن يده لا تتوكأ على الأفندي فحسب، بل توكأ قلبه أخيرًا على قلب حتى لو لم يكن قلب كاتب الأشعار، حتى لو لم يكن قلب السلطان.

***

«إن منظرهم لمشرق وسواعدهم لقوية، وإنهم سيرجعون من كل معركة مظفرين لا مخذولين»

كذلك دعا حاجي (بكتاش) -شيخ الطريقة البكتاشية الذي زُعم له بالصلاح والتقوى- وهو يمسح بكم ردائه على رؤوس من كانوا طباخين من سبي الغزو، وعقد لهم لواء رُسم عليه سيف (عثمان) ذو النصلين، ثم التفت للسلطان (أورخان) بنى(عثمان) قائلاً في سرور: «بارك الله لك فيهم يا مولاي وإني قد سميتهم الإنكشارية»

***

يقهقه (داوود) باشا سخرية كلما يتذكر هذه القصة الملفَّقة التي تروي بدايات أسلافه في وجاق الإنكشارية؛ فحاجي (بكتاش) هذا مات قبل السلطان (أورخان) بأعوام عديدة، لكن البكتاشية منذ صاحبوا الإنكشارية لا يملون تكرار هذه القصة.

قادته قدماه إلى تكية من تكاياهم المجهولة النائية في يوم عاشوراء ليحضر -متخفيًا- احتفالاً من نوع خاص زاد من سخريته.

- تفضل أيها البابا.

ناول المريد الدرويش القرع إلى شيخه. تصاعد دخان الحشيش من القرع مالئًا صدر الشيخ. تنقل القرع بين المريدين المتناثرين حول حوض المياه الذي توسط التكية وتصاعدت أنفاس الخلائق. شرب بعضهم القهوة المحلاة بالسكر لتزيد نشوتهم، بينما ابتلع بعضهم مع القهوة قطع الحشيش ثم انزوى في ركن من أركان التكية يتقيأ أو يفترش الأرض في سلام لا يدوم.

بعد لأي أتى الدور على الباشا المتخفي فملأ صدره بالدخان، ثم أخرجه ببطء، ثم أعاد الكرة مرة بعد مرة، فشعر ببصره يزيغ والصورة تتراقص أمامه، اختلطت على جسده الأمور؛ فظنت عيناه أنها أذن وظنت أذنه أنها عين؛ سمع صوت لهو المريدين بالماء فرأى أمواج البحر تتلاطم، ورأى جذوات الجمر متراقصة فسمع طقطقاتها الدقيقة والنيران تنضجها.

همس ساخرًا: «من ذاق عرف». ما أجملها العودة بعض الوقت إلى تلك الأيام دون خوف من جلد أو حبس.

استند براحتيه على الحوض وحاول أن يرى صورته على صفحة الماء، فسرعان ما صار فيها. أخرج رأسه المبتلة بسرعة وأطرافه تتنازعه. هل يراه

أحد؟ لقد جاء متخفيًا، لكن لا يدري أيعرفه أحد ممن يتقدمون مواكب السلطان أم لا .

و إذا لاحظ أحدهم، فلا شك أن حالهم الآن أسوأ منه. قهقه ثم انتحب، احتضن القرع كطفله الرضيع يطلب المزيد من النشوة .

مر الليل ليفيق، ويعود إلى قصره على جواده واطئًا رجلاً أو اثنين في الطريق، وحين يستيقظ، سيصلي العصر مع إمام الوجاق في بداية يوم جديد .

❊❊❊

سقط الدمع قطرة وراء قطرة كأنه فضول الندى ينزلق على أوراق الشجر . سقطت بعض القطرات على جلبابه فصيَّرت لونه داكنًا، وامتصت لحيته بعض تلك الدموع فلمعت في ضوء القنديل .

مزيج من الحزن والحنين، زفرات من العشق والأنين. مشاعر لا تفارق الخوجة (عمر) كلما قرأ آخيان نامه؛ كتاب الأجداد. رأى بين السطور حياته في الجبال، رأى البئر المعطّلة والبيت الحجري الذي حفر الزمن قسماته عليه. تذكر أمه وهي تغزل الصوف وتذكر أخاه (عزت) أفندي راكبًا الحمار الهزيل إلى الوادي ليعود إليهم بما جادت به الأرض. استحضر صورة الأجداد حين انزوى كل منهم في مكان. بعضهم ضاق بتلك الحياة القاحلة ونزل بأهله إلى المدن. «كلهم عبيد؛ سيدهم الشهوة ونخَّاسهم الشيطان» كذا قال جده عن المفتونين، وما ذكره بكل هذا إلا يوم عاشوراء؛ يوم نجى

الله (موسى) وقُبضت إليه روح (الحسين). . يوم شقت لـ(موسى) عصاه طريق النجاة وسالت دماء (الحسين) في الفلاة. نجى الله (موسى) فتاهت أمته في الصحراء لقعودها عن الجهاد واستمرائها عيش العبيد، وقبض الله (الحسين) لترسف أمة جده في أغلال (يزيد). .

فيه هاجر (موسى) لئلا يسجد قومه من دون الله لفرعون إنسان وفيه حارب (الحسين) لئلا يحكم الأمة من دون الخليفة سلطان.

***

«السلام عليك يا وارث (موسى) كليم الله»

***

كم من الأسرار يحمل الخوجة!

كم من الآلام يكتم في قلبه!

يود لو هدّ القصور بالفؤوس، لكنه يصطلي نار العيش بين جنباتها. يصطبر ليتحقق الحلم، تُرى هل ينجح؟

ويحه لِمَ يسأل!

(موسى) و(الحسين) لم يسألا، هما مصباح الهدى وسفينة من نجا

ضربا مثالاً للورى؛ لا يضير إخفاق المرء إذا سعى.

●●●

[٤]

في ليالي إسلامبول الباردة لا يُسمع في قصر (داوود) باشا غير الهمس وحسيس النيران، و يلزم الخدم حجراتهم لا يخرجون منها و تتصلب أجساد الحرس مع سلاحهم. كان (داوود) يستمتع بهدوء قصره و يجد فيه الراحة من مشاحنات الإنكشارية و مشاكلهم؛ فهو يهمد غضب النهار بالصمت، ويسخي تدبير الليل كذلك. .

هرول (داوود) باشا متوترًا ككل مرة، ثم قصد في مشيه و دلف إلى الحجرة حتى ينتظر رسولها؛ رسول (كوسم).

يخشى أن يشي به أعداؤه خاصة لأم زوجه (هندان)؛ زوج أب السلطان

القائم. تظن منذ سنوات أنه يولي خلصاءه في الجيش نصرة لها و لابنها المجذوب (مصطفى)، لا تنفيذًا لرسم (كوسم) التي اصطنعته و زوّجته من الأميرة (صفية) أخت السلطان ليصير داماد [1] (داوود) باشا.

سلَّم الرسول رسالته مرتعدًا و عاد مسرعًا إلى قصر السلطان مشيَّعًا بنظرات الباشا المتشككة؛ فدائمًا ما يتشكك أن يبوح الرسول بمهامه لأحد رغم أن ذكر الباشا كفيل ببث الرعب في أشجع القلوب. فضّ الرسالة في فضول و قرأها منعقد الحاجبين، وما لبث برهة أن ابتسم ارتياحًا. يالها من امرأة! تشجع زوجها للذهاب بنفسه لقتل أخيه لأنها تعلم رقة قلبه، فيحفظ حياته و يحفظ رسمها و تدبيرها! سمع كثيرًا عن جمالها و رجاحة عقلها، لكنها لا تمثل له سوى خط؛ خط عثماني أزرق يبرز مفاتن عقلها؛ فالخط خط حاذق ماهر يعشق الجمال، كأن «الباش قادين» تستعيض عن رقة صوتها بجمال خطها، و لم تنس يومًا أن تضع طغراء باسم السلطانة (كوسم) محاكية زوجها السلطان.

ياللأسى أن تُلقى تلك الرسائل في النار، لكنها الحيطة و الحذر!

طوى الباشا الرسالة و غمسها في نار القنديل حتى صارت رمادًا، ثم صعد إلى مخدع زوجه الأميرة (صفية)، فوجدها تهدهد ولدهما بعد أن أرضعته، فقال ساخرًا: «ألسن الجواري أولى منك بهذا العمل يا أميرتي؟»

-«لا أريد أن أربي ولدي تربية الجواري يا داوود».

---

(١) كلمة معناها النسيب وهي لقب لمن تزوجوا من آل (عثمان).

- و ما عيبهن؟ ألا ترين كيف تحسن كوسم التدبير، ترفع و تخفض من تشاء؟

- قد تحسن كوسم حياكة المؤامرات و الدسائس، لكنها لا تكاد ترى أولادها، و كيف لجارية مثلها أن تربي رجلا؟!

إنها لا تعرف إلا أن تسحر سيدها كالغواني و تدبر بليل لتحتفظ به.

-«أتغارين منها؟» قالها مزيداً في سخريته و قد استثارته كلماتها، فردت في غضب و إباء: «أنا أغار منها! أغار من جارية لم تعرف من أي بيت جاءت قبل سبيها إلى قصر أبي؟»

استمع لكلماتها و هو كظيم. ربما لو كان رجلاً آخر لتجاهل الأمر و عدّه غيرة نساء، لكنه لم ينسَ، و أنّى له أن ينسى؟

لم ينسَ أنه كان مملوكًا، عبدًا حتى لو عاش في قصر منيف و تزوج من بنت أسياده و حاز مالم يحزه الترك الأقحاح.

***

«فإذا ما أفاء الله على الغزاة و كثر في أيديهم المال و أسباب الترف، نزع بعضهم إلى اصطناع الموالي و المماليك ليتغلب بهم على من هم كفؤ له في قبيلته و لهم في السيادة مثل سهمه، فيكون حينها سلطانًا لا غازيًا، يتبعه المقهورون لا المهتدون».

آخيان نامه

***

و من أدراك أنها غيرة نساء؟ إنها تهينك . . تهين أصلك . . تذكرك بسببك من بيت أبيك . . تتألى عليك بنسبها . . إنها لم تصمت بعد، لا زالت تهين (كوسم) و أصلها .

لكزة . . .

لكزة قوية لكزها الباشا لزوجه في عنف وضع فيها كل غضبه و انفعاله . نظرت إليه كالمصعوقة و قد جمدت ملامحها و طفر الدمع من عينيها، جمدت ملامحه بدوره و احمر وجهه . شعر بخطله و طيشه، فقال متلعثماً يحاول البحث عن عذر : «هل جننت؟ . . . أتريدين أن يسمعك أحد فيبلغها، فتثير أخاك علينا؟ ألا تعلمين أن لها عيونًا في كل مكان؟»

أنّبته نظراتها الدامعة العاتبة، فالعشق يسكن قلبها و قلبه، فقط حين ينسى أغلال روحه . . تلك الأغلال التي نبعت من أصله، من الظهر الذي جاء منه، لكن يبدو في تلك الساعة أن دموعها صهرت تلك الأغلال، فمسح دموعها بيده و قال في لوعة : «صفية، يا زهرة الحزام، أنت تعرفين الحياة التي أحياها و الأعداء الذين يتربصون بي»، ثم ضمها إلى صدره و اغرورقت عيناه بالدموع . دعا الله في سره أن ينسى -و لو للحظة- تلك الدنية التي يشعر بها ليعيش سعيداً، و إلا فما فائدة المال و الجاه و القربى من أولي الأمر؟ ما فائدة هذا إن لم يكن لزوج محبة و ولد يرثه؟ عليه أن ينسى أهله، من كانوا و كيف كانوا، و يلقي بجواده الخشبي الصغير الذي يحتفظ

به من أيام السبي، يطرد من ذاكرته تلك الوجوه الشبحية المتغضنة و تلك الأصوات الأعجمية المتسارعة. إنها بين ذراعيه الآن و هو يقبلها بعنف ليخمد ذلك البارود المتأجج في قلبه، و دون أن تشعر انحدر الدمع من عينين تستسمح إحداهما الزهرة الحمراء و الأخرى تدعو الله أن يرحم صاحبها من عذابه و أغلال ماضيه.

❊❊❊

أزواج من العيون رمقت الجسد المرتجف على الفراش. عيون منكسرة من الحزن و عيون جاحظة تريد سبر أغوار السلطان في همسه مع شيخ الإسلام. التفت الشيخ ليتأكد أن الجميع يقفون بعيداً عن الفراش جوار الباب. اقترب من السلطان ثانية و قال: «لا يصلح يا مولاي، الأمير عثمان صغير و بحفظك حياة أخيك يكون أحق بالسلطنة». سعل السلطان بعنف حتى خشي من رمقوه أن يموت قبل أن يحسم الخلاف. منذ فترة طويلة جرت العادة على قتل الإخوة لتتجنب الدولة الفتنة التي عصفت بدول كثيرة و ممالك حولهم. كلهم يذكرون كيف كانت الفتنة بين السلطان (بايزيد) الثاني بن (محمد) الفاتح و أخيه (جم) الذي لم يكتف بالخروج على أخيه، بل حين أسره النصارى تنصّر و دعا بأمور غريبة! منذ ذلك الوقت يتم تنفيذ القانون بلا رحمة و بإجلال كذلك؛ فيُكفّن الإخوة المقتولون في الحرير و يُدفنون في جنازة مهيبة لتضحيتهم من أجل السلطنة؛ من أجل نظام العالم. مرت اللحظات طويلة ثقيلة حتى تنفس الجميع الصعداء و عادت العيون الجاحظة مكانها حين طوى شيخ الإسلام الوصية و أومأ برأسه في رضا بعد

أن أقنع السلطان بفتواه. صحيح أنه وافق بأسى و هو يذكر وعده لـ(كوسم) بحماية الأولاد، لكن شيخ الإسلام (أسعد)أفندي طمأنه:

- طالما خرق القانون يا مولاي، فسيصير خرقه سنة تتبع من بعدك فتحمى بصنيعك حياة أولادك.

لم يشأ القول أن (كوسم) أرادت هذا، وترجو لو أن السلطان القادم أنفذ قانون الفاتح على إخوة أولادها غير الأشقاء لتزيح من يعترض طريقها للعرش. السلطان يحتضر على أية حال، فليظنن ما يريد وليمت سعيداً؛ فلا طائل من وراء الصدق الآن، وليتحمل شيخ الإسلام وحده تبعة فتواه، و يحمد الله أن قدّره على حقن الدماء بين صبي أمرد قليل الأنصار وبين نزيل قفص طوع أمره مئات السيوف، و حريم يحكن المؤامرات خلف النقاب، و سفراء كفار بدولهم و تجارتهم رأوا في وكلاء المحجوب خير معين على سياستهم في هدم الدولة العلية.

هاهي اللحظة المنتظرة قد حانت، إن السلطان لن يبتسم و يرى سيدي رسول الله قادماً ليصحبه للجنة، أو يصرخ أن الزبانية يسوقونه إلى جهنم. كل ما رآه الحاضرون أنه رَمَز بشفتيه رمزاً قدّروا أنه تلاوة الشهادة، و انقبض وجهه، ثم لم يلبث أن انبسط، ليقرأ بعدها (أسعد) أفندي خواتيم سورة الفجر داعيا الله أن يتغمد المتوفى برحمته.

فهل يتغمده الله معه؟

***

«أنت الآن لم تعد أورطنجي [1] . . .

أنت الآن حاصلّي»

رقى (إبراهيم) أغا رئيس الطواشي السود الطواشيّ المنحني أمامه كأنه يرسم فارسًا من فرسان أوروبة. رفع الطواشي المترقي بعدها رأسه وقبّل رداء الأغا الأبيض المغطى أطرافه بفرو السمور، ثم غادر الغرفة و غاب عن الأنظار. يعلم سيده إلى أين يذهب؛ إلى مسجد الخصيان ليصلي ركعتين، ثم يفرق صدقة على فقراء إسلامبول.

كما فعل الأغا منذ سنوات طويلة عدد الشعرات البيضاء التي تخللت شعره الأسود الخشن رغم أعوامه الثلاثين. نظر إلى وجهه في زجاج النافذة الملون، تأمل شفته السفلى المتدلية و تحسس بأصابعه السوداء الطويلة أثر جرح غائر لم تُمحَ آثاره من جبهته الداكنة. . جرح ذكره بالبداية . . .

***

دارفور. . بلد القرآن، حيث تحط قوافل الحج القادمة من السودان الغربي رحالها قبل موسم الحج بشهور. كان يومًا عاديًا حمل فيه الصمغ على ظهر حمار أبيه. منّى نفسه بالذهاب إلى السوق حيث يبيع أبوه ويشتري بينما هو منهمك في اللعب.

---

(١) رتبة وسطى بين نواب الخلفة (الحارس البديل) ورتبة حاصلي التي تعني (كامل التدريب).

كان يومًا عاديًا و غارة عادية من اللصوص. كان قتل أبيه عاديًا و سرقة بضاعته مألوفًا، حتى أسره وبيعه للنخاسين لم يكن غريبًا في ذلك الوقت. كثيرًا ما سمع (محمود) عن أقرانه الذي بيعوا عبيدًا وهم أحرار يشهدون أن لا إله إلا الله. حملوه مع إخوان الرق في قافلة كبيرة؛ أكوام من الصمغ وريش النعام، وجبال من تراب الذهب والكمون والتمر الهندي يحرسها ما يشبه الأورطة العظيمة من الرجال الأشداء.

لم يتخيل أن النهر الذي سبح فيه حرًا سيحمله الآن فُلكه إلى الرق والذل. لن يرى أباه ثانية حتى لو تاب سارقوه توبة مفاجئة وأرسلوه إلى قريته، لماذا أسروه في هذه السن؟ لماذا لم يسترقّوه حين كان في عمر أصغر لا يعي ولا يعرف شيئًا إلا ذكريات سرمدية ما تلبث أن تمحوها السنون كالإنكشارية؟ أسئلة كغيرها لن يعرف لها إجابة.

مرت بعدها الأيام بطيئة في الفُلك حتى وصل أسيوط لتنزل به النازلة الثانية...

-افتح فخذيك أيها القرد.

ارتعد من خشونة صوت آسره القبطي. التصق فخذاه كأنه علم ما سيحدث. أمسكت به سواعد فتية لكنه قاوم. أمسكوه كالمصلوب و نفرت العروق في جسده دفعة واحدة تصرخ به أن يفعل شيئًا قبل الهلاك. تلوّى بين أيديهم الغليظة بجذعه العاري النحيف دون جدوى، وحين سئموا منه تلقى ضربة شديدة على جبهته، ثم كسى الظلام بعدها كل شيء.

***

أفاق من ذكرياته و تحسس جرحه مرة أخرى. عدّل طربوشه الأبيض الطويل ليغطي ندبته، ثم غرق في نهر الذكريات من جديد.

***

حين أفاق أحس بألم رهيب بين فخذيه. كشف سرواله ونظر...

في البداية ظل يصرخ حتى فقد الوعي، و حين أفاق ظن نفسه يحلم، لكن نظرة ثانية بددت الشك.

كان يتجنب النظر كأنه مازال بخير و ترك نفسه لمقادير الحياة. بيع إلى والي مصر الذي اشتراه مخصيًا حتى لا يغضب الله. لقنه الخدم الشهادتين ثم سمّوه (إبراهيم) و أرسلوه هدية للسراي. ظل يشعر بإزاره يضيق لمرأى الحريم. أوهم نفسه أن الدماء الحارة تسري في عروقه و هو يخدمهن بينما هن غير مباليات به. ذات مرة تجاسر و نظر إلى ما ظل يتجنب، و طوى أردية القطن و الحرير الفاخر عن جسده و تحسس جروحه بأنامله. صار هذا ديدنه كلما خلا بنفسه حتى حفظ شكل الندوب و الجلد المحروق، و الثقب الذي يسمح لبوله بالخروج. لا يعرف أهو حب الألم، أم مس من الجنون سيصحبه إلى القبر؟ تكفأ الحريم كالطاعون و سعى للانضمام لأغوات الحراسة و توسل لهم حتى قبلوه.

صار أعلم مما كان، أنظف مما كان، ترقى بين المراتب؛ من خدمة الخصيان الأقدمين إلى حراسة أبواب الحريم و الاحتفاظ بمفاتيحها، ثم التزلف للحاصلية؛ حيث يعني رفضه بينهم ضياع الترقي و البقاء في مرتبة

دنيـة للأبد. تذكـر يوم جلدوه لخطأ ارتكبه في الخـدمة و اسـتغله أعـداؤهم الطواشي البيض ليـربحوا جـولة في حـربهم للسيطرة على خدمـة الحريم. يسأل كيف يتكالب هؤلاء على خدمة من يذكـرنهم جـميعًا بما جرى لهم، لكنه يفعل مـثلهم؛ فـلم يبق شيء يعطي حيـاتهم مـعنى دون هذا التنافس. أخيرًا صار أغا الطواشي السود، صحيح أن آلام الجلد البعيدة ولت إلى غير رجعة، لكن شبح الغضب عليه و نفيه إلى مصر ليعيش وحيدًا أكثر إيلامًا و قسوة. تارة يلعن مصر التي أخصته و يشعر بامتنان لإسلامبول التي أعطته كل شيء، و تارة يلعن نفسه على غبائه! و هل خـصـته مـصـر إلا من أجل إسلامبول. هل أخصاه الوالي -بيد قبطية ترفع عنه الإثم- إلا لإرساله هدية يتزلف بها إلى السلطان ليتزلف بعد ذلك بنفسه للجميع. كم أذل نفسه لينال الحظوة عند قـادينات السلطان؛ جـواريه المقربات اللاتي رفعـهن إلى مـقام الحرائر، و الثمن دائمًا مجز؛ العباءة البيضاء صارت مائة من حرير و أكياس الدوقـات صـارت بالآف. أصـبح أغا دار السـعـادة، ناظر أوقـاف الحـرمين الشريفين. طال جسده و انحنت قامته عند الكتفين، احتفظ بصوته رفيعًا كما هو رغم عمره. صار أقوى من والي مصر نفسه.

كم عـزل من صـدور عظام حـتى صـارت المراسـلات ممن يودون التـرقي تسميه «حضـرة صـاحب الدولة و الغاية»! و ليس ذلك بغريب؛ ألا يتـحكم برجـال الدولة عن طريق من يزفُّ إليـهـم من جـوارٍ حـسـان، أليس بيـده أن يجعل من جارية منبوذة «قادين» للسلطان؟

إنه «افتخار السلاطين العظام واعتبار الخواقين الفخام . صاحب العز والتمكين . صاحب العز الرصين . ذو القدر الرفيع والجاه المنيع (إبراهيم) أغا دام مجده» .

***

«لا أحد يعلم حقيقةً من هو السلطان»

رحالة إيطالي معاصر للسلطان (أحمد) الأول

***

قادته قدماه إلى جناح الأمانات المقدسة ؛ الآثار الباقية من النبي ؛ الظلام يطوي كل شيء إلا من قنديل يتناوب القرّاء ختم القرآن على ضوئه كل يوم ، صوت القارئ رخيم يتردد صداه . مضى الأغا مرتعشًا من البرد وقد أثقلته رائحة المسك وماء الورد الجارية في عروق الجدران .

يقف أمام صندوق البردة ، فتح الصندوق الذهبي الأول ، ثم الثاني . ظل يحدّق في البردة الشريفة التي أهداها النبي لكعب بن زهير الشاعر .

حلَّ طبقات الحرير الأخضر السبع اللاتي يحفظنها من التهرؤ أكثر . ضم البردة إليه وملأ بعبيرها صدره . ترنّم بأبيات كعب :

أُنبئتُ أن رسولَ الله أوعدني والعفوُ عند رسول الله مأمولُ
وقد أتيتُ رسولَ الله معتذرًا والعذرُ عند رسول الله مقبولُ

مـهلاً هداك الله الذي أعطاك نافلةَ الـ قرآن فيـهـا مـواعـيظٌ وتفـصـيلُ

لا تأخذنيٍّ بأقـوال الوشـاة ولـم أذنب وقـد كـثـرت فيَّ الأقـاويلُ

بكى وتشنج بالشهادتين وأذكـار بلسـان قـومـه. مر على كل أثر وقبّله؛ على لحية السعادة، ولواء السعادة البالي، وأثر قدمه الشريفة عند المعراج، وسنّته التي كُسرت في أُحد. قبّل القوس ومقابض السيوف وأغمادها متحاشيًا تذهيب السلاطين وجواهرهم التي جَثَمت على السيوف الشريفة. لو كـان الأمـر بيـده لرد كل شيء إلى أصله، لكن منعـه تبـرك السـلاطين والوزراء والعلماء وشيوخ الإسلام بكل أثر في رمضان من كل عام.

فكر مرة في الهرب بالأمانات والعودة إلى بلدته؛ هي أولى بتلك الآثار من هذا السراي اللعين، لكن أثقلته الجواهر والدوكات وفرو السمور.

ذكريات كثيرة قبضت على رأسه وأغرقتها في سالف الأيام، لكن جملة واحدة من أحد طواشيه اجتثته اجتثاثًا..

– سيدي الأغا، لقد مات السلطان... قتلته الحمى.

– ....!

هرول مسرعًا إلى الحريم يرسم عشرات الخطط والقارئ عند الأمانات مازال يتلو على ضوء القنديل.

●●●

[٥]

هل كانت تحبه؟

رمقت (كوسم) ملامح وجهه؛ حاجبيه الدقيقين اللذين خُطّا بقلم، وعينيه الضيقتين المغمضتين اللتين طالما تعلقا بها، و أنفه الأشمّ، وشفتيه الرفيعتين. أطرقت بأسى و قد انطبعت قبلة زائفة على خدها.

هل كانت تحبه؟

تذكرت أول لقاء بينهما يوم اختارها الأغا. تخيلته كما أخبرها أبوها ذات مرة قبل الحرب؛ عجوزاً سميناً ذا لحية بيضاء كثّة و شارب عظيم، لكنها فوجئت بفتى لم يكمل العشرين، نحيل ذي شارب نامٍ، وحزين لفقد

جاريته الأولى. اندهشت؛ فرغم اكتشافها أن الجواري يُعاملن باحترام بالغ في القصر و يكتفي السلطان بأربع فقط كالزوجات حرائر، لكن لم يخطر ببالها أن السلطان؛ ذلك الرجل العظيم اللاتي تعلَّمن ألا يرفعن وجوههن في حضرته، و أن يرهفن السمع لرنين صندله يحزن لموت جارية! لا تدري لماذا حرصت كل هذا الحرص على التقرب منه، هل فعلت ذلك بغية النفوذ أم غيرة من تلك المرأة و طمعًا في تلك النظرة العاشقة الوالهة التي رأتها في عينيه. لا يهم، فقد نجحت في أن توقعه في سحرها، و لم يعد يصبر على فراقها و يجلس بالشهور في غرفتها في جناح الحريم. تفننت في كل مرة لتجذبه بحيلة جديدة حتى يشعر كل مرة أنها امرأة أخرى، و بقدر حبه لها بلغت مالم يبلغه أحد من القوة و النفوذ؛ رسالة واحدة منها إلى الصدر الأعظم أو إلى السلطان تصنع الأعاجيب، و جُلُّ رجال الدولة إما صنائعها أو استمروا في مناصبهم بفضلها.

***

«لا أحد يعرف حقيقةً من هو السلطان»

***

شيء واحد يقلقها؛ أن من صاحبت السلطان قبلها أنجبت له (عثمان) و (محمداً)، ثم ماتت بعدها لتنجب هي ثلاثة ذكور ليس منهم بكر أبيه. تمنت أن يكون (عثمان) أحمق كعمه (مصطفى). تخيفها شراسة طباعه و ذكاؤه

الحاد رغم أعوامه الثلاثة عشر كما تخيف صنائعها من الإنكشارية على حد سواء؛ فإذا تولى الحكم يمكنه قتل أولادها بقانون الفاتح، فينقطع أملها في أن تكون السلطانة الوالدة، و تعيش منبوذة في السراي القديم.

هل كانت تحبه؟

أما الإنكشارية فيخشون أن يملكهم سلطان ذو بأس يحد من عطاياهم و شغبهم، و يدفعهم إلى الحرب دون هوادة، و قد أُثر عن الأمير في أسماره ما يدل على حنقه عليهم.

آه لو كان مراد بكر أبيه لكانت الآن السلطانة الوالدة صاحبة الأمر و النهي. إنها مضطرة للتحالف مع (هندان) الجشعة التي تريد الملك بأي ثمن لولدها الأحمق و لولا أنها من صنعت (داوود) باشا و تعلم مقدرته لما أمنت على نفسها من غدر (هندان).

نعم، لولا بطشك و حزمك لضاع كل شيء يا (داوود)! رأته مرة واحدة من نافذة برج العدل -التي تكشف ديوان السلطان- من خلف الخشب المورق. رأته مرة واحدة، لكنها كافية ليتأكد اختيارها، و على النقيض من بطشه ذائع الصيت يخشى أن يعرف أحد بالصلة بينهما حتى ظنت أن رسائلها تصيبه بالذعر؛ فكل ردوده على رسائلها شفهية ينقلها الطواشيّ، فترى في عينيه (داوود) متلفتًا يمنة و يسرة. قرأت الخط الشريف الذي كتبه زوجها بإيعاز منها. ها قد أحكمت تدبيرها و ردت كيد ابن زوجها، لو كان لهذا الأمرد كيد.

لن تكون السلطانة الوالدة (كوسم مهبيكر)، لكن إلى حين. طوت بساط فكرها سريعًا، ثم قامت لتفسح المجال للأغوات يغسّلون سيدهم بينما يقرأ شيخ الإسلام القرآن. أعطت الفرمان لـ(إبراهيم) أغا ثم انصرفت ترقب ما ستجلبه الأيام القادمة.

هل كانت تحبه؟

***

تعرف هذه العلامات جيدًا يا (مصطفى)

قطرات العرق تحتشد على جبينك و ينساب بعضها باردًا على صدغيك. تسقط على ظهرك. تتصلب عضلاتك. تقبض على وسادتك الحريرية. يتحرك فمك كأنك تمضغ و اللعاب ينساب من شدقيه. يبدأ جسدك في التشنج و تزداد قبضتك قوة على الوسادة. تعصف بك ريح عاتية. تنفصل عما حولك؛ عن الزمان و المكان. القيء الحامض يصعد إلى فمك.. يبدأ التجلي الأكبر.

ينقشع الظلام المطبق على عينيك، صرير العجلات الخشبية يطبق على أذنيك، تحث جوادك على الإسراع بالعربة بحثًا عن مأوى. تريح ظهرك على جانب القشع الذي يغطي العربة كخيمة صغيرة مسنّمة. إلى أين هذه المرة أيها السيّار؟

تجذب عنان الجواد بغتة حين ترى الضوء الفضي يتلألأ على صفحة النهر. تحمد الله أنك أوقفت العربة قبل أن تخوض في الماء. تنزل و تجذب

جوادك من العنان ليصيب حاجته من الماء. تقترب حتى ترى طوفًا خشبيًا طافيًا و حبلاً يصل ضفتي النهر مثبّتًا بوتدين، و من بعيد تلوح نار و أنوار، أهذه بغيتك؟

أخبرك شيخك (الكرماني) أنك في مقام الخوف و الرجاء؛ تخاف النار و ترجو الجنة. تعجبت كيف يقولها بأسف، ثم عرفت السبب؛ فيا بعدًا بين مقام و مقام؛ مقام من يعبد الله خوفًا و رجاءً، و مقام من يعبد الله شوقًا للقائه، و ما الرقي إلى ذلك إلا بالجوع و الصمت و السهر، و الهجرة من مواطن الدنس كالفراشة تهجر الظلام لتعانق النار، فتتطهر من أدرانها و تفنى عن كل موجود و تحيا بشرع الحق واجب الوجود.

سألت إلى أين تحط رحلك و تكف عن سيرك.. سألت عن علامة الوصول. قال: «حين تبلغ مقامًا أعلى من المقام ستلهمك الواردات الربانية إلى الصحبة الصالحة، صحبة كفتية أهل الكهف غير أنهم يردون الظالمين ويطعمون المساكين و يؤوون ضيوف الليل السائرين».

أتكون تلك الأنوار مقصدك؟

تضع قدميك على الطوف بحذر و تمسك بالحبل تشد نفسك و الطوف حتى تصل إلى الضفة الأخرى.

تسير بين أشجار الرمان و الليمون. تصل إلى خيمة جميلة و في ضوئها ترى السجاد الفارسي البهيج تطؤه بخفك. تتعلق عيناك بالمصابيح والثريات

العراقية المصفوفة. تسمع تلاوة القرآن و الأذكار. يهرع إليك شاب يرتدي عباءة طويلة و يضع عمامة صوفية على رأسه تتدلى منها حاشية قصيرة.

يجلسك على مِنبَذة غُطيت بجلد الماعز و يقوم إليك آخر فيضع أمامك صحيفة فاكهة و يقول بابتسامة سمحة: «كل أيها الغريب، لا بد أنك عانيت في السفر».

-«غريب! أنا..»

يقاطعك في هدوء: «لست وحدك، فكلنا غرباء؛ أنا وُلدت في قره مان وتنقلت بين صاروخان و آيدين حتى استقر بي المقام هنا في إمارة عثمان غازي».

- عثمان غازي؟.

- نعم، أنت في إمارة عثمان غازي.

- ومن أنتم.

- نحن الأخية السراجين.

- وما يجمعكم بعد انقضاء السوق؟

تبسّم الآخي مجدداً و قال: «نحن أهل مشورة الغازي في الفجر، و في السوق عند الضحى نحمي الضعيف من ظلم الجباة و نبصّر الغرباء بحيل التجار الحواة. أما الليل، فنقيمه بتلاوة القرآن و انتظار ضيوف الليل مثلك، و هناك طوائف أخرى تفعل فعلنا».

إنها علامتهم! العلامات التي أخبرك عنها (الكرماني)، لكن لماذا نعتهم بأهل الكهف؟

هل لأنهم صالحون مثلهم أم لأنه سيُضرب على آذانهم بسوط الفناء، ويُمحى ذكرهم من الأنباء؟

يقترب منك الآخي أكثر و يردف في ودّ: يدعوننا الآخيان. . . ألم تقابل أحدًا منهم في بلدك؟ .

هنا تغرب شمس التجلي و تعود للظلام من جديد.

***

- كيف تحاول منعي أيها الخصي؟

بلغ حجرة السلطان صوت صفع. فُتح الباب بعنف كاشفًا عن الصبي (عثمان) ذي الوجه الأمرد. عيناه محتقنتان و عروق عنقه نافرة. أوحت قسمات وجهه بالغضب حتى وقعت عيناه على الجسد الممدد، فأخذته هيبة الموت و تنهد. صمت قليلاً بعد أن صمت من حوله. . . غمغم و قد جمد في وقفته:

- أهذا أنت؟ أصاحب هذا الجسد العاري أنت؟ ألن تقوم به الآن ؟

«لم أكن أريد سوى حبك فلم ضننت به عليّ؟ لماذا جعلتني أستبطئ حياتك في انتظار إرثي؟ سامحني أن قابلت ودك بالجفاء، لكن ما فعلته بي لم يجعلني أصلك قبل فوات الأوان»، ثم سرعان ما أشاح بوجهه و أكمل

بغضب ضاغطًا على حروف كلماته: «أنت من ظلمتني و فضلت زوجك وأبناءها عليّ. سأريك ما سأفعله بهم، سأريك و أنت الآن جثة لا تملك لهم شيئًا». رفع رأسه و قال بحدة للمحدقين فيه: «ألا تنحنون لسلطانكم»؟

اقترب منه (إبراهيم) أغا و انحنى بأدب جم رافعًا ساعده ليرى الأمير الخط الشريف، فاتسعت عيناه بذهول و كاد ينطق بكلماته الغاضبة المعهودة، لكن الخوجة (عمر) الذي دخل معه انحنى أمام الوصية و قال مخفيًا دهشته: «وصية مولانا السلطان واجبة النفوذ».

ثم أمسك بساعد الأمير (عثمان) ليتركا الغرفة.

- ألن تقرأ معي القرآن على الغسل يا عمر أفندي؟

تجاهل الخوجة مقالة شيخ الإسلام الشامتة، و أكمل السير مع تلميذه الذي ألقى نظرة طويلة على الجسد الممدد العاري، ثم غابا عن الأنظار.

***

«قُد الأورطة التاسعة يا مير حسين، و افتعلوا شغبًا لتنفيذ الأمر بحق من وردت أسماؤهم هنا». أخذ (مير حسين) الورقة من (داوود) باشا و قرأ الأسماء لينقلب توتره إلى هلع و قال لسيده: «سيدي، هل أنت واثق من هذه الأسماء؟»

أومأ (داوود) باشا برأسه و قد نجح في إخفاء توتره. تُرى لماذا طلبت منه (كوسم) أن يقتل أخلص صنائعها مع أنصار الأمير عثمان!

هل تريد أن تقدم دماءهم قربانًا لثقة (هندان)، أم تكسبه العداوات بهذه الدماء ليشعر دائمًا بالحاجة لحمايتها. ليس أمامه سوى الطاعة على أية حال؛ فلم يطعها قط و خسر.

هكذا يوم التولية في وجود متنافسين على العرش، وهو يوم نادر لكن احتفظت كتب التاريخ بأمثاله؛ يوم يظفر فيه من يستيقظ باكرًا. ابتسم (داوود) بسخرية لخاطرته تلك، لكن (مير حسين) قطعها حين قال:

«سيدي لا نستطيع قتل أنور باشا. استوضحه (داوود) فأكمل في سرعة: إنه صهر كمانكش علي باشا يا سيدي». عبس (داوود) حانقًا، وعبث متوترًا بصحبة الخزام التي يجمعها كل صباح لـ(صفية).

اللعنة! إن (علي) باشا لا يكف عن كونه حجرة عثرة أمامه؛ فهو القائد المحنك، و بطل حروب الفرس الذي يقف على مسافة واحدة من الجميع؛ لم يجلس مع حزب من الإنكشارية ليحتسوا القهوة في القصور يثرثرون في السياسة، ومن يفعل ماذا ومن يُقرب ومن يُبعد حتى صارت كل أورطة بقوادها شيعة لأشخاص بعينهم داخل القصر. حاول مرات أن يؤذي الكمانكش، لكن (كوسم) منعته. كانت ترى أنه الوحيد الذي يستطيع أن يفزع (داوود)، فيشعر بالحاجة إلى نفوذها الطاغي على الجميع.

- حسنًا، سنبقي على حياته إكرامًا للكمانكش. اذهب الآن، واعلم أن نجاحك سيترتب عليه مكانتك في قادم الأيام.

زفر متعبًا. الآن صار أغا للإنكشارية وتمت البيعة للسلطان.

***

طرقات... طرقات... طرقات...

تتابعت طرقات على باب القفص الخشبي؛ فالباب مسدود بعارضة خشبية من الداخل لتفصل بين هندان وأحلامها. انفراجة باب تفتح لها أبواب الجاه و السلطان. سنوات طويلة مرت تمنّي نفسها بهذا اليوم؛ اليوم الذي يموت فيه ابن زوجها لتصبح صاحبة الأمر والنهي، السلطانة الوالدة (هندان). توفي السلطان ودُفن منذ أيام، فلم تعد تستطيع الانتظار أكثر من ذلك.

لا أحد يرد، ابنها المعتوه الذي ابتُليت به من دون النساء يصر على أن يفسد سعادتها. ذلك الغبي الذي يلطخ ثوبه بطعامه ويفعل أفعال الصغار.

حمدت الله أنها لم تصطحب سوى خصيانها المخلصين؛ حتى لا يرى أحد هيئة السلطان الزرية. كسروا الباب. دخلوا ليجدوا سيدهم يقرأ من مصحفه الأحمر ويميل برأسه يمنة ويسرة كأنه معزول عن العالم كله...

لا تعرف إذا كان صوتك جميلاً أم لا أيها الدرويش الأمير، كل ما تعرفه هو أنك لست وحدك؛

ترى أصحاب السبت و شباكهم. تركب مع (ذي القرنين) في جيشه، وتصرخ بـــ (آدم) حتى لا يأكل من الشجرة.. تأخذك الجلالة لحظات

التجلي. هزة خفيفة على كتفك تخرجك من جنتك فتراها. يختنق صوتك وتنكمش في جلستك. لا يعني ظهورها سوى اللوم والتوبيخ بعد الاطمئنان على حياة الجثة التي ستطؤها إلى أحلامها. وحدها (صفية) تدخل السرور على قلبك في السويعات التي تراك فيها. أدهشك أن ترى أمك تبتسم وتناديك في جذل أن قم يا مولاي. تحدق فيها ذاهلاً كعادتك فتخبرك بصوت كالفحيح-أو كذا سمعته-أن من يحبسك قد مات.

«أحمد مات؟!»

ترددها و قد تقلصت أمعاؤك و ضاق صدرك. تؤكد ابتسامتها البلهاء الخبر. تخفض رأسك و عيناك تغرورق بالدموع. تتذكر حياتكما معًا، و مزاحه و ضحكاته، و مجاراته في الحدائق حول أشجار السرو، تسلقه خفية من قفصه إلى قفصك لأنك تخشى النوم وحدك. تحتل مخيلتك صورة طفلين ملطخين بالطين. أتصير سلطانًا؟ ألم تنادك مولاي؟ إنها كلمة لم تعن في حكايات (عزت) أفندي سوى القتل والظلم. تتكوم على نفسك و تئن. تسمع أمك تأمر في حدة أن احملوه إلى الحمام وألبسوه ملابس السلطان. تُحمل.. تصرخ و تتلوى. يحملونك كأنهم سيلقون بك من جرف عال ليسحقوا جسدك. مضت سنوات طويلة لم تخرج فيها من القفص. أشعة الشمس تحرقك. تنظر إليها ثم تغمض عينيك فجأة وتصرخ. ترى لأول مرة الزهور و الأشجار. تذهل عن حزنك و تنظر إلى ما حولك، لا تعرف إن كان حقيقةً أم تجليًا. مرّ عليك وقت اعتقدت فيه أن الشمس ليست ذلك القرص المستدير الذي كنت تراه في صغرك، بل رسم

تلك الآنية الملونة على زجاج نافذة قفصك. حين ترى شيئًا يمت للحياة بصلة تعرف أنك في لحظات التجلي، لكنك الآن لست في التجلي، أنت الآن في جنة فعلاً لكن سرعان ما تختفي لتحل محلها جدران عالية و سقف حجري يتحرك أمامك بسرعة، تمر بك ممرات عديدة حتى تصل إلى المكان المنشود.

تستقبلك الجواري و قد أسلمك إليهن الخصيان كأنهم يحملون حجراً ثقيلاً، ينزعن عنك ثيابك المتسخة. رائحة العطور تملأُ المكان و الرخام الأبيض يكسو كل شيء. تحدق في المسبح الكبير تائهًا، تزيغ عيناك ثم تسترد بصرك واضحًا لتراها...

- لا تقتلوه، إنه بعد طفل ما الخطر منه؟

مذعورة هي.. خائفة تحتضن الطفل الصغير، تكاد تعتصره من الفزع. حمقاء هي؛ تظن أن كلماتها ستثني الإنكشارية عن عزمهم.

إنه أمر مولانا مراد الثالث، يجب أن يلحق بإخوته... إنه قانون الفاتح.

يقولها قائدهم في شراسة فترد عليه الجارية في مقت: عليه اللعنة.. أيقتل أخاه؟!

- ابتعدي يا امرأة.

تصرخ و تولول كأنه ابنها. طعنة نافذة تعيد السكون إلى الحمام. لكنك تهرع من مكانك و تثب على الإنكشارية بجسدك الضخم قبل أن يخنقوا الطفل.

حينها يتلاشى كل شيء و يغمرك الماء البارد من كل صوب.

●●●

[٦]

تهادى في مشيته مع تلميذه مثقلاً بالهموم. تأمل زخارف الجدران وأشجار الجنان. نظر إلى الرخام الذي كسى الأرض والذهب الذي زين تيجان الأعمدة في قصر الأميرين الصغيرين.

ذكَّره ذلك الترف بتلك الجملة التي حفظها من آخيان نامه:

«إذا تطاول بنيانكم في غير مقصد، وامتد في ترف إلى الآفاق، ورأيتم الجواري يُحلُّون باللآلئ، والغلمان يكنزون الذهب، فاخرجوا من هذه الأرض؛ فإنها ليست لكم بدار، بل ضيعة لأصحابها».

لكن الخوجة (عمر) لم يستمع لوصية جده الأكبر؛ نزل مع أخيه من

دارهم المعزولة في الجبل. ظنّا أنهما إذا صارا معلمين للأمراء يمكنهما عندئذ إعادة عرف قد مات. اتفقا على كتمان سرهما وقرابتهما، ولـمّا بلغا المنزلة المنشودة، عَلّما الأميرين أبناء (محمد) الثالث بالتعريض من خلال القرآن وأيام الإسلام البعيدة، لكن (عزت) كان أهوج، لم يطق الاستمرار في التعريض وروى لتلميذه عن مظالم الأجداد المنسية. جعل السلطنة شيطانًا في ذهن الطفل الصغير فأطلعه على لفائف آخيان نامه التي تروي سيرة الآخيان ونصائح كبرائهم حتى افتُضح أمره وقُتل لمحاولته إفساد عقل الأمير (مصطفى) الصغير. عاش (مصطفى) بعدئذ ترافقه قسوة الوحدة ومرارة الحبس. أصبح يعيش في عالم من الأوهام ويتمتم بكلام غير مفهوم.

عادت بالخوجة قدمًا ذاكرته في ردهات الزمان ليتذكر كيف بدأت سيرة الأجداد؛ تُركٌ جلبهم بنو العباس ليحلوا محل الفرس في دولة وسموها بالخلافة، أو وصموا الخلافة بها. هاجر تُركٌ آخرون بعدها ليلجأوا إلى أبناء عمومتهم الذين سبقوهم في الأناضول. شهدوا دولة السلاجقة التي أخذت بتلابيب الترف من الفرس تارة ومن الروم تارة أخرى. ومع الملك يأتي الظلم والمكوس الجائرة، فظهر فتيان في الأسواق يقفون ضد الظالمين، يدعونهم أهل الفتوة أو الأحداث في بلاد العرب، بينما التصقت بهم تسمية الآخي في الأناضول التي صارت بلاد الترك. شعروا بالغربة والنقمة على الأحوال فلجأوا إلى الثغور الواقعة بينهم وبين الروم. نسوا قبائلهم وعصبياتهم، فبنوا الدور المتلاحمة وصارت الثغور دار هجرتهم وقاعدة جهادهم. غرباء كالصحابة في يثرب.. آخر الأطهار على وجه الأرض.. هم المهاجرون من

القرية الظالمة المترفة وأنصار دين الله الحق، فكل معركة ضد الروم هي بدر وأينما ولّوا وجوههم فثمّ راية رسول الله. جاوروا رومًا اهتدوا ودعاة ودراويش ينشرون دين الله وغزاة سئموا قتال الفتنة بين أهل القبلة وآثروا الجهاد؛ فأصبح كلهم في الحلقة دراويش وفي السوق آخيان وفي الجهاد غزاة. مر زمان طويل على هذه الحال حتى وحّدهم (عثمان) غازي وأقطعهم الأراضي المفتوحة لتعينهم على الحياة، ومع توالي الانتصارات تغير كل شيء؛ ظهرت الإنكشارية زمن (مراد) الأول، قيل إن للسلطان من سبي البلاد المفتوحة عنوة الخُمس جعلوهم مسلمين. خشي البعض من إقبال الدنيا وما تصحبه من فساد، وآخرون آثروا الصمت فرأوهم محض عبيد جعلهم السلطان خاصته، والباقون تواطؤوا بعد أن صارت الآخيان جوادًا رابحًا يمتطيه كل طامع وطامح. ثم جاء (مراد) الثاني بعدها بعقود ليقول إن فرسان الآقنيجي لم يعودوا يصلحون لقتال إلا أن يقطعهم إقطاعات كبيرة تكالب عليها أهل الدنيا، وألبسهم السلطان الزي الأحمر لون راية الدولة وسماهم السباهية، ففنوا في ذات السلطنة كما يروم الصوفي الفناء في ذات الله. لم يعودوا لبنة في بناء السلطنة، بل أوتادًا لخيمة شاهانية لا قيمة لهم في ذواتهم.

****

« . . إن التيمار [١] عماد حياة الغزاة وأساس عيشهم كيلا يطمعوا في

(١) نوع من الإقطاع مختلف عن الإقطاع الأوروبي لأنه يتضمن فقط تملك الأرض لا البشر ونظريًا لا يُعد إرثًا ويتضمن استمراره بشروط معينة لكنه كان يورث في كثير من الأحيان.

أموال الناس أو يستمرئوا الجزية، فيقصروا في دعوة أهل الكفر للحق. أما إن هم رضوا بالتيمار إرثًا وارتاحوا للظل والثمر وقعدوا عن فريضة الشورى كما كان يفعل سيدي (علي) فكثرت مطالبهم وصعب مراسهم، وكلما حذرهم مشفق من متاع الدنيا أكلوه وقالوا لِمَ نحرم زينة الله التي أخرجها لعباده، وهم للسحت كانزون، يصبحون عندئذ جنود سلطنة لا آخيان غزاة».

آخيان نامه

***

عادت الغربة من جديد لمن بقي على عهد الآخيان ولم تفلح الانتصارات المتتالية في تعزيتهم. صاروا وحدهم يحلمون بعالمهم الرشيد في دولة تزيد فيها الإنكشارية ويقومون بالعصيان إثر العصيان يعتصرون ضرع الدولة حتى كاد يجف.

هل هذا هو العالم الذي حلموا به؟

إنها ليست دولة العدل والرحمة التي أرادوها. مجرد سلطنة ظالمة أخرى. إن أول كلمة حق قيلت لسلطان جائر كانت على هذه الأرض؛ قالها النبي (إبراهيم) للـ (نمرود)؛ أن قتل الضعفاء لن يجعله إلهًا يحيي ويميت بمشيئته، ليس عبثًا أن تكون أول كلمة في الشهادة لا. كلهم (إبراهيم) والباقون (آزر) يصنعون الأصنام لبعل ويخرون لها ساجدين.

لكن جاء فتح القسطنطينية ليعيد لهم بعض الأمل؛ إنهم نعم الجيش. سيحققون بشارة النبي مع نعم الأمير. هجموا على القسطنطينية تحت قصف المدافع وأُريقت دماؤهم على أسوارها، وحين حققوا الانتصار، جاء الانكسار الأخير. أعدم الفاتح الصدر الأعظم الخائن وخشي من ظهور خائنين جدد فسلك قولاره [1] في المناصب العليا ولم يعد للآخيان عند خلفائه مكان، فكانت تلك ضربة قاصمة لعرف زال. عاد شعور الغربة هذه المرة كاسحًا وقد رأوا نصرهم يُسرق منهم ويُعطى لمن لا يستحقون. انزوى بعضهم في التكايا متنسكين وآخرون انضموا للسباهية ورضوا بالإقطاع. أما الباقون فقد فروا إلى الجبال بحلمهم كأهل الكهف، فقل نسلهم ومُحي ذكرهم كأنما قصرت أجسادهم عن التكاثر إشفاقا من جلب أبناء لهذا العالم القاسي الجحود. سجناء اجتروا أحداث الماضي والتمسوا ضياء الراشدين من بين قضبان الزمان. جمعوا تراثهم وأفكارهم وعالمهم الذي بين ضلوعهم وخطّوه في لفائف من الورق. دفعتهم لذلك قوة خفية. ربما الإيمان أن التدوين ضد الفناء، فتوارثوا تلك الكلمات جيلاً بعد جيل، يوصون بروحهم الشفافة كل من يقرأ هذه الأوراق بالفرار من هذا العالم، الفرار إلى سفينة (نوح) قبل أن يعم الطوفان الأخير بظلم أهل القرى وفسادهم.

ماذا أفاد الصبر يا (عمر)؟ ها قد جاء اليوم الذي تتبين فيه ضلال سعيك وصدق المكتوب. غرست في تلميذك حب القوة، فقصرت عرف الغزاة على

---

(١) قولار تعني العبيد.

الجهاد وزكيت حبه في أميرك، لكن اليوم لا غزو ولا جهاد. ضاع كل شيء كأنها العادة أو كأن هذا العالم الأحمق لا يرضى إلا أن يجهض كل مخاض يأتيه بالنجاة، لكن مهلاً. . . لا يزال هناك أمل. نظر (عثمان) بدهشة إلى شيخه الذي أكمل: «ستظل في قصرك ترقب الأحداث وسنكبلهم بصنيع أبيك أن أبقى أخاه حيًا فلا يقتلونك بقانون الفاتح، بعدئذ يظهر فساد عقل عمك وترضي خصومك فلا يجدون سواك ليرفعوه على العرش».

لمعت عينا الفتى في ظفر وقال: «أجل، ونعيد أيام المجد؛ أيام جدي عثمان وجدي سليمان».

وافقه معلمه وهز رأسه وهو يعلم جيدًا أن شتان بين القانوني (سليمان) والغازي (عثمان).

***

مرت أيام. يقوم السلطان مصطفى مفزوعًا من النوم يبكي ثم يعود للنوم من جديد. ببطء فتح عينيه ليتسلل إليهما ضوء النهار. كم لبث في نومه هذا؟ ربما ساعة. اتضحت الرؤية أمامه شيئًا فشيئًا؛ رأى قاع قبة ذهبية تعلو فراشه على عكس سقف قفصه المزخرف. أزاح دثاره ورفع رأسه من على وسادته الخضراء الناعمة ليهرع إليه حراسه الأربعة-الملتفون حول فراشه طوال الليل-يساعدونه على النهوض واقترب منه شاب أبيض جميل الوجه ممسكًا بوسادة حمراء عليها خف أسود.

- من أنت؟

سأله السلطان مستفسراً فانحنى الشاب ووضع الوسادة على الأرض وقال بصوته الناعم: «أنا قسمت يا مولاي، من الطواشي البيض. . في خدمتكم».

ثم لثم رداء السلطان وشرع يلبسه الخف في قدميه. لم يستطع الطواشي أن يفهم سر شرود السلطان وتعجبه وهو يُلبسه القميص الأصفر والعباءة الخضراء. ربما يتعجب مثله من الطواشي ويتهيب الموقف، لكن ما خطب السلطان؟

لم ينبس ببنت شفة أو يبدِ أي تعجب، بل أكمل عمله ولف العمامة البيضاء الكبيرة على الرأس الشاهانية، ثم وضع في جيب السلطان الأيمن كيساً من الدوكات الذهبية، وفي الأيسر كيساً من الآقجات الفضية. لأول مرة شعر أن السلطان منتبه حين أمسك بقطعة ذهبية وتمتم: «بوسفور!». لم يفهم الطواشي ما أصاب سلطانه. تنحنح وقال: «إنها عطايا اليوم يا مولاي حسبما قرر الديوان». رأى على وجه سيده علامات حزن عميق.

***

- إن الأموال التي تُنفق في الشرور خير لها أن تُلقى لأسماك البوسفور.

- وهل تحب الأسماك ذلك يا عزت أفندي؟

- نعم يا ولدي

***

لا بوسفور إذن. اعتدت على الصمت والشرود أمام الغرباء. لا تعرف إن كنت تهاب خدمك أم هم من يهابونك. لم تعد قادراً على إبداء أي شيء

حتى الحزن على أخيك. الوضع الجديد الغريب أذهلك وأخذك من كل شيء. تسير وحرسك حولك نحو الديوان. هل كان يجب على أمك أن تبرهن للجميع أنك سليم بحضورك الديوان على غير عادة السلاطين التنابلة؟ ستدرك كم كانت حمقاء إذا رأتك الآن تتخبط في شرودك لا تعرف الطريق، لكنهم-هؤلاء الحراس المقربين- يقودونك كمن يعرفون حالتك حتى تصل وتراهم جميعًا؛ الصدر الأعظم والوزراء، قضاة العسكر والدفتردارون، التذكرجي والريس أفندي وشيخ الإسلام.

لم تعرف أيًا منهم، لكنهم قدموا إليك التهاني ولثموا طرف ردائك. تجلس على الآرائك التي اتخذت شكل مربع افتقد ضلعه الجنوبي وجلس الباقون حولك بنظام مخصوص. تنظر إلى السقف المزخرف الذي تدلت منه كرة ذهبية ترمز إلى العالم. تجول ببصرك في المكان، وتتأمل الوجوه باستغراب. أثارت عجبهم نظرات التوجس في عينيك كطفل موشك على البكاء. لا تعرف أي هيئة يجب أن يبدو عليها وجهك، وحتى إذا عرفت فلطالما خانتك قسمات وجهك عن تبيان شيء. لا يقطع الصمت سوى صوت التذكرجي يتلو العرائض والشكاوى فيتناقشون ويتحاورون، وكل ما تستطيع فعله هو أن تومئ برأسك ولا تكف عيناك عن التحديق في الفراغ. أنفاسك تتثاقل وصدرك يضيق بما أنت فيه. نظرات أمك المرعبة وإيذاؤها لك يرغمك على الجلوس. تتخيل قسمات وجهها قد استطالت كالشياطين. لا تسمع كل ما يُقال، لكن شذرات من لحظة إلى أخرى.

- إن خراج الأيالات قلَّ.

- الخزانة خاوية.

- البولونيون والبغدان خرجوا علينا ويجب سحقهم.

- إن لم نبادر إليهم سحقونا ورمونا في البوسفور ليأكلنا السمك.

- لكننا لسنا سمكًا تنطق بهذه الكلمات مستغربًا في وهن. تنحنح الصدر الأعظم (محمد) باشا حرجًا وقال: بالطبع يا مولاي نحن ذئابك و. . .

- نحن لسنا ذئابًا أيضًا. . . نحن بشر.

حدق الجميع فيك متعجبين وصرف بعضهم ابتسامة لم تكتمل. تشعر بخطل ما قلت وإن لم تفهم السبب. يحمر وجهك حرجًا ويُرسم خطان مضطربان من العرق على صدغيك، تنحنح (محمد) باشا مرة أخرى وضحك كأنها دعابة منك ثم دار الحديث مرة أخرى.

- السباهية في الأناضول يطالبون زيادة أعطيتهم.

صدرك يضيق.

- كيف هذا يا قاضي الأناضول وجنودي الإنكشارية أحقُّ بالعطاء لأنه لا إقطاع لهم.

نفسك يثقل.

- الخزانة خاوية يا أغا الإنكشارية والفرس يتربصون بنا.

تتصبب عرقًا.

- أنا أفتي بوجوب جمع الأموال لمحاربة الرافضة والكفار.

قلبك يكاد يثب من مكانه.

- كذلك يجب تحريم التبغ والخمور.

- لكن النصارى عماد طعامهم الخمر.

- إنكشاريتك ليسوا نصارى يا داوود باشا.

الأمور تتشابك وتتشعب، الجدل يعلو ويستمر. تباروا في الظهور أمامك لينالوا الحظوة ظانين أن صمتك وعزوفك عن النقاش هيبة. لم تعد تحتمل المزيد. ليحترق كل شيء ولا تبالي.

(عزت) أفندي ينظر إليك ويقول آسفًا:

- إنه مكان للشرور والظلم يا ولدي!

تخرج...

تجري...

تلهث...

وقفوا جميعًا مشدوهين وجرى حرسك خلفك. تجري حتى تصل إلى تلك الخيمة.

- هلم إلى أبيك تودعه.

ترى أغبرًا ملطخًا بالدم يقولها له ويسبقك به إلى الخيمة. تلحق به

وتدخل الخيمة في إثره. طويل هو، نحيل، قصير اللحية، يبدو عليه الوقار. عيناه جزعتان ووجهه المليء بالندوب يوحي بحزن عميق، لكن النحيل لا يجد أباه. وجد أخاه الأصغر بدلاً منه.

-لأن الله واحد في السماء فالسلطان الذي هو ظل الله في أرضه يجب أن يكون واحداً كذلك. نطقها الصغير شامخًا بأنفه.

- ماذا تعني يا بايزيد؟ أتقتلني ودم أبي لم يجف بعد شهيداً على أرض قوصوه؟

يرى السيوف تُشهر فيكمل بدهشة والجند يمسكون به في قسوة: «تنقذني بيمنتك في المعركة والآن تبيح دمي على أرضها! يا حفيد أورخان بن عثمان، يا ابن الشهيد مراد وسليل الغزاة».

- وقاتلهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

- بل تريدها فتنة.

قالها الوقور وجثا على ركبتيه وأضاف في أسى: «اقتلني يا أخي، اقتل أخاك يعقوب الذي أجلسك في حجره وأردفك على جواده، اقتلني يا من بلل بولك طفلاً ثيابي والآن تخضبها رجلاً بدمي، ولا أراها إلا لعنة تصيب بدمي عقبك يا . . . مولاي».

تناثرت الدماء بعد إشارة اليد الحازمة. تمد ذراعيك ألا يفعلوا، جسدك يتصلب وملامحك تجمد. تسقط على الأرض مشلولا.

- رباه! لقد جُنّ السلطان.

لا تسمع سوى هذه الجملة وتتزمّل بعدها بالظلام.

****

مات كاتب الأشعار.. ذهب إلى غير رجعة.

متخفيًا كعادته خرج الأمير (محمد) مع (سليمان) أفندي إلى طرقات إسلامبول بعد إلحاح شديد من الأخير كي يسري عن نفسه مما ألم به من حزن وخوف؛ حزن على أب لم يجد فرصة ليودعه أو يغسله.. ثم خوف من الذبح بقانون الفاتح نهاية بمجالسة (عثمان). في البداية حين عرف الخبر ورأى (عثمان) يهرول إلى القصر والدموع تملأ عينيه، ظن حين يعود أنه سيبكي ويحتضنه، ويحاولان معًا أن يتغلبا على الفاجعة.. لقد مات الأب وهلكت الأم ولم يبق لهما أحد.. لا أحد يبكي عليهما حقًا أو يرق لهما.

لم يحدث شيء من هذا؛ عاد(عثمان) غاضبًا، وركل كل شيء في طريقه. سب أباه كما لم يَسُبَّ ابن أباه من قبل وسب (كوسم) وحين حاول (محمد) أن يهدئ من روعه نهره ودفعه عنه في جفاء. ظل كمرجل يغلي مع الخوجة (عمر) حتى تغيرت أحوالهما؛ صارا أميل للانفراد ببعضهما، ويمسي (عثمان) يقابل بعض الباشوات سراً في حديقة قصرهما. يالها من دنيا فانية!

هاهو الأب يموت وحين تُذرف دمعة تكون من أجل الميراث!

تذكر هذه الأيام أمه (خديجة)، أو بالأحرى سيرتها فقد ماتت وهو بعد رضيع.

كل ما عرفه أنها مرضت مرضا شديدًا، وعجز الباش حكيم في القصر عن مداواتها، ولما جاءت الطبيبة الماهرة من اسكودار على وجه السرعة، فارقت أمه الحياة. آه لو جاءت تلك الطبيبة مبكرًا، أكان لأمه أن تحيا؟

مال هذه الدنيا؟ أصبح الأمير يكرهها ويعزف عنها. اعتزل الناس إلا (سليمان) أفندي، وحده الذي يشعر به، وحاول مرارًا أن يخفف من أحزانه حتى رضي أخيرًا أن يهبط معه إلى المدينة كسابق عهدهما. تجولا في إسلامبول وصليا في آية صوفيا، ولما خرجا لمح الأمير رحالة نصرانيًا وقف مبهورًا أمام عمران اعتادت عليه عيون أهل إسلامبول. بصق الرحالة في الأرض فتعجب الأمير؛ ألا يعرف هؤلاء القوم المناديل في بلادهم! اقترب من النصراني رجلان وقالا في أدب جم: «هل تريد أن تأتي إلى هنا مرة أخرى؟ يمكنك أن تأتي إلى هنا كل يوم مثلنا . . حين تصير مسلمًا».

أشاروا إلى موكب لنصراني أسلم حديثا يركب جوادًا أبيض وإخوانه الجدد حوله يطوفون فرحين بروح جديدة أُعتقت من النار ككثير من المهتدين.

في هذه المواكب ومع هؤلاء القوم عرف الأمير (محمد) معنى البشارة النبوية بفتح القسطنطينية، لم تعد مجرد مأثرة من مآثر جده الفاتح، بل بشارة تجدد كل يوم حاملة مشعل النور لنفوس حائرة، حتى النصارى هنا يذكرون الفاتح بالخير وأنه أعادهم بعد الفتح وأمّنهم وأمّن أحبارهم وفضلوه على

اللاتين. لم يثقل كاهلهم بالضرائب وعمّر المدينة كأحسن ما يكون، لكنهم لم يغفروا له أبدًا فتح مدينتهم وأخذه آية صوفيا دونًا عن الكنائس الأخرى، وعندما مات لم يملكوا سوى أن يقولوا: «لقد مات النسر العظيم!».

لم يكن التسكع سلوى الأمير الوحيدة، فبعيدًا عن البشر حاول أن يجد السلوى في إطعام الحيوانات الضالة، غير أنه سرعان ما ملّ الأمر وإن جعل بعضًا من أمواله لإطعام هذه الكائنات المسكينة في تلك الأرض الفسيحة التي حُفر على مدخلها حديث رسول الله عن المرأة التي دخلت النار في هرة وتلك التي دخلت الجنة حين سقت كلبًا. مر بعض الوقت وهو يطوف مع نديمه الأفندي لعله ينسى، ووقت ربما أطول جلساه على المقهى في نهاية المطاف. هزة رفيقة من (سليمان) أفندي نبهته لبداية حكاية جديدة من الرواي[1]...

«يُروى أن ملكًا عظيمًا وُلد له صبي جميل لكن شعره كان أبيض، فتطير به الملك ولبث أيامًا لا يعرف ما يفعل، حتى خوفه العرّاف من شؤم الأمير الجديد وزين له أن يتزوج امرأة أخرى لتنجب له ولي العهد وأوصاه بقتل الرضيع، لكن الملك تركه في العراء إشفاقًا منه أن يقتله بيده، فاقتربت أنثى الرخ من الرضيع ففزع الملك وهرب حين رآها تحط على الأرض وظن أن ولده هلك، لكنها أشفقت على الرضيع وحملته بين رجليها وطارت به إلى عشها فربته بين أفراخها».

---

(١) من الأساطير الفارسية بتصرف.

«ومـرت السنون ووهـن الملك ولم يولد له بعـد غـلام، وفي يوم خـرج بعض الناس للصيد فضلوا طريقهم حتى وصلوا إلى سفح جبل، فوجدوا شابًا يافعًا يعيش مع طيور الرخ في أعلى الجبل فقالوا سبحان الله أبشر يعيش مع الرخ؟ بلغ الخبر الملك فأرسل من يأتيه بولده وأعاده إلى قصره وولاية العهد، وسامح الأمير أباه وصارت طيور الرخ جنودًا في جيش المملكة، فملك الشاب جميع الممالك من حوله وحكم سبعين سنة سعيدة . . . .».

هنا ابتسم الأمير لأول مرة منذ فترة طويلة. . . لكنها ابتسامة ساخرة مرة.

●●●

[٧]

قالت (صفية): «ألا ترحمينه يا أمي؟» ونظرت إلى أمها باستعطاف.

سألت سؤالها في قنوط وهي تتوقع الإجابة؛ إن أمها لن ترضى أن تعود أيام عزلتها وذلها.. تلك الأيام التي لم تمثل فيها (هندان) أي شيء وكانت (كوسم) وحدها كل شيء. كطرد آدم من الجنة، طُردت (هندان) من السراي الجديد واتخذت طريقها إلى سراي قديم تسترجع فيه ذكريات نفوذها المفقود. لم تصبح أفقر ولم تشعر يومًا بالجوع والحاجة، لكنها كانت تشعر بأعظم حاجة.. حاجة السلطان. في السرايات حريم كثر لم يلدن للسلاطين أو ولدن لهن البنات أو أبناء قُتلوا بقانون الفاتح، عوملن بكل ود واحترام، لكن ظللن بعيدات في زوايا الترف الذهبية وعلى آرائك النسيان

الوثيرة. الآن جاءتها الفرصة لتعود إلى أيام الماضي وتصبح أقوى مما كانت، فهل فقدان كل هذا رحمة كما تقول ابنتها؟

(صفية) فقط من يشعر بهذا. تتألم لأخيها الذي يُعذب كل يوم ويئن كطفل ضربه الخوجة بقسوة، يخشى كل شيء كطفل تائه رغم أعوامه التي جاوزت العشرين. هو الآن قربان لأطماع أمها و(داوود) المنتشي بالترقي الجديد.

- أرحمه مِمَّ؟ السلطنة؟ أجئت إليّ لتقولي هذا الكلام؟

- لا يريدها يا أمي. إنها تشقيه.

- إنه أحمق لا أدري أي جنون أصاب عقله.

- ليتني أعرف ما بعقله!.

أشاحت السلطانة الوالدة بوجهها عن ابنتها في ضجر وتمتمت: أربعة عشر عامًا وأنا أنتظر هذه اللحظة لأعود إلى السراي، لكنه مصر على أن يفسدها، مصر على أن يُدخل السرور على قلب تلك الأفعى كوسم.

- لكنها رحلت في هدوء عن السراي يا أمي.

- لتعود.. رحلت لتعود. لا يترك أحد هذا السراي إلا ليعود. لكنني سأقطع كل سبب قد يعيدها، سأقتل أولادها وسأغشي أخاك بالجواري حتى يأتيني بولي العهد.

- تقتلين أبناء أخي!

نهرتها السلطانة بعنف وقالت: «اصمتي يا واهنة. أنت لا تفهمين السياسة».

-داوود يقتل رفاقه ويقول سياسة، وأنت تريدين قتل أبناء أخي وتقولين سياسة، وأبي قتل إخوته وقال إنه نظام العالم. ألا يوجد في هذه السراي من لم يُلطخ يده بالدم بعد؟

أدارت السلطانة ظهرها لابنتها وتأففت، ثم ذهبت نحو النافذة تتأمل الأشجار، لكن سرعان ما استدارت نحو الباب في توتر... لقد جاء (إبراهيم) أغا بنبأ عظيم.

***

- لماذا يا سيدي الأغا؟

نحن نفعل هذا في كل مرة ونوزع على من نشاء.

هز أغا الإنكشارية (داوود) باشا رأسه في يأس من أن يفهمه معاونه اللحوح، فقال في نفاد صبر: «في كل مرة كان هناك أغا غيري للإنكشارية يمكن عزله لتهدئة الأمور إذا اضطربت، أما الآن فأنا أغا الإنكشارية وحذار أن أسمح بأي شيء يمس الخزانة دون علمي. فمال الإنكشارية يجلب المتاعب والعصيان وحينها سيتوجب علينا أن نؤدب أورطة أو اثنين لحفظ النظام، وحذار كذلك أن يوحي لك ذكاؤك بأخذ أموال تجار لهم من يحميهم، أو أن تقودك فطنتك إلى كبس المقاهي والتضييق على تجار الدخان فيتعصب لهم أراذل الجند المتسكعين وهم كثر».

- بقي أن نتصدق من أموالنا على فقراء إسلامبول إذن! .

- هذا لأنك أحمق لا تنظر إلا تحت قدميك، لو أنجزنا البيعة الجديدة للسلطان فسنأخذ ما نريد دون متاعب مع أحد.

تجاهل (مير حسين) الإهانة كأنه معتاد عليها وتساءل في لهفة:

-موجة قتل جديدة إذن؟

قام الأغا من مكانه كأنه يشرح خطة حربية، مستعرضًا ذكاءه على معاونه برطانة وتعالٍ كعادته:

-كلا، خلل مصطفى خان واضطراب عقله لن يجعل أيًا من الباشوات يتعصب له. كما أنه لم يعد لديه ما يعطينا بعد العطيتين الكبيرتين، ولا أحد يتعصب لسلطان لا يعطي، وفوق هذا أحمق، ولا تنس أن هناك من يريد أن يعطي ويمنح ويطلب الرضا من كو... من الباشوات وهو عين المُراد، وقد سمعت أن فتوى شيخ الإسلام صدرت بخلع السلطان.

- هل ستصير الصدر الأعظم عندها يا سيدي؟

زفر (داوود) أغا في ضيق وأجاب: «كلا، الباشوات سيستثيرهم صعودي بهذه السرعة، كما أن الصدارة العظمى لا أمان لها ولا أقدمية في ترقيها، فإذا ما أقدمت على الصدارة وأنا أقول لحزبنا من الباشوات إنني أعمل لصالحهم، فسيعرفون حقًا ماذا كنت أعني بنحن. إنهم لم يغفروا لي أنّي جعلتك سكبان باشي مكاني، وطمأنتهم بصعوبة أني فعلت ذلك حسمًا

لأي خلاف قد يقع بينهم على المنصب، وحتى لا نستثير حزب الصدر الأعظم (محمد) باشا فيظنون أننا نريد سلبهم كل شيء، لهذا قلت لهم إني فضلت ترك المنصب شاغراً بتوليتك إياه!».

عبس (مير حسين) بعد أن شعر بالإهانة مرة أخرى، فأكمل الأغا غير مبال: أفتريدني بعد هذا أن أشترط على السلطان الجديد أن أصير صدراً عظيماً ليخرج من بين الباشوات من يتظاهر بالنزاهة فيطعنني في ظهري ويبايع السلطان الجديد على جثتي؟ مازلت غراً في السياسة كعادتك يا مير حسين.

هنا جاء رسول مسرع وما إن سلم رسالته حتى اختفى عن العيون. قرأها (داوود) بمعزل عن معاونه، ثم وجه نظرة خاوية للاشيء متمتمًا في خفوت: «مات الملك.. عاش الملك».

***

تفتح عينيك يا مصطفى غازي فجأة بعد سبات عميق. يقترب منك الطبيب باسمًا.

– حمداً لله على سلامتك، لقد أبليت أحسن البلاء أيها البطل.

تراه يتنحى جانبا بعد مقالته ويفسح المجال لمن خلفه. مهيب هو، عيناه ضيقتان وجفناه مترهلان، تزين وجهه لحية سوداء مشذبة، إنه (عثمان) غازي.

– عجبت أن زكاك شيخنا أده بالي رغم مُكثك القصير معنا، فقلت لعل الله يجري الفتوح على يديك.

تتساءل متثاقلا: «أنا!»

- نعم، ثلاثة أشهر بيننا والجنود لا تثيرهم سوى حماستك.

تذكرك كلماته بحوادث عدة، صليل سيوف وحفيف السهام، يوم تصدرت المهاجمين في آقويون حصار وصرعت خمسة من جنود بيزنطة. حينها لم تشعر سوى بلدغات خفيفة ليست إلا طعنات نافذة غيبتك عن وعيك. الآن تقوم متحاملاً على نفسك لتحتفل بالنصر مع إخوة الجهاد من طائفتك الأخية الحدادين.

يلبسونك قلنسوتك الصوفية وقبائك الأبيض، يسعون بك إلى المسجد والأخيان يرفعون راياتهم والغزاة ملتفون كأنهم في مولد النبي. القناديل وضاءة والبخور تخلل ذرات الهواء وسقف المسجد الرصاصي لامع مصقول.

يظهر الشيخ (أده بالي) وفي يده القضيب الحديدي الشائك كاسر الدروع. تتهلل أساريرك ويلتف الغزاة حولك ناظرين إلى شيخ العلماء. يناولك القضيب فتمسكه بيدك المرتجفة وتجثو على ركبتيك. تمرره على جبينك وتجد لسانك يطاوعك لتقول: «سأذلل نفسي أولاً بهذه الإرزبة ثم أذلل جميع الأعداء بعد ذلك».

يكبّر من حولك ويساعدونك على النهوض، ترد أيديهم وتقف وحدك رغم الآلام. تمتد يد (أده بالي) لك باليطقان في قراب من جلد ويقول بصوته العميق: «الآن أسميك (مصطفى) غازي».

❋❋❋

- كيف تقول هذا أيها الأغا؟ أتخلع ولدي؟

تنحنح (إبراهيم) أغا محاولاً تفادي غضب من كانت مولاته، وقال في هدوء: «لست من يأمر يا مولاتي؛ إنها فتوى شيخ الإسلام؛ مولاي لم يخرج من غرفته بعد جلسة الديوان الأولى والحال اضطرب في البلاد، حتى المرات المعدودة التي خرج فيها غضبًا، كانت تميد به الأرض بعد خطوات قليلة ويُغشى عليه!».

- وكيف يوافق الإنكشارية؟ كيف يوافقون على هذا بعد ما أخذوا من العطايا، وأنت نفسك كنزت الكثير يا ملعون أم تُراك نسيت أيها الخبيث؟

ابتلع الأغا الإهانة ونحى هدوءه جانبًا ورد ضاغطًا على أسنانه: «لم أنسَ يا مولاتي كما لم أنسَ أن الجنود يسخرون منه في العلن ويقارنون بينه وبين من يصغره؛ الذي يصرع الأشداء ويحسن الرمي، وفوق ذلك فتوى شيخ الإسلام واضحة بخلع مولاي». نطقها كأنها سبة فصرفته من كانت سلطانته بإشارة غاضبة من يدها وبركان نفسها يثور. كل مخاوفها تحققت، لقد خدعتها (كوسم).. نقضت عهدها معها وتصافت مع ابن زوجها.

ويحها تلك الملعونة ناكثة العهود!

أما (صفية)، فقد فرحت أخيرًا أن شقاء أخيها قد انتهى، فهرعت مع الخدم ليعيدوه إلى قفصه.

***

يوم جديد تخرج فيه من قصرك يا (داوود). لم تتوقع أن أم زوجك بهذا الحمق لتدبر قتل أولاد (كوسم) فيسرع شيخ الإسلام بإصدار فتواه وترسل

لك الأولى بقائمة الدم الجديدة لتنفذها في ذات اليوم على وجه السرعة. (عثمان) كذلك، لم تتخيل أنه بهذا الدهاء فيركن معك إلى الطرف الرابح بحفظ دماء إخوته وتقديم صنائع زوج أبيه، أو ربما حتى لم تكن (كوسم) تريد التحالف أصلاً مع (هندان) وأرادت أن تشعر (عثمان) بالحاجة إليها لأن جنون السلطان سيعزله عاجلاً أم آجلاً. يوم جديد من قتل وحبس من صنعتهم بالأمس وعودة أنصار رفاق قتلتهم ذات يوم، لم ترد أن تتم هذه البيعة بالدماء، لكنها أوامرها!. أتلقي بك (كوسم) إلى التهلكة أم تزيد من مجدك كما تفعل كل مرة؟ بالأمس كنت تريد قتل (عثمان) وأخيه لتمهد طريق العرش لأبناء (كوسم)، واليوم ستبايعه وتلثم رداءه.

لا ريب أن اليوم سعد (صفية) حين يُعزل أخوها. هي الشيء النقي الوحيد في هذا العالم. يُقال إن بقدر ما في حياة الرجل من دماء، بقدر ما يحتاج إلى امرأة يضعف أمامها، وهي ليست كأي امرأة، إنها زهرة الخزام الوحيدة النابتة وسط غابة من أشواك الأحقاد والمؤامرات، هي الملاذ الذي ينسى فيه أن حياته معلقة بخيط واهن يتأرجح به بين المجد والفناء.

***

مسجد سيدي (أيوب شمس الدين)...

المسجد الذي بُني حول قبر صاحب النبي (أبي أيوب الأنصاري) فيما مضى، كان أهل بيزنطة يتبركون به في جدب مائهم، اعتقدوا أن القديس القادم في ركاب جيش العرب منذ قرون ودُفن هنا قادر على أن يجيب

دعاءهم، رغم أنه جاء ليفتح مدينتهم. طُمس القبر ردحًا من الزمان حتى عثر عليه جيش الفاتح واعتبروه يومها بشارة فتح القسطنطينية. إن (أيوب شمس الدين) يستضيفهم في القسطنطينية كما استضاف النبي من قبل عندما بركت ناقته بالقرب من بيت أبي أيوب المتواضع. من يومها لم ير بنو (عثمان) لقبًا يكرمون به الصحابي (أيوب شمس الدين) إلا بأن يسموه (أيوب) سلطان! . ترددت تلك الحكاية ومثيلاتها في ذهن الصبي المنتصر. ملأت صدره رائحة بخور السلطة كما ملأت صدور غيره من قبل. عيناه مثبتتان على الصخرة التي غُرست عليها راية ملفوفة رمزًا لعمل (أيوب شمس الدين) كمضيف الرسول. رأى القناديل معلقة في دائرة الثريا الكبيرة كأنها جارت التلاميذ في التفافهم حول شيخهم. تذكر الشهور الثلاثة التي مرت عليه كليالي السجناء. إنه الآن البادشاه[1] (عثمان) خان الثاني. حرك شفتيه بلقبه باستمتاع بينما قلده شيخ المولوية سيفًا وقبل يده.

طُويَت به الأرض حتى وصل إلى الديوان ونسيم الظفر داعب وجهه الأمرد. أوامره سبقت خطواته؛ على العم المجنون أن يعود إلى قفصه لا يدري لم عظّموه ولم أغلظوا له من بعد، أو كذا ظن السلطان الجديد. كذلك تُطرد العجوز الملعونة إلى السراي القديم لتلحق بسابقتها ومعها جواسيسها وعيونها. القصر الآن ليس فيه إلا رجاله هو وخدمه هو، أو كذا ظن السلطان الصغير.

***

(١) كلمة معناها ملك الملوك.

إنه وارد حق يزعج القلوب إلى الحق فمن أصغى إليه بحق تحقق ومن أصغى إليه بنفس تزندق.

رفع الأمير محمد ذراعه اليمنى باسطًا بطن كفه إلى السماء دار، خافضًا ذراعه اليسرى باسطًا بطن كفه إلى الأرض فاض على ماحوله من نور.

سماع المولوية..

دار بأطراف قدميه في دائرة صغيرة على هيئة الأفلاك، أمير ابن سلطان واليوم أخو سلطان لكنه في الخانقاه (محمد) فقط، يرقص بين المولوية كواحد منهم، بل هو واحد منهم منذ شهرين. تعلم كيف يستقبل واردات الحق، ويظهر ما يشعر به فعلاً. لا يتواجد ولا يدعي. إنه ذوق.. فن لا يصلح للمدعين. وحين ذاق الوجد حقًا، خرج وعلى جسده رعدة واضطراب، فتعلم كيف يتجلى وجده في رقصه المنظوم. أيام قضاها مع (سليمان) أفندي سامح أباه وعطف على أخيه ووصل -على غير عادة أهل السلطان- إلى سكينة وراحة البال. كل ذلك بذكر الحق الذي يسعد حتى أهل النار.

***

أهل النار في النار أسعد منهم في الدنيا، لأنهم في النار يكونون متذكرين للحق، أما في الدنيا فيكونون غافلين عن الحق، ولا شيء أحلى من تذكر الحق .

جلال الدين الرومي

***

تفنى الذات فلا يبقى سوى الحق، قال أهل الظاهر إن (جلال الدين) يقول بوحدة الوجود وما قال إلا بالوحدانية لكنهم لا يفقهون!

***

و ما معنى علم التوحيد؟ أن تحرق نفسك أمام الواحد .

فإذا كنت تريد أن تشرق مثل النهار، فاحرق كيانك المظلم كالليل، واصهر وجودك في وجود راعي الوجود كما ينصهر النحاس في الإكسير، إنك قد أحكمت قبضتك على (أنا) و(نحن) وما كل هذا الخراب إلا من التثنية

(أنا الحق)، يظن بعض الناس أنها ادعاء عظيم، لكن (أنا الحق) على الحقيقة تواضع عظيم لأن من يقول (أنا عبد الحق) يثبت وجودين اثنين، أحدهما لنفسه والآخر لله. أما من يقول (أنا الحق) فقد نفى نفسه وأسلمها للريح. يقول (أنا الحق) يعني أنا عدم، هو الكل لا وجود إلا لله، أنا بمليتي عدم، أنا لست شيئا

جلال الدين الرومي

***

غاب عما حوله وفنى حتى عن الفناء، فنى عن صفات الخلق وسعى للتخلق بصفات الحق، فلا أب ولا أخ ولا حتى ملة! لا شيء سوى الحق وحده صاحب الوجود وغيره فناء.

استمع إلى صوت الناي، إنه يبكي ويئن حنينًا إلى الشجرة التي قُطع منها مثلما يحن هو إلى المحبوب. واستمع إلى صوت الربابة، إنه صوت صرير الباب الجنة، هاهو الباب يُفتح لتفيض عليه أنوار وأنوار.

سيُرسم أخوه سلطانًا لكنه لا يأبه ولا يكترث، يعيش كالعوام ليظفر بسعادتهم، تخفَّى في زي صبي فقير يأكل مع الفقراء في المطابخ، عبث مع أسراب الحمام الساكنة في أفنية المساجد، كم تعجبه هيئتها وذلك السلام الذي تعيش فيه! لا تستوحش من المصلين وتستقبلهم يوم الجمعة كأنها الملائكة تستقبل من حضروا ضيوفًا على الرحمن. لا عجب إذن ألا يصطادها أهل إسلامبول ويوقفون عليها الأوقاف ليطعموها! ثم أراد العمل حدادًا ليذل جاهه وغروره أكثر، عمل مع أحد الأسطوات كعامل مستجد، جميلة تلك حياة الأسطوات، تجمعهم طائفة واحدة ويعينهم في الملمات صندوق عوارض واحد. العجيب أن من أجداد الأمير من جارى الأسطوات وتعلم بعض الحرف والأعمال كجده الفاتح الذي كان بستانيًا وغيرهم ممن كانوا خطّاطين ونجارين. عادة لا يعرف أي من السلاطين لمَ توارثوها، كأنهم يشعرون بعدم الأمان فتعلموا تلك الحرف لتعينهم على نوائب الدهر. لكنه لا يفعل مثلهم؛ إنه يفنى حتى عن دنيا الفقراء كذلك، منهمكًا في دورانه ذاهلاً حتى عن صوت ذلك الشيخ المتجهم الذي يرفع صوته كل مرة عند المرور بالخانقاة يقول: «ويل لأمة تؤكل من كتفها وأهلها

يرقصون»، مسكين هذا الشيخ، وهل هذا الخراب إلا من الإثنينية كما يقول (الجلال)؟ أوليس الأولياء ترس الله وما صدأ الترس إلا بفتور الأرواح واتباع علماء الظاهر؟ لو أراد الله بهم خيراً لذاقوا ليعرفوا. أما هو فقد عرف.

***

الغبار كسى كل شيء حتى الهواء. كل شيء تم إعداده على عجل بما في ذلك الطعام الذي جلبوه للسلطان المخلوع. دفعوه دفعًا إلى مثواه بدلاً من التربيت الرفيق على الكتف بمهابة ورعب كما كانوا يفعلون من قبل. نظرت إليه أخته وتأملته في مشيته المضطربة، اقتربت منه ومسحت على شعره.

- آه لو أعرف ما يدور برأسك.

تمتمت بها فنظر لها بابتسامة بلهاء وادعة. استمر في صمته. قبّلته في جبينه وخرجت مع الخدم ليغلق الباب. منذ سنين، كانت عارضة الباب في الخارج وحين كان يغلقها عليه الطواشي الأسود يصرخ ويصيح؛ لم يرد أن يُسجن ويُمنع عن الخارج، أما بعد موت (عزت) أفندي زهد في كل شيء وطلب أن يُقلب الباب لتصير العارضة للداخل يغلقها بنفسه ويفتحها إذا طرق الطارقون.

صاروا هم في الداخل وهو في الخارج، خارجًا عن دنياهم التي أبت إلا أن تدخله فيها لتخرجه منها من جديد.

تباطأ بعض الخدم ظنًا منهم أن السلطان الدرويش سيصرخ، سيغضب، سيركل الباب المغلق، لكن (صفية) تعرف أن هذا لن يحدث.. سيثبت العارضة الخشبية التي تزيد في إحكام غلق الباب ويعود لفراشه.. لقد صار حراً.

[٨]

ملل..سأم. . ضجر. .

ألفاظ كلها وصفت حالته. نار قلبه همدت و خلّفت دخانًا كثيفًا. بضعة أيام تكفلت بانقلاب وجد الأمير (محمد) إلى فتور. صار يسأل نفسه كثيًرا، أبهذه السرعة ينضب الإيمان من القلب؟ أتستطيع ريح يوم و ليلة أن تقتلع شجرة السرو؟ لم يجد الأمير -الذي صار وليًا للعهد- إجابة على أسئلته أو شفاء لحالته. رفع يمناه و خفض يسراه و دار، لكنه توقف بعد برهة و عاد ليجلس على طرف فراشه، هرع إلى مثنوي (جلال الدين) الرومي و حاول قراءته بصوت جهوري كالسابق لكنه لم يستطع. فيما مضى طمأنه (سليمان) أفندي أن خفوت الصوت بالذكر أمر عادي و بمرور

الأيام يصير خفوتًا في القلب لا ينعدم، لكن الأمير لم يستطع حتى أن يهمس، ولم يسمع في جنبات قلبه سوى الصمت. تلاشت السكينة والطمأنينة من قلبه وتمزق رباط الرضا الذي ظل يحيط به منذ شهور. أكل هذا لأن أخاه صار سلطانًا؟

سحقًا للأمل و زيفه! حين توطن في نفسه أنه وأخاه لن يصيرا سلطانين أبدًا و انتقل الأمر إلى عمه المجنون، شعر براحة عجيبة جعلته يتخيل أنه سيقدم رأسه بكل رضا لقاتليه إذا ما أراد عمه أن ينفذ قانون الفاتح. كان يشفق على أخيه و هو يحاول محاولاته الدؤوبة لعزل عمهما (مصطفى) ورآها هباءً منثوراً، لكن ها هو من جد وجد و حصد العرش، من ظلت رسله تدور حول قصور النافذين، بينما ظل هو يدور حول نفسه دوران الأفلاك. حقًا هو دوران الأفلاك؛ لن يصير شمسًا و لا حتى قمرًا يظهر بضوئه الباهت ليلة التمام. هأنت أيها المريد ضقت بخرقة الصوفية السوداء الرثة و اشتقت لعباءة السلطان، لم تعد تشفق على أخيك و ترمق مكانه الآن بكل حسرة وألم. تتمنى لو كُسر كل مسمار في عرشه ليهوى فتطأ رأسه و تضع رجليك على الفرش متكئًا على عرش الأجداد.. حقك. مرحى أيها المريد! أهذا هو الحق الذي تفنى فيه؟

كلا إنه ليس متواجدًا، لم يخدع نفسه كل هذه الفترة. لم ينافق.. لم يراء. وقف على هيئة الرقص مجددًا و دار دورانًا محمومًا، شعر بالنار تلهب جسده، إنه ترك هذه الدنيا الفانية و لن يعود لها، رأى في ذهنه أباه يرمقه بسخرية و يقول: «نعم، ودعت الدنيا و رضيت بشظف العيش، فلم

تستبق منها إلا قصرك المتواضع و خاتمك المرجاني الرخيص وذهبك الذي لا يملأ بضع صناديق!». ازداد في الدوران أكثر حتى ارتطم رأسه بعامود الفراش. إنه كالجائع أمام مائدة حافلة، بم يفيده التظاهر بالتعفف والشبع؟ أيذهب لـ(سليمان) أفندي طلبًا للنصح؟

كلا، سيكرر كلامه المعتاد طوال الأيام الماضية.. كلمات لا تشفى ولا تطيب. إلى أين يذهب إذن؟

***

«ويح أمة تؤكل من كتفها و أهلها يرقصون».

***

هذا هو! سيذهب إلى الشيخ المتجهم، لكن أين السبيل إليه وهو لا يعرفه إلا هاتفًا من خارج الخانقاه؟

هذه هي الطريقة! فليذهب إلى الخانقاه يرقبها مترصدًا للرجل حتى لو فعلها شهرًا.

***

بثلاثة أصابع مد يده بالطعام للفم الصغير. شعر بالأسنان الطرية تدغدغ أظافره وطرف اللسان الندي يرطب أنامله.

- البطاطا حبيبة الأطفال، ألم أقل لك؟.

- لم أظن أن ولدك سيحبها! .

ضحك (داوود) ضحكة خفيفة، مازالت (صفية) مربية ساذجة. اكتشافها للجديد حولها بدهشة، واتساع عينيها يشعره أن لديه طفلين لا طفلاً واحدًا.

آه يا (صفية) يا بهجة الأيام كلها! تأملها (داوود) وهم يأكلون، مازالت نحيفة ضئيلة. حين يحملها، يشعر أنه يحمل طفلته الصغيرة بين يديه. حينما يلاعبها الشطرنج، يشعر أنها سيدة الكون، تماما كالشاه، تتحرك خطوة وئيدة واحدة و هو وزيرها الذي يذود عنها بعمره والرخاخ والخيول والفيلة والبيادق خدم يسيرون بين يديها.

الوحيدة التي يخسر أمامها عامدًا ليرى السعادة في غمازتي وجهها ونور عمره في صفي النجوم الصغيرة بين شفتيها.

أجلس (داوود) الصغير على حجره بعد أن فرغوا من الطعام. رفع الأصابع الصغيرة إلى لحيته الكثة وحركها لتدغدغه، لكن لم يبد الصغير تحمسًا.

- مشّط لحيتي يا أحمد.

- لا.

- لماذا ؟

- خشنة!

ضحكت (صفية) و أخذت الطفل بسرعة من حجر (داوود)، أعطته المشط وأجلسته خلفها على السرير ليقلد الجواري ويمشطها. غمزت بعينها تغيظه. ضحك حتى سعل، دائمًا ما تتعجب (صفية) من كثرة ضحكه معها، لكنها لا تعرف أنه يختزن ضحك يومه ليظهره بين يديها. يخبئ رقة أنامله ليداعبها، يكتم دموعه ليرسلها في أحضانها، يضن بلين ذراعيه إلا حين يحتضنها أو يحتضن ولده الصغير. يدخر رحيقه ليهديه نجومها الصغيرة.

طرقة خفيفة على الباب ذكرته بالضيف القابع في القبو منذ أيام، انتزع (داوود) نفسه من مجلسه و حمل طفله إلى مخدعه برقة تليق بحمل أمير صغير. نزل بعدها إلى ضيفه و أمر بمائدة جديدة تتغير فيها الأدوار.

***

وجهه أبيض مشرق كوجه أبيه لكن على جسد طفل. تعلقت به نظرات أمه. لم يفهم لماذا تريد رؤيته كثيراً هذه الأيام. أما أبوه فلم يزره إلا لمامًا، لذا اقتنع تماما بما قيل له إن السلطان ذهب إلى الحج، وسيغيب وقتًا طويلاً حتى يعود، ومنذ ذلك الحين تكررت زيارات أمه ودروسها المستمرة التي تلقنها له في إصرار عجيب.

لعل (كوسم) نفسها تستغرب عدم صبرها على فراق ولدها (مراد) هذه الأيام، أتريد أن تعده ليصبح سلطانًا أم لأنه يذكرها بأبيه أول وآخر رجل في حياتها التي لم تنته بعد. لازالت تذكر نظرته الحزينة عند فراقها آخر مرة قبل

موته، كأنه يودعها، ذات النظرة التي كانت في عينيه حين ماتت أول قادين في حياته.

- لكن لماذا قامت زوج الأسد الميت بنكث عهدها يا أمي وعهدت للذئب الصغير بعرش الغابة؟

- لأن أم الدب جشعة كانت ستقتل أبناء الأسد الميت، فهي ماكرة، وكان يجب أن يُعزل الدب بيد الثعلب و أصدقائه.

- ثم ماذا؟.

- يموت الذئب وأخوه ليتولى الأسد الصغير حين يكبر عرش الغابة و يصبح الملك.

- لكنهما أبناء عم أليس كذلك؟

- نعم، لكن ليست هكذا تصير الأمور يا حبيبي، قامت من على أريكتها وأقعت بجواره و قالت مبتسمة: «لو أنني أردت منك أن تعطيني خاتمك، ألن تفعل؟ ألست أمك؟»

في سرعة أخرج خاتمه من إصبعه وأعطاه لها فأعادته له بذات الابتسامة ثم غمزت بعينها و أضافت: وإذا قلت لك أعطني عينًا من عينيك ألن تفعل؟

- ألن تعيديها لي يا أمي؟

ضحكت ضحكة عالية قصيرة ثم قالت و هي تتصنع الشر: «لا، وسآخذ الثانية أيضًا».

ثم مدت يديها بسرعة إلى وجهه فتراجع في رعب و جري إلى الجارية خارج الغرفة لكن أمه أمسكته بحزم و همست له : «هكذا المُلك، حين تراه، يصبح كعينيك . . لا تعطها لأحد حتى لو كان أباك» .

لكن الفتى لم يفهم، انتزع نفسه من ذراعيها و لاذ برداء مربيته يبكي . زفرت الأم ضيقًا من محاولتها الفاشلة و صرفت الجارية حاملة الولد لكنها همست في ثقة : «لا بأس، غداً سيكبر و يتعلم، و يصبح أسداً» .

***

- هذه حكايتي كلها أيها الشيخ .

زمَّ الشيخ (برهان الدين) شفتيه في أسف ثم رمق محدثه الشاب بنظرة حانية و قال في بطء : «من نوائب الدهر يا مولاي أن يرقص المسلمون و بلدانهم يقتات عليها الدود داخلها و الكفار يشحذون السيف لذبحها في الخارج» .

ثم تنهد وأردف : «هذا ما نبهنا إليه الشيخ (حسن كافي الأقحصاري) وحين قدم إلى الوزير (حافظ أحمد باشا) وأهداه كتاب «أصول الحكم في نظام العالم» الذي ألفه، ظن من اهتمام أولي الأمر به أن الحال قد ينصلح، لكن لم يلبث أن عاد إلى سيرته الأولى، وهؤلاء الراقصون لايزالون يلهون الناس منذ زمن شيخهم الأكبر الرومي الذي رقص و المغول يخربون الأناضول ورقص الناس معه ليهربوا من ألم الفواجع . وجلس البراوناه صنيعة المغول الذي حكم الأناضول باسمهم في مجلس الرومي يحاوره في الزهد والفناء! أتعرف مالذي قاله هذا الجلال للعامة عن انتصار المغول؟ قال

لهم إن المغول لما كانوا حفاة عراة وضيق عليهم خوارزم شاه في المعاش، شكوا إلى (جنكيز خان) فاعتزلهم في كهف وصام عشرة أيام وأظهر الخشوع والخضوع فجاءه نداء الحق سبحانه وتعالى «قبلت تضرعاتك وتوسلاتك فأينما تذهب تكن منصوراً!». في ذلك الوقت كانت الأمة تجاهد مع الأخيار و غيرهم، فأي سماع يسمعونه يا مولاي وأي مثنوي يقرؤونه؟ إنهم لا يسمعون كلام الله وذلك المثنوي الذي يزعمون أنه كشاف القرآن يصف التهالك على متع الدنيا بكل فحش كمضاجعة امرأة للحمار! ويلبس معاني القرآن بقصص كليلة ودمنة، وذلك الغموض والإلغاز في معانيه، فأي كشاف هذا وأي حق يفنى فيه الناس وهم بعيدون عن الله؟ فلا طريقة إلا طريقة الرسول، ولا شريعة إلا شريعة الله ولا حقيقة إلا حقيقته، وكيف يكون زوال العقل في الدوران سبباً أو شرطاً إلى ولاية الله؟

و إذا كان العساكر المحمدية يصلون البكتاشية و يقرأ الدراويش القرآن و البخاري أيام الحروب، فلم يعذبنا الله إذا كان هذا دينه و تلك شريعته؟ فشيخنا (الأقحصاري) يقول:

«.. فإن الفحشاء والمنكر والبغي خيانة في الدين والخائن خائف والخائف لا يخلو من الانهزام وقد بدا البغي في ديار الروم بين عساكر المسلمين منذ ثلاث سنين. فإن كثيراً منهم طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد بهتك أعراض المسلمين ونهب أموالهم والتعرض لنسائهم وأولادهم والإغارة على أرزاق الرعايا وإيذاء الفقراء والضعفاء خصوصاً من الطائفة

الخاصة، فسلط الله الأعداء على حدود الروم فبالغوا في الهجوم وأخذوا قلاعًا كثيرة و أظهروا عسرة كبيرة، وفعلوا ما فعلوا وما وقع هذا في عسكر الإسلام إلا لإهمال الضبط والسياسة والتقصير في أداء وظائفهم وذخائرهم، ولعمري إن أكثر ما وقع من الاختلال ما وقع إلا بسبب الطمع في المال من غير تمييز الحرام عن الحلال».

أتى الدور على الأمير ليتنهد بضيق كأنه هرب من مواعظ رائقة ليلجأ إلى مواعظ مطولة متكلفة فتنحنح و قال: «كما ترى، أنت تقول قولهم، لا شيء يمكن فعله و قد ظهر الفساد في الأرض. إنهم لم يكذبوا حين ذموا السلطان ومن ورائه الطائفة الخاصة إذن».

- يا مولاي إنما السلطان من أعظم واجبات الدين و من أهم أمور المسلمين لا قيام للدين و الدنيا إلا بها ولولاها لتعطلت شرائع الدين و اختل نظام المسلمين، بل نظام جميع العالم وسبب فساد بني آدم[١].

- ومن يقوم بهذا؟

- مولانا السلطان و أنت معه يا مولاي الأمير، كن أنت ناصحًا لمولانا البادشاه و مؤازره في الحق، إن الضالين يقولون إن الولي كالذبابة في الماء فأي حركة تصدر تكون من الماء لا من الذبابة، لكن الذبابة في هذه الحالة تغرق يا مولاي. إن الله لم يؤيد بني عثمان إلا ليجعلهم خلفاء الله على عباده و كان مولانا الفاتح رحمه الله خير سلطان. لا صلاح لهذه الدولة إلا

(١)أصول الحكم في نظام العالم، حسن كافي الأقحصاري.

بما صلح به أولها يا مولاي». التفت الشيخ إلى خزانة الكتب في بيته الفسيح وأخرج كتابين منها وانحنى و هو يقدمهما للأمير قائلا: «هذان كتابان لشيخنا (الأقحصاري) يا مولاي؛ «أصول الحكم في نظام العالم» و«نور اليقين في أصول الدين» و هو شرح للعقيدة الطحاوية آمل أن يكشف الله به ما أخطأ مولانا الأمير من صواب.

قبض الأمير على الكتابين و ودع الشيخ (برهان الدين) شاكرًا، فرغم رطانة الشيخ إلا أن الأمير عرف أخيرًا كيف يصالح نفسه. سيرسل إلى التجار الذين يقفون ببابه مرارًا و يجعلهم يبنون له خزانة كتب عظيمة ليعرف ما لا يعرفه أحد في الدولة، فيظهر عليهم و يسفِّه منطقهم و البداية ستكون بحفظ هذين الكتابين عن ظهر قلب، فاليوم هو الأمير الحاذق و غدًا هو السلطان.

***

«برباشي» هو حلاقي الخاص.

«الطرناق جي» هو الذي يقلم أظفاري.

«الباش تفتكنجي» هو الذي يحفظ بنادقي في الصيد و يودعها في خزانتي الخاصة.

«الباش قهوجي» هو الذي يعد لي القهوة بعد صلاة الصبح و بعد الطعام.

«الباش المؤذن» هو الذي يؤذن في المسجد الذي أختاره لصلاة الجمعة.

«الباش شرقجى» الذي يلف عمائمي وينظفها مع القاووق[1] ».

- كلا يا عثمان، القاووق له موظف خاص بتنظيفه، هو الباش قاووقجي.

- عفواً يا معلمي. قالها (عثمان) في توتر و هو يحاول حفظ مناصب الخدم الذين يتعامل معهم داخل السراي ويرتلها بسرعة لاهثة للخوجة (عمر)، ألا ينتهي هؤلاء الخدم أبدًا؟!

- لا أدري لم إصرارك على هذا، عمك كان يكتفي بطواشٍ واحد.

- عمي كان أحمق يا معلمي و كانت أمه تخاف أن يخالطه أحد فيكتشف فساد عقله، أما أنا فسلطان، و يجب أن أثبت للجميع أنني سلطان و أُعامل كما يليق بسلطان، فلا أكون غافلاً أو جاهلاً عن أي شيء، فيسخر مني أحد و يقول إن عمامة السلطنة أكبر من رأسي، ثم ألست أنا حافظ الملة و حامي حمى الحرمين ؟ أليست هذه المظاهر كلها عزًا للإسلام وإظهارًا لتمكينه؟

ألا ترى كيف نستقبل القناصل الكفار بكل أنفة و عظمة؟ كل هذه الأمور التي تستكثرها يا معلمي هي حقي، حق الغازي الجديد.. أليس كذلك؟

أومأ الشيخ برأسه إيجابًا، و إن بدا عليه عدم اقتناع لم يستطع تلميذه أن يفسره، لكنه لم يعبأ و عاد للترتيل بسرعة لاهثة من جديد.

***

(١) غطاء الرأس الذي يلتف حوله العمامة.

«إن استعراض الجنود وتتبع خدرهم و أسلحتهم و اتخاذها ثم استعمالها هي العمدة في المحاربة و المقاتلة فلا بد من الاهتمام في هذا الأمر خصوصًا في هذا العصر، وأول ما شاهدناه في هذا التاريخ من العجز عن المقاومة مع الكفار ليس إلا لإهمال هذا الأمر الخطير و الغرض الكبير و قد جربنا في ديارنا من خمسين سنة أن أعداءنا من أهل الحرب كلما اخترعوا نوعًا من الأسلحة و استعملوه، غلبوا علينا ثم إذا اتخذنا مثله و استعملناه، غلبنا عليهم بعون الله تعالى لقوة الإسلام. أما في هذا الزمان فالأعداء قد بالغوا في استعمال بعض الأسلحة المحدثة كالبنادق و نحوها و أهمل عساكرنا في اتخاذ مثلها و استعمالها بل أهملوا في استعمال الأسلحة القديمة منها أيضا فوقعوا فيما وقعوا فيه هداهم الله تعالى إلى الخير ونصرهم [1]».

خطبة عصماء كهذه من الأمير (محمد) كانت لتطرب السلطان لأنها جاءت على هواه فيثبت فساد من كانوا قبله ويقوي عزمه الشاهاني على إصلاح الفساد، إلا أن قول (محمد) هذا سرق من السلطان الصبي العيون والآذان، فقضم أظفاره في غيظ من التجاهل. كم كان أحمقًا حين وافق على حضور أخيه الديوان معه، لولا إلحاح الخوجة -الذي قال إن ذلك من آثار الأجداد -لما فعل. ما الذي جعله يترك دورانه وطريقته وكلماته السمحة الجوفاء ليقحم نفسه فجأة في أمور السلطنة؟

(١) أصول الحكم في نظام العالم، حسن كافي الأقحصاري.

قال الصدر الأعظم (محمد) باشا محتجًا: «إن الجند على خير ما يرام وهذا الكلام كلام (الأقحصاري) الذي يحمل علينا يا مولاي البادشاه».

أعادت «مولاي» بعضًا من كرامة السلطان المهدرة فرفع رأسه في اعتداد وقال: أيها الأمير . . .

كاد يكمل كلامه إلا أنه وجد الخوجة (عمر) غاضبًا فخشي أن ينحاز إلى (محمد) ضده فتضيع هيبته، لهذا بتر عبارته وفض المجلس مسرعًا وما كاد الجمع ينصرف حتى أمسك (محمد) بذراع أخيه وقال: «لا تغضب مني يا عثمان، إن الوزير الذي لا ينصحك إما خائن اطلع على عيب وستره أو لم يجد منك منكرًا فلست في حاجة إليه».

لم يجد (عثمان) سوى نزع ذراعه من كف أخيه، و سخر في عصبية قابضًا على ذراع أخيه بدوره لكن بقبضة أشد: «صرت ترطن يا محمد مثل الفقهاء، تغيرت كثيرًا منذ أيام المصارعة . . »

أحنى (محمد) رأسه في محاولة لاحتواء غضب أخيه. أدرك الرسالة التي أوصلتها القبضة القوية الغاضبة مذكرة الأمير المغلوب بكسر ساقه منذ زمن.

- لا فائدة إذن.

كذا حدَّث الأمير نفسه، ستتكفل غيرة السلطان بإفساد كل شيء حتى ظن أن الإنكشارية يحبون حضوره ليوافقهم السلطان فيما يذهبون إليه!

ليس هناك بد من طلبه المؤجل: «إني أريد إذنكم بالذهاب إلى أية ولاية ليقوى ساعدي في الحكم، وأكون خير معين لك كما كان يفعل أجدادنا قبل قانون الفاتح و بناء القفص».

- أخيراً سيرحل!

كتمها السلطان في نفسه وقال: «حسنًا، سأرسلك إلى ولاية غير ذات شأ. . غير صعبة في الأناضول، ألم يكن هذا هو ما يفعله الأجداد».

هز الأمير رأسه في نفاد صبر قانعًا بما حاز ثم انحنى في سرعة خشية رجوع السلطان عن قراره. وبدا أن الديوان الذي لم يشهد جلوسًا للسلاطين منذ عهد القانوني قد ضاق صدره بالتغيير المفاجيء؛ أن يجلس تحت قبته اثنان من أبناء (عثمان).

●●●

[٩]

في الغروب وعندما أحاطت أشعة الشمس البرتقالية بأردبيل كغلالة من حرير، حانت عودة الرجال إلى بيوتهم بعد عمل شاق في الدكاكين والحقول. فيما مضى كان يومهم الرتيب مليئًا بحديث الكرامات والأولياء؛ عن الشيخ التركي (صفي الدين) الأردبيلي ومريديه. (مراد) الثاني نفسه أحد سلاطين آل (عثمان) أكرم الشيخ وجدد زاويته طالبًا الدعاء والبركات. ثم مات السلطان ومات الشيخ وتتابعت على طريقته خلفاء لم يحفظوا لها بهاءها القديم، كان ذلك قبل أن يقتنص أبناء الشيخ الفرصة لما تقاتل خلفاء تيمور لنك على فارس، فغلب أسياد الطريقة عليها بمريديهم وأقاموا دولتهم الصفوية. في البداية كان سلطان بني (عثمان) البادشاه المصونة كرامته

والشاه (إسماعيل) الصفوي أعلن أنه لا يجسر على دخول بلاد «أبيه» البادشاه (بايزيد) الثاني بن (محمد) الفاتح، لكن أتباعه القزلباش عملوا بدأب وصمت في الأناضول داعين للشاه (إسماعيل) بن (صفي الدين) الأردبيلي من آل بيت (محمد) ﷺ! ولما قويت شوكة الشاه -الذي أصبح شريفًا- بدأت الحرب بين أبناء السلطان و أبناء الشيخ، و وُضع السيف في فارس على رقاب من لا يسب (أبا بكر) و(عمر) أولئك السنة الذين يوالون آل (عثمان). تمايزوا سنة و رافضة لتكون الحرب بين الصفويين والعثمانيين دينًا لا ردة عنه.

عامان مرا منذ تولى السلطان الجديد و لم يحدث شيء منذ الحرب الكبيرة أيام السلطان (أحمد) الأول، لكن أبناء أردبيل يؤمنون أن أبناء الشيخ يريدون العودة لزاوية أبيهم. ربما يحنون لأصلهم أو يريدون أن يمحوه من التاريخ فلا يبقى من صورتهم إلا صورة أبهة الصفويين حكام فارس.

متى يعودون؟

حملت الإجابة أصوات مدافع دوت فجأة و غبار حوافر خيل كست غلالة الغروب؛ لقد عاد أبناء الشيخ إلى الزاوية.

***

تسارعت دقات قلبه. تنفس ببطء. مقبوضة يسراه كأنها تعتصر نفسها. ممسكة يمناه بمقبض خنجره المغمد. قطع الردهات بمشيته المرتبكة حتى وصل إلى القبو.

- لقد وجدنا هذا الرجل يا مولاي، إن الوصف ينطبق عليه، و سنه أكبر من سابقه. نتعشم أن يكون المطلوب.

أتم الجندي عبارته وانحنى، هز (داوود) باشا رأسه ورمى لجنديه كيسًا من المال وصرفه بلا اكتراث. نظر إلى أسيره بإمعان، دقق في ملامحه، هل يشبهه أم يريد رؤية العجوز كذلك حتى يتوقف عن بحثه الأبدي؟

تأمل ثياب الفلاح البالية و صوب نظراته الفاحصة للجسد العجوز النحيل. لم يعرف الفلاح لم أتوا به إلى قصر أغا الإنكشارية و انتزعوه من أسرته. زادت نظرات الباشا المتفحصة من توتره ثم لم تلبث أن صارت نظرات غضب عظيم أو كذا توهم المسكين. لم يشعر بنفسه إلا و هو يثب على يد الأغا يقبلها باكيًا ويقسم أنه بريء، من أي تهمة؟ لا يدري. ارتجف العجوز النحيل حتى خُيِّل إليه أن النظرات وحدها كفيلة بقتله. دفعة غليظة أعادت الفلاح الأسير للتوتر والترقب، كف عن البكاء و إن لم يكف عن الارتجاف. انتظر أن يتحدث الباشا لكنه لا يفعل. خُيل إليه أن الباشا شارد كأنه يتذكر شيئا ما. هل عين الباشا تلمع من جمود الدمع أم أنه يتوهم؟ هل الباشا يبدو عليه الاضطراب أم خلع على آسره من خوفه؟ خلع الأغا خفيه و شمر عن ساعديه.

- اجلس.

أشار (داوود) إلى مائدة أعدت على عجل، جلسا متجاورين، شعر العجوز بالدهشة و الطمأنينة في آن معا، لكن لم ينطق.

- لماذا لا تأكل ؟

انتزع الأغا بيده قطعة لحم و وضعها في يد الفلاح المرتجفة، كاد الفلاح أن يزدردها بسرعة، لكن الأغا أمسك بيد الفلاح بقسوة ووضعها في فمه. اندهش الفلاح من الأغا الذي يأكل من يده و يدغدغ بأسنانه تلك الأصابع التي أضناها الشقاء في الحقول.

- أتعلم، كان عليّ أن أشرب الحساء ساخنًا فيحرق لساني و يشعل جوفي!

مسح الأغا بيده على وجهه ثم زفر و هو يتذكر تلك الأيام الأليمة في الثكنات.

أزاح المائدة و قام واقفًا فهب الفلاح فزعًا. صارا في مواجهة بعضهما البعض على ضوء قنديل القبو.

- سنوات طويلة و أنا أبحث عنك، لم أعرف سوى اسمك الأول لكني كنت موقنًا أنني سأجدك.

تملكت الأسير الدهشة عندما سمع هذه الكلمات من الباشا، فلم يجد سوى أن يقول: «أقسم يا مولاي أنني لم أفعل شيئا، عشت حياتي كلها أفعل ما أؤمر؛ أدفع كل الضرائب و لا أخفي شيئًا من محصولي».

- نعم، أعلم أنك رجل صالح.

احتضنه الباشا. اندهش العجوز، لكن أصغى في استسلام للكلمات:

«رجل صالح كما يريد آل عثمان».

أينطقها في مرارة أم هي ليلة الأوهام؟!

- تدفع الضرائب كلها، حتى الدوشرمة[1] دفعتها غلامًا من أبنائك. لم تبك و لم تصرخ و لم تعترض، لم تدفع البقشيش و تركت ولدك لهم. دفعت به ليكون من قولار السلطان. عزيت نفسك أنه سيكون ذا شأن في يوم من الأيام. سينسلخ عن اسمه و دينه و أهله ليكون بلا أهل و لا دين، لكنه سيصبح عظيمًا. . و أي مجد أعظم من أن يُسلك في قولار السلطان؟ تنفس الباشا مضطربًا، ثم أكمل و قد تهدج صوته:

«سيتحمل حياة قاسية جافة في الثكنات، لكنه بعدها سيحوز ما لم يحز الفلاحون جميعًا. سيعيش على القتل و الذبح، لكن سيحيا كالملوك. ربما تقف حياته على كلمة من السلطان الذي يقتل عبيده لأدنى شبهة. ربما يصير أغا للإنكشارية و يسمونه داوود». ضحك ساخرًا و أكمل: «لا، لم تخطر هذه على بالك. . إنه الآن تتنازعه خواطر شتى و نوايا كثيرة إلا أنه رغم ذلك لا يملك أن. . . يسامحك» لهث ثم غرس خنجره حتى المقبض في صدر العجوز. رأى على وجه العجوز أنه يريد أن يبكي. . يعتذر. . يطلب الغفران و ربما رأى فرحة حزينة على وجهه بعودة الابن الذي غاب، بيد أنه سقط مضرجًا في دمائه على الأرض. شعر الباشا في جسده بفتور الخمر بعد سورته و أرخى يسراه ليسقط منها جواد خشبي منزوع الرأس.

هل يكون الأخير؟

---

(١) ضريبة الغلمان.

لا يريد أن يفكر، ليس بمقدوره أن يهدم كل شيء على رؤوس الجميع و لا يقدر كذلك أن يتصالح مع نفسه. لم يكن جريئًا كـ(إسكندر) بك الذي ترك جيش الفاتح و مرتبته العالية، فعاد إلى دينه و وقف مع قومه الألبان حجر عثرة أمام العثمانيين. عاد أميرًا ابن ملك سلب عرشه العثمانيون و قاد شعبه حتى مات في جلال و مهابة مازالت في قلوب الألبان رغم إسلامهم. لم يستطع (داوود) أن يكون كـ(إسكندر) بك و لم يستطع أن يعيش كـ(محمد صوقللو) الصدر الأعظم الذي أعاد لمسقط رأسه بتش مكانتها و بطريركيتها منصبًا على كرسيها أخاه (مكاربي) المسيحي الذي فاته وكلاء الدوشرمة!

صورتهما دائمًا أمامه؛ (إسكندر) و (صوقللو)...

(صوقللو) و (إسكندر).

إلى أي منهما ينتمي؟

للا أحد، معلق بين السماء و الأرض، كالطير الأصم ليس لديه سوى أن يعلو و يعلو في السماء، و الجميع يخبرونه أنه هاوٍ لا محالة. صار كوحش مقدس لا يهدأ و لا تخمد نيرانه إلا بقربان لتشتعلَ بعدها نيران الانتقام من جديد.

إنه الآن منهك متعب. سار يتخبط إلى فراشه و اعتصر الحاشية القطنية متكومًا كالجنين في بطن أمه لتهدهده (صفية) كما تفعل بصغيرهما دون أن تثقله بالسؤال. لمساتها الحانية تزيد من آلامه. يحتار أيردها في غلظة، أم يدس نفسه في حضنها و ينهل من حنان هو في أمس الحاجة إليه؟

ها قد انتهت قصة هذه الضحية و انتهت دورة القمر التي ينتظر فيها الغول ضحيته الجديدة.

آن له أن يعود لحياته المعتادة و يخفي عادته السرية حتى لا يُتهم بالجنون، عليه أن يعود ككثير من رفاقه الذين تزوجوا من بنات آل (عثمان) وحازوا لقب داماد. أن يتصالح مع نفسه لا يشغل باله بالعبودية و الحرية، بالأصل والنسب مثلما يفعل جميع من حوله. حتى زوجه لا تعاير (كوسم) بأنها جارية إلا لأنها تكرهها، فلتتلاشَ كل الأفكار الآن. يريد في هذه الساعة أن يبكي بصوت خافت فحسب و يغوص في أحضان (صفية) رمز حبه.. وأسره.

***

قال الصدر الأعظم (خليل) باشا: «بلغنا يا مولاي أن جيشًا للعجم أغار على أردبيل منذ أيام».

يا لها من بداية سيئة لعهده في الصدارة بعد إقصاء ناجح لـ(محمد) باشا الذي عامل السلطان كوصي عليه. حاول (خليل) باشا أن يهون الأمر على السلطان ومعلمه. بيد أنه يدرك تماما أن السلطان رأى في الخبر فرصة سانحة لبدء حروبه التي يحلم بها. أي سلطان هذا؟ فيما مضى كان السلاطين من قبله يعطون الراية للصدر الأعظم و يسترخون وسط الحريم و هذا الصبي يفكر في الحرب كأنها نزهة من نزهات صيده! لوى السلطان عنقه لـ(خليل) باشا و قال يؤنبه: «لماذا أنفقنا عامين نكتب العهود و نشيد الحصون؟ ها هم على الأبواب والإنكشارية لا يحركون ساكنًا».

شرد السلطان بعد مقالته هذه كأنه لم يحتد أو يوبخ و طفق يتأمل كلماته في إعجاب. هاهو يتحدث بثقة هذه المرة، ليس خائفًا و لا قلقًا يحسب لكلامه ألف حساب. عامان أحكم فيهما قبضته على الدولة وأرضى زوج أبيه حتى رضيت و ورث نفوذها المتجذر أربعة عشر عامًا كما يعتقد. بعدها كشر عن أنيابه الصغيرة في وجه أوصيائه الأقدمين أحسنوا أم أساؤوا. العلماء في إسلامبول رفعوه قدر سيدي (عمر بن الخطاب) بعد تشديده في تحريم الخمر فكافأهم بالحد من مكانة شيخ الإسلام، فمن يفتي بعزل سلطان لا يؤتمن على آخر كما يقولون. بعدها أتى الدور على كل الباشوات الذين عاملوه كطفل صغير و كانوا يبتسمون سخرية من سذاجته، فاستبدل بهم قومًا آخرين من خاصته يركن إليهم و يدينون بنعمتهم له وحده. دنت ساعة الحرب و سيكون للصفويين أول نصيب منها.

تنحنح أحد الوزراء ليقطع على السلطان شروده و قال: «لكن الحملة ستتطلب الكثير من الأموال يا مولاي».

- أعلم، خذ مني فرمانًا إلى كبير الطواشي السود و أرسل إليه يسلمك ما تحتاج من أمواله لنفقات الحملة... ولا تنس أن ترفع الفرمان في وجهه.

ضربة جديدة لنفوذ حلفائه الأقدمين و هذه المرة من نصيب صاحب المعالي. اغتاظ السلطان كثيراً من نفسه حين تذكر كم خطب ود هذا الخصي ليأمن شره. الآن لم يعد بحاجة لهذا. ابتسم السلطان مهنئا نفسه على انتصاراته المتتالية، ثم رفع رأسه ليرى أغا الإنكشارية قادمًا في تؤدة وأخذ

مكانه على أريكة الديوان حسب العادة. استقبله السلطان بتحفز فنظر الأغا بدوره إلى سلطانه الصبي من طرف خفي باستخفاف، هذا السلطان لا يزيد عن كونه صبيًا، أظفاره المقضومة تشير إلى ذلك. استمع (داوود) إلى حديث الحرب بكل اهتمام و زادت سخريته عند استعراض كل من الباشوات عبقرية حربية لا يملكونها وأفكارًا طفولية لا تصلح إلا للحكايات، فهاهم البشوات الذين هُزموا أمام الصفويين قبلاً و قتلوا بعض قادتهم قربانًا لغضب السلاطين، يعودون ثانية ليخوضوا معركة جديدة وينقذوا الموقف! وراء كل منهم قصة، عرفهم صغارًا في عنبر النوم وخبرهم حين صاروا قادة و تناوبوا على الصدارة العظمى، هذا (خليل) باشا الذي يشرح خطة الحرب في حماس يقول من عاصروه في الجندية إنه شاعر جبان و إن أظهر عكس ذلك، و لطالما لجأ لغيره في الدفاع عنه إذا ما تحرش به أحد، و (سنان) باشا القلق على أرزاق الناس و تأثرها بالحرب برأه قاضي العسكر في شبابه من التعرض لامرأة أعجبته و حرق على زوجها حانوته ليتزوجها. أما (مراد) باشا الذي ذهب واليًا على مصر ظنًا أنه سيلي جنة الخلد وجد نفسه محجوبًا في قلعة الجبل لا حول له و لا قوة بين المماليك، فلما سئموه، طووا السجادة من تحته و أخبروه أن «انزل يا باشا» ليهرب طريدًا خشية مصادرة أمواله و تجريسه! لكن صلة قديمة جمعته بالكمانكش (علي) باشا أنقذته و سلكته في حزب الكمانكش طائعًا وفيًا.
و هذا (نصوح) باشا دفع طبنجة ألمانية هدية مع أموال كثيرة إلى الصدر

الأعظم قرة (مصطفى) باشا زمان السلطان (أحمد) ليليَ إحدى الأيلات، إنها طبنجة مذهبة ثمينة يعرفها (داوود) جيداً لأنها تزين دولابه الخاص حين وسّطه قرة (مصطفى) باشا ليتولى منصبًا يستعيد به شيئًا من مجده القديم! طبنجة واحدة لكنها تروي الكثير، تُرى ما هي حكايات السيوف و الخناجر و البنادق الثمينة التي في بيته؟ هل يأتي يوم يردها لأصحابها أم يدفع بها لأصحاب جدد خشية أن يأتي عليه الدور؟ كلا إنه أذكى من الجميع و أفطن منهم. كل منهم خلفه قصة يتندر الجالسون بها في سمرهم إلا هو، فلم يعرفوا عن هوايته السرية شيئًا أو عن ذهابه إلى تكية البكتاشية المهجورة. ستكون مصيبة لو عرف أحد بما يفعل، ربما يغضب النصارى و يثورون فيكون فداء التهدئة. هز رأسه في عنف ثم سكن خشية أن تتطاير خاطراته إلى من حوله، و أعاد سمعه للسلطان و هو يتحدث. ثمة شيء في حديث السلطان لا يريحه؛ إنه يريد إرسال أكبر عدد من الإنكشارية لمواجهة العجم بإصرار غريب رغم أنهم ليسوا أكثر فرق الجيش عدداً. أيريد نصراً سريعًا أم يريد إثبات عجزه كأغا للإنكشارية فيكون (داوود) رأسًا ينضم إلى حشد الرؤوس التي طارت في عهد السلطان مؤخراً؟ ليته يعرف نيته. و(كوسم) هذه التي لم تعد ترسل له هذه الأيام لا تريحه كذلك. هل رضيت بالمال والجواهر وحياة أبنائها فتركته وحيداً في لعبة الموت؟ كلا، هذه ليست (كوسم). بالرغم من أنه لم يرها، لكنه من تدبيرها يؤمن دائما أنها لن تتخلى عن أطماعها، لن تتخلى عن لقب السلطانة الذي تزين به رسائلها،

إنها كالجني المسخّر، لكنها جني يأخذ أمام أمنيته آلاف الأمنيات. عليه أن يلعب على حبال كثيرة ليبقى في مكانه ويرتقي. أحزاب كثيرة يجب أن يوازن بينها، بعضها أحزاب باشوات أو أورطات كاملة أو جوار و أغوات.

لو اطلع أحد على قانون الفاتح الذي حدد دور كل منهم على حقيقته لضحك ملء فيه!

حسنًا، سيوفر كل شيء لغريمه (خليل) باشا و يدرب الجند بقسوة قبل الحملة ليثبت كفاءته و يعتبرها حزب (خليل) باشا منة و فضلاً، فليحاربوا إذن و يحصلوا على العطية! و لير ما هي حجة السلطان القادمة.

●●●

[١٠]

همهم والي أرضروم (أباظة) باشا- بطريقة لا توحي بالارتياح: «لقد وصلت العساكر المحمدية».

قام من مجلسه بعد انصراف رسول الصدر الأعظم (خليل) باشا وصعد بتؤدة إلى علية قلعته الرومية الأصل ليلقي نظرة طويلة على طلائع الإنكشارية. في ظروف أخرى كان ليفرح بقدوم الجيش الذي سيطرد العجم، لكن همه زاد كلما اخترقت البوابات أورطة تلو أخرى على وقع قرع الطبول ونفخ المزامير. لقد أرسل السلطان جيشًا كثيفًا لا يتحرك إلا كقطعة واحدة مما يحكم على أية مدينة ينزل بها بالجوع والهلاك. استغرب ضخامة هذا العدد لمقاتلة جيش لم يستخدم البنادق الإنكليزية إلا من بضع

سنوات. لم يعد يرى جند الإنكشارية جنداً ولم يدقق في بيارقهم وشاراتهم. يرى جيشًا من أجولة القمح وقطعانًا من الأغنام وأكوامًا من التبن لتلك الدواب التي تحمل المدافع والمؤن وصناديق الذخائر. مسح على وجهه بيمناه وفرك عينيه بسبابته وإبهامه ثم ألقى نظرة أخيرة ليدرك كم أخذه التفكير، لقد وصل الصدر الأعظم إلى القلعة، فهرع مسرعًا إلى أسفل للقائه.

- مرحبًا يا خليل باشا، حمداً لله أنكم وصلتم سالمين إلى أرضروم.

- مرحبًا.

رد (خليل) باشا بفتور مصافحًا مضيفه ببرود ثم قال:

سأبيت مع القادة هنا في قلعتك، والجند سيقيمون معسكرهم في الضواحي. أريد أن يصلهم الطعام اللازم والعلف الكافي لدوابهم.

- لكن يا باشا أنت تعلم أننا في الشرق معرضون للجفاف وموسم الزراعة هذا العام..

- هذا ليس من شأني، إنها الحرب يا أباظة باشا. إذا كنت لا تريد أن تجلب المطلوب من المخازن والحوانيت أمرت جنودي بذلك.

هز الوالي رأسه نافيًا في استسلام وابتلع باقي عبارته. ستحدث الأزمة والشرق لم يرتح بعد من ثورات القزلباش وعصيان الجنود الآبقين. عليه إذن أن يجلد ويضرب ويكسر، فالفارق الوحيد الآن بين أرضروم وأردبيل المنهوبة أن البطون الضامرة ستحتفظ بالرؤوس الشاحبة فوقها، لا أكثر ولا أقل.

***

أردبيل مرة أخرى، أو أرتافيل البقعة المقدسة عند الزرادشتية. ملأ (حيدر) -قائد جيش الصفويين- عينيه المتسعتين منها وهو يشرب من ينابيع مياهها المعدنية الصافية. إنه الخريف ببهائه. رأى الأشجار قد احمرت أوراقها كجذوات نار خافتة والأوراق الجافة تناثرت على الصخور. رمق بركانها الخامد، ثم نظر إلى جبال سبلان المتاخمة لأردبيل. في هذه الجبال كتب (زرادشت) النبي الفارسي مما أوحى الله إليه في كتابه المقدس الأوستا، وظهر فيها الشيخ الأردبيلي ليصل صيته إلى الآفاق. لقد عاد الصفويون مرة أخرى إلى مهد دعوتهم ليبنوا للشيخ عتبة مقدسة كعتبات آل البيت في العراق، وليس ذلك بقليل على سليل الإمام (موسى) الكاظم عليه السلام، لا تركي مجهول كما يقول العثمانيون الناصبة. جاءت فرصته الآن، فبعد أن يستقر لهم حكم أردبيل سيبني العتبة بناءً شاهقًا ينال به الحظوة عند الشاه (عباس) أكثر من تلك التي حازها لانتصاراته على الأوزبك في الشرق، إن النصر على بني (عثمان) له وضع آخر. يجب عليه أن يفعل هذا وإلا رأى الشاه (عباس) أنه غير ذي جدوى، فذلك الشاه المتشكك لا يؤمَن جانبه. إنه يشك حتى في أولاده وربما يقتلهم، فمالذي يجعله يرحم قائدًا عنده إذا لم ير له نفعًا؟

يجدر بـ(حيدر) أن يفعل المزيد ليحمس جنده للقتال وتحمل مشاق الحرب في أردبيل، ويزيل عنهم خوف العثمانيين ويقوي فيهم تلك العقيدة التي لولاها لصار الفرس تحت رحمة الأتراك والأوزبك والهنود، لم يكن المذهب الشافعي ليحميهم من كل هؤلاء المتربصين، وحده التشيع الإمامي جعل فارس صخرة تثلم فؤوس الجميع، منذ رأى الشاه (إسماعيل)، مؤسس

الدولة، الإمام المهدي في كهف مهجور يرخص له بنيابته، نحى شيعة أهل البيت التقية جانبًا وشيدوا دولة باذخة حتى يأتي أوان خروج المهدي.

***

«خرد شهر إيزد لابد أن يظهر في آخر الزمان وينشر العدل في العالم»

شابورهجان: إحدى كتب المانوية[١]

***

«سوشيانت المنقذ العظيم وسيلة علاج جميع الآلام، به يقتلع جذور الألم والعجز والمرض والظلم والكفر، يهلك ويسقط كل الرجال الأنجاس»

من كتب الزرادشتية[٢]

*** ٥

إن الإمام المهدي ليس كـ(سوشيانت) مهدي زرادشت الذي لم يولد بعد، إنه بينهم، اختفى لسبب في علم الله وحكمته، ليعود للظهور مرة أخرى. ربما يكون في تبريز أو النجف أو حتى في جيشه هذا في أردبيل!

- رسالة من عظمة الشاه يا سيدي القائد.

رنا (حيدر) بلهفة إلى الرسول. إن العثمانيين ذاهبون إلى حاضرتهم تبريز! ثم تضاعف قلق (حيدر) وحيرته لما أنهى الرسالة، فالتهديد الذي

---

(١)، (٢) ديانات فارسية قديمة.

يريده الشاه أن يرسله لجيش العثمانيين كفيل بتغيير سير المعركة ونهاية الأحلام التي داعبته منذ قليل.

***

- قائد جيش الفرس في أردبيل يهدد بقتل جميع سكانها وإحراقها عن بكرة أبيها.

صاح (خليل) باشا في غيظ وتبع كلامه همهمات قادة الجيش يستنزلون اللعنات. لم يكن تقدمهم في الأناضول سهلاً؛ بسبب تلكؤ السباهية في الخروج من إقطاعاتهم، وقلة المؤن وإحراق العجم الملاعين كل أرض يفرون منها، ثم تمرد هؤلاء الفلاحين الآن. رفع (خليل) باشا رأسه كأنما تذكرهم وقال مخاطبًا القادة وقاضي العسكر ببلاغته المعهودة: «إن العالم المسيحي يتربص بنا وإن كان مختفيًا فهو يتطلع إلينا من ثقب الباب لينقض علينا إذا ما تغافلنا عنه. من المؤسف أن نتفرق الآن فرقًا ومذاهب في هذا الوقت الحرج، فنرى بعض الفلاحين يتحصنون بذهبهم ومتاعهم ليعلنوا العصيان لمساعدة الروافض الكافرين، إننا لن نستطيع أن نحارب عدونا قبل أن نخضع هؤلاء العصاة».

همهم القادة وهزوا رؤوسهم بشدة علامة الموافقة. أما قاضي العسكر فخاف أن يقول ما في نفسه، فليس كل من ثاروا من أتباع الرافضة، لكن كما قال (خليل) باشا: إن الأمة لا يجب أن تتفرق شيعًا وأحزابًا فكيف بخيمة قائد الجيش؟

- الحق كما تقول يا خليل باشا .

قال الكمانكش (علي) باشا آسفًا : «إن هذا الشاه جمع قومه وسألهم كيف يجذب الناس إليه ويأتلفهم ، فأشاروا عليه أن يفعل مثل سلاطيننا من السير بالعدل في الرعية ورعاية مال اليتيم وألا يجمع أموال الناس ظلمًا ، فتمارى بها ذلك الملعون عديم الدين ساقط الهمة» .

همهم القادة تأييدًا للمرة الثانية ثم انصرفوا بعدها كل إلى جنده استعدادًا لمعركة ضد الفلاحين وأخرى ضد العجم .

***

- . . من أجل كل هذا يا شيخي ، أريدك أن تزوجني ابنتك .

كان يعلم أن الخوجة ينتظرها منه منذ وقت طويل ، لكن رغم هذا تجاهل اندهاش الخوجة المصطنع . أظهر البشر والحبور لموافقة شيخه المتوقعة وقبّل رأسه . أخيرًا آن لك أن تسكن إلى فتاة يا (عثمان) ، صحيح أنه لم يرها لكن سيرة جمالها تكفيه . ساد الصمت بينهما فقضى (عثمان) ساعة من الخيالات اللذيذة حجبتها رأسه حياء أن تبلغ الخوجة ! لكن لم يُقدَّر لتلك اللحظات اللذيذة أن تستمر كالعادة فسرعان ما وصلت للسلطان رسالة جديدة .

هؤلاء الحمقى ! لم يؤلوا جهدًا في أن يوغروا صدر السلطان عليهم . هذه رسالة (أباظة) باشا الشاكية تلقي مزيدًا من الحطب في غضب السلطان المتعجل للنصر . إنهم يصيبون كل قرية ينزلون بها بالفاقة ويأكلون كأنه آخر زاد لهم . فقط جملة وحيدة من بين الرسالة استرعت انتباه الخوجة (عمر)

فتعجب كيف لم ينتبه لهذا الأمر، فأشار إلى الجملة بانتصار لينظر له السلطان في عدم فهم، فأخبره الخوجة باقتراحه العجيب، أخيراً سينتهي عصر العبيد ويعود الغزاة من جديد.

***

عقد خليل باشا ساعديه على صدره محاولاً ضم فرو السمور على جسده دون أن يلحظ رجاله ارتجافه من البرد. تمنى (خليل) باشا أن ينتهي من العجم في أذربيجان، لكنهم تراجعوا مدمرين كل شيء وارءهم ليلحقوا بإخوانهم في أردبيل. إن سمعته ومكانته متوقفة على هذا النصر، قادة وصدور عظام كثيرون دفعوا حياتهم ثمنًا لفشلهم في المعارك التي خاضوها. هاهي أردبيل تلوح من بعيد.. تنتظر أسوارها حصاراً طويلاً، أكان يجب على الكمانكش أن يتأخر بجيشه إلى هذا الحد؟

إنه يثق بالكمانكش ويعلم جيداً أنه لن يخذله ليس فقط للصداقة بينهما؛ فالكمانكش لا يفكر وقت الحرب إلا بالنصر فحسب.

لاحت من بعيد سرية من الصفويين، هل قرروا الخروج لمعركة فاصلة؟

- لقد جئنا إلى هذه الأرض لمحاربة هؤلاء الرافضة المخالفين للشريعة الأحمدية.

صاح (خليل) باشا في جنوده الذين سال لعابهم لمرأى فرائسهم، غير أنهم سرعان ما عثروا على السراب فتلفتوا يمنة ويسرة لم يروا أحدًا حتى انشقت الأرض فجأة وخرجت الفرائس... لكن بأنياب.

- إنني لا أخشى عليكم من الحرب، فقد جاء الآن اثنا عشر إمامًا مع جنودهم ونصبوا بيرق النصر، إنهم الآن معنا . .

هتاف القائد (حيدر) صارع أصوات البارود والسيوف وأكمل بأعلى صوته: «يقولون إننا رافضة. نعم، نحن رافضة ؛ رافضة للظلم، لأعداء آل البيت».

-اللهم عجل فرجهم والعن عدوهم .

-يالثارات الحسين! .

صيحات أخرى جاوبت القائد الذي طفق يدور بجواده بين رجاله وغذّى عينيه بمرأى انهزام العثمانيين وفرارهم من فخه، طار فرسانهم على جيادهم تسابق سيقان رجالتهم، بينما الباشبولو كباشي قائد الخيالة الإنكشارية واقف مع فرسانه الأشداء معرقلاً حركة الصفويين حتى انسحب باقي جيش (خليل) باشا ثم جاء الدور على هؤلاء الفرسان الشجعان ليهربوا. ظن القائد (حيدر) أنهم يهربون خوفًا من سيوفه كإخوانهم، وحين تابعهم بتقدمه السريع وجد أنه كان مخطئًا، لقد هرب الخيالة الإنكشارية لكن ليس من سيوفه . .

صافرة طويلة صمّت الآذان حملت سبب الفرار . .

عشرات القذائف المدفعية انهالت على الفرس ومن لم يستطع الفرار من العثمانيين في الوقت المناسب.

-كدنا نهلك .

نطقها (خليل) باشا في هدوء عجيب لا يتناسب مع الموقف بعد أن وصل إلى جوار (علي) باشا الذي عقَّب بازدراء: الحمقى! لا يجيدون استخدام المدافع إلا في حصار المدن، والآن يهرعون إلينا كي نسكت مدافعنا فلا نقتل رجالنا ورجالهم. محض سذاجة!.

- لو كان لهذا الفارس حظًا من الذكاء كفصاحته لكنا في عداد الأموات.

-لا تلق بالأ يا باشا، لديهم ما يكفي من المفاجآت في هذه المعركة فيبدو أن الإنكليز لم يدربوهم بما يكفي على استخدام البنادق والمدافع.

صمتت المدافع عندما اقترب الأعداء، الآن حان وقت الرَجّالة. مد (خليل) باشا عنقه من فوق جواده ليرى صفوف رماة البنادق الإنكشارية التسعة. اشتعل فتيل بنادق الصف الأول دفعة واحدة فانطلقت قذائفها حاصدة بعض فرسان الصفويين. تراجع الصف الأول بعدئذ ليتقدم الذي يليه ثم الذي يليه حتى قال (علي) باشا في جذل: «والآن حان وقت السيوف كما يريدون».

ثم امتشق سيفه من قرابه وفعل(خليل) باشا مثله وهو يقول في سخرية: «نعم، يجب أن نهنئهم على سلامة الوصول بعد عدو طويل».

... وتصافحت السيوف.

●●●

[١١]

- لم لَمْ تفعل ما أشرت عليك به، أم أن الصدر الأعظم منعك؟.

- لا أحد يستطيع منعي من شيء أريده.

قالها السلطان بحدة للخوجة (عمر)، ثم استدرك في لين مهدئًا الموقف مع شيخه: «كل ما في الأمر أن الحرب دائرة وأنا لم أتأكد بعد أن الإنكشارية لا نفع لهم. لا تنس أنهم أصحاب أمجاد أجدادي. ثم قل لي، هل ستكون عابسًا هكذا يوم تزوجني ابنتك؟».

-هل أخذت إذن أصحاب الأمجاد في هذا؟.

عاد السلطان لغضبه من جديد وقال: «قلت لك لا رأي لأحد سواي

وسترى ما الذي سأفعله بهم في الديوان إذا أخفقوا». قام السلطان علامة نهاية النقاش ثم قام يخطر إلى كشك من أكشاك الحديقة، لكن سرعان ما استدار وقال في خفوت: «فقط لا تخبر أحدًا بمشورتك».

ثم تنحنح وأردف: «دعني أحدث بها الصدر الأعظم في الوقت المناسب».

قال ذلك وهو يعلم جيدًا أنه لن يفعل، فطلب شيخه يفتح كل أبواب الفتنة.

***

عرق وسقوط، تصلب وانقباض، تشنج ثم تضيء الدنيا بعدها رويدًا رويدًا.

عامان مرا على (مصطفى) غازي. خاض الكثير من المعارك منتصرًا على جنود بيزنطة. عاش أعزبًا ككثير من الآخيان يقيم الليل ويغزو صائمًا بالنهار. عامان لمع فيهما اسمه وعلا نجمه حتى شبهه الكثيرون بالغزاة الأوائل (بطّال) غازي ودانشمند (أحمد) غازي؛ كبار غزاة الأناضول فيما مضى.

اليوم معركة مختلفة؛ لن يقتصر الغزو على شن غارات على أطراف نيقوميديا، بل سيتجه الغزاة هذه المرة إلى قره جه حصار لينتزعوها من أيدي الروم. جلب سيفه ذا الحدين ودرقه، وحمل راية الآخيان المخصوصة، ثم ركب فرسه وكبّر تكبيرًا جاوبته تكبيرات أخرى تشبه في انتظامها أزيز النحل أو تلاوة الجماعة للقرآن. ألفا رجل اخترقوا السهول والجبال في صمت، وجاوبهم سلاحهم في ذلك فلم تصدر عنه سوى طقطقة خافتة. لم يشعر

(مصطفى) غازي بالحر ولا بالغبار. لم ينتبه إلا حين رأى دروع رجّالة أعدائه تلمع في ضوء الشمس. قدحت حوافر خيول الغزاة الصخور بالشرر وأثارت الغبار الكثيف حولها قبل أن تتوسط براكبيها الأعداء واصطف المشاة بسرعة على وقع الطبول.

تستفتح قتالك كما اعتدت دومًا يا شيخ الحدادين؛ يضبر فرسك عاليًا يطير في السماء ثم تحط به على أعدائك كالصقر مهشمًا من ألقاه حظه العاثر تحت حوافر جوادك، ترمي بجسدك للخلف حتى يستوي ظهرك على ظهر حصانك الأسود ثم تنزلق بخفة دائرًا حول نفسك لتسقط بين أعدائك حاملاً سيفك ذا الحدين في يمينك والدرق بيسراك يحميك من رماة عدوك.

***

«سأذلل نفسي أولاً بهذه الإرزبة ثم أذلل جميع الأعداء بعد ذلك»

***

يهوي أحدهم عليك بسيفه فتنشبه بين حدي سيفك ثم تهوي على رأسه بالدرق تهشمه. تطوف بسيفك ماسحا الأيدي والأعناق. لا تسمع شيئًا في عقلك إلا وصايا الآخيان الكبار وعظاتهم...

- إن السيف الهندي إذا أعطيته لفاسق، سيبيعه بقنينة خمر، أو رجاء حمرة الخد أو سمرته، فما أثلم السيف إن لم يقبض عليه القلب قبل الكف.

تنهمر السهام عليك فتكسر أعوادها تاركًا نصالها في عروقك. تصرع الجندي الذي ركب جوادك أثناء ترجلك، ويطيح ذراعك بآخر حاول

منعك. تستعيد رايتك المثبتة في سرج الجواد. لا تشعر بالدماء التي تنزف منك، إنها ورود (إبراهيم) الحمراء، سلسلة من شقائق النعمان[1] تزين بأوراقها جسدك، تأخذ الراية وتعدو بها يحيط بك غزاة الآخيان من كل جانب والرماة يحمون ظهرك ثم تعود لتلتحم بباقي الجيش مرة أخرى. يتراجع الجيش مرة واحدة كالهلال ثم يندفع بسرعة كرأس سهم يراهم الطائر كرات بيضاء يكرون ويفرون مع كل دقة طبل..

هلال.. رأس سهم.. هلال.. رأس سهم مندفع هذه المرة يشق صفوف الأعداء الحديدية.

ها هو قائدهم الرومي أمامك، ترفع سيفك في مواجهته وتهوي على سيفه ليتطاير الشرر، ضربة وضربة، تنظر في عينيه فلا ترى سوى الخواء.

انظر إلى قلب عدوك فإن لم تر إلا السواد وفي عينيه الخواء وبيديه سيف يروم الطعنة النجلاء، فقد أعذرك إلى ربك وأباح إليك دمه، فاقتل أيها الغازي عدو الله

حملة منك على درعه فينكسر سيفك الذي أُنهكت ذراته من شدة الضربات وتصبح أعزل أمام خصمك.

إن الغلبة ليست بكثرة الأجناد ووفرة العتاد بل بنور الحق ونية الصدق، حينها يصير درع خصمك حافظًا وسيفه في يمينك ماضيًا ذلك لأنه سل مغمده من أجل الطاغوت.

---

(١) زهرة حمراء.

من لغيـر الله سل المغـمـدا　　　　في صدره السيف قد أغمدا[1]

تثب جانبًا لتتفادى ضربة الرومي الأعور ثم تثب كالبرق في قوس لتصبح خلفه، حينها تقبض على يديه بيمينك وتجثيه على ركبتيه ويسراك ممسكة بناصية ثم تغمد سيف الكفر في صدر صاحبه.

-نحن قوم نشرب خمر الإمام صافية بإحدى اليدين

ونمسك بناصيـة الكافـر بثـانيـة الكفين[2]

يخرج الدم الثخين من صدر القائد الرومي صدئًا، وتوقفت الدنيا فجأة ثم دارت حولك. ترجع البصر كرة أخرى فتسمع التكبير من هنا وهناك لتعود المعركة أقوى وأشد.

تجري بكل قوة لتثب فوق الترس الذي يحمله إخوانك على أسنة رماحهم، تشعر بسواعدهم ترفعك نحو السور. تنقض على رماة العدو تشتتهم بسيف الرومي القتيل ثم تثب داخل المدينة ويندفع خلفك الباقون. تسقط على الأرض حين ترى بوابة المدينة تُحطم وبيرق (عثمان) غازي يصل وسطها. ساعتها فحسب تغيب عيناك عن الرؤية لترى بعدها بعينين زائغتين سقفًا مزخرفًا.. سقف قفصك سقف قفصك.

❊❊❊

---

(١) بيت من الشعر لمحمد إقبال - ديوان الأسرار والرموز.

(٢) بيت شعر منسوب لجلال الدين الرومي- بتصرف.

زينة الجدران. عندما تتداخل الزخارف النباتية الخضراء مع أخواتها الحمراء والزرقاء لتصنع لوحة عجيبة من الجمال العثماني ويتسلق خط الثُلث الجدران في رشاقة متفرعًا آيات من القرآن الكريم وأسماء النبي والصحابة.

رغم روعة المكان، لم يخفف من توتر السلطان (عثمان) الثاني الذي ظل يعبث بأظفاره المقضومة في أسلاك الذهب التي طرزت قماش أريكة الديوان الحمراء. (حسين) باشا الوزير الثاني وقائم مقام الصدر الأعظم لم يجرؤ على قطع الصمت وإن لم يخف سعادته البالغة بفشل غريمه (خليل) باشا ورأى أن الفرصة جاءت ليتقلد الصدارة. قطع السلطان أحلام الباشا فجاة وصاح في وزرائه: «ألم أقل لكم إن الإنكشارية لم تعد تعرف سوى طلب المال؟ عامان لم أخرج على مشورتكم فهادنت القاصي والداني حتى إذا ما أردنا النزال سحقنا بلا رحمة فماذا كانت النتيجة؟ شهر مضى ولم يصلنا خبر النصر من (خليل) باشا. أقسم بالله لو لم يأتني خبر النصر بعد كل هذا الانتظار لأقطعن رؤوس الإنكشارية ولأحشون بها قازاناتهم[1] التي لا يفتؤون يقلبونها تذمرًا في ميدان الخيل».

حاول (حسين) باشا تهدئة سلطانه خشية بلوغ كلماته الغاضبة لـ(داوود) باشا فتزيد الوحشة بين السلطان وأغا الإنكشارية، فيرتكب أحدهما حماقة لا يُؤمن عقباها. لكن السلطان لم يهدأ وظل يصيح ويتوعد ويضرب

(١) القدور التي يُصنع فيها طعام الإنكشارية.

الأرض برجليه. هذا ما كان يخشاه جميع الوزراء؛ أن يأتي اليوم الذي يرى فيه السلطان أنه لا يحتاج مشورة أحد، ويشعر بقوته، ويتصور أنه بكلمة منه تتغير الأمور، تُمحى أحزاب ومصالح متجذرة من عشرات السنين. إن (حسين) باشا كان من الإنكشارية ويعرفهم جيدًا ويخشى على مكانته وعلى سلطانه منهم. الدولة عانت كثيرًا وفي أمس الحاجة للاستقرار، غير أن هذا بعيد المنال. عجبًا لمن يغبطه على الوزارة الثانية! زفر زفرة حارة وطرد عنه أفكاره ثم انتبه حين رأى الباش جاووش يدخل ويقول بعد التحيات المعتادة: «خليل باشا يرسل التحايا لذاتكم الشاهانية ويخبركم يا مولاي البادشاه أن العجم تشتتوا وهُزموا شر هزيمة في أردبيل وشاههم يطلب الصلح. إن خليل باشا ينتظر أمركم».

علت أمارات البشر والسرور على كل من في الديوان حتى السلطان نفسه. أراد أن يقفز ويصيح في سعادة ويرقص دائرًا حول نفسه. سرعان ما شعر بثقل العمامة الشاهانية على رأسه مذكرة إياه بوقاره السلطاني فاكتفى بابتسامة مقتضبة جاوب بها تهاني الوزراء. أما أغا الإنكشارية فقد علم وهو قابع في قصره أن الصدر الأعظم سيتفق على شروط الصلح، وستغشى الاحتفالات إسلامبول وتنهال العطايا على وجاق الإنكشارية كرهًا أو فرحًا من السلطان ومعلمه إنه يعرف جيدًا الذي يحدث في غيابه وسيلقن كل من نافق السلطان وغض من الإنكشارية درسًا قاسيًا. صحيح أنه في ذروة النشوة يعلم أن جنوده فاجؤوه بهذا الانتصار الساحق قبل أي أحد. غير أن

هذا لا يقلل من نصرهم؛ إنهم لم ينتصروا على العجم فحسب، بل انتصروا كذلك على الفتى السلطان.

***

«إن العقلاء ليعجبون كيف تخضع الأمم لسلطان ركب ظهورها بنسبه دون سابقة فضل أو كفاية، إن هذه الأمم كمثل من عبدوا النار أو عظموا الأطواغ[1]، لم تغب عقولهم عن الرؤوس بل بعُد عنهم هدى الله».

آخيان نامه

●●●

(١) أذناب الخيل، كانت طوطمًا تعبده قبائل الترك أيام وثنيتهم.

[١٢]

- مرحبًا بمولانا الأمير .

صافح الأمير (محمد) الطبيب مبتسمًا على غير المألوف، ثم قطَّب وجهه يطلب وقارًا يحجب حداثة سنه. نفض ببصره ذلك المكان الذي خصصه للطبيب في قصره ؛ قوارير في كل مكان مختلفة الأحجام والأشكال، بعضها عُلق على الإفريز الخشبي للنوافذ، كتب كثيرة رُصت بعناية على بضعة أرفف وحين جلس الأمير على الأريكة المكسوة بالمخمل الأخضر، ميز ذلك الحديث المنسوب للنبي العلم علمان، علم الأديان وعلم الأبدان محفورًا أعلى الجدار وعلى الجدار المقابل نُقش «باسم الله الشافي» .

- ما هي آخر الكتب التي وقعت عليها وأردتني أن أراها؟

أشار الطبيب إلى أول كتاب شارحًا للأمير :

- إنها نسخة قديمة، كتاب شهير «لشرف الدين الصابونجي» يا مولاي ؛ الجراحة الخانية وقد أهداه لمولانا الفاتح رحمه الله وتلك نسخة منه .

قلّب الأمير بشغف في صفحات الكتاب وبهرته تصاويره الملونة لرجال ونساء أطباء، لم يهتم بالمعلومات قدر اهتمامه بقدم النسخة وزينتها، فقلب صفحات الكتاب بحثًا عن مزيد من الصور بفضول طفل كبير .

دس كل من (سليمان) أفندي و(برهان الدين) -ذلك الشيخ الذي أرشد الأمير إلى كتب (الأقحصاري)- رأسيهما مع الأمير ليروا تلك الصفحات بذات الإعجاب .

- هذا كتاب عظيم، سأضمه إلى خزانة كتبي . . .

- تاجر بالباب يريد مقابلتكم يا مولاي .

أشار الأمير (محمد) لحاجبه، الذي جاء فجأة، أن يدخل التاجر فما هي إلا لحظات ومثل تاجر تبدو عليه أورمة الفرنجة بين يدي أمير قيصرية الجديد .

-السلام عليكم يا مولاي

-و عليك السلام يا هذا . ما هي حاجتك؟

-أنا تاجر إفرنجي يا مولاي . . . أُدعى أرتين . جئت يا مولاي من بلاد بعيدة بـ . .

- أقصر يا هذا وقل ما حاجتك.

قالها الأمير بنفاد صبر وهو يضغط بغيظ على كلماته. كان محقًا في غضبه؛ فطوال مكوثه في هذه الإمارة طاف عليه صعاليك الفرنج الذين لم يجدوا مكانة في بلادهم فجربوا حظهم عند آل عثمان، وامتهنوا تجارة الدخان والحريم لينالوا الحظوة عند أهل السلطان، وبلغ حرصهم على القرب من أولي الأمر أن جاء أحدهم يعرض نفسه ليكون خصيًا عند أخيه (عثمان) من قبل!

- دار للكتب يا مولاي... دار للكتب.

همس التاجر الفرنجي كأنه يحسّن جارية في عيني الأمير. اعتدل (محمد) في جلسته ونظر للتاجر أن يكمل، فقال في ظفر: «قد طوت شهرة مولاي الآفاق في الشغف بالعلم والكتب. فقد جئته بكتب من كل أنحاء الدنيا جمعها وكلائي من أقطار كثيرة. كتب فارسية وعربية ولاطينية في التاريخ والحكمة والفلك والطب... كل ذلك لأجل مولاي».

لم تكن فكرة دور الكتب جديدة في الدولة العلية، لكن أنّى للمبضع والاسطرلاب أن ينالا الحظوة وقد وقر عند بني عثمان أن العمامة لا يرفعها إلا سيف مُشهر أو رغبة جارية تؤثر. كم تغيرت الدنيا منذ زمن الفاتح ومن قبله!

فيما مضى كانت للعلوم مكانة أكبر من هذا ولولا بقية من عادات السلاطين والباشوات في وقف أموالهم على دور الطب والمدارس وأعمال

البر لكانت أوقاف العامة وحدها تقوم بهذا الدور، فإذا اضطربت البلاد وعم الغلاء ولم يجد أرباب العلم ما يقيم أودهم، انصرفوا عن العلوم ومنع الناس أولادهم عنها.

رغم هذا لم تكن الدولة العلية في هذا الدرك من الجهالة كما تصورها الأمير الذي خرج من قصره في إسلامبول إلى قصره في قيصرية، لكن الرغبة في الفتح وإن كان بخزانات الكتب حمست الأمير الصغير. بتحفظ تعلمه من كتب الحكمة، كسى وجهه بكساء من الهيبة واللامبالاة ثم صرف التاجر الفرنجي واعداً إياه بالتفكير.

- ماذا ترون؟ .

التفت الأمير سائلاً الشيخ (برهان الدين) معلمه الجديد، فقال: «والله يا مولاي إن هذا لهو عز للإسلام ونصر وذلك عين ما فعله مولانا الفاتح رحمه الله. فالدولة منذ عقود عديدة وهي أسيرة لرغبات الجند وتجبرهم فبعدت الشقة بيننا وبين الكفار في ميادين العلوم. وإني لأشير عليكم يا مولاي أن تعهد للأفندية المتخرجين في المدارس أن يعكفوا على هذه الكتب ويفقهوها».

- نعم الرأي يا شيخي... نعم الرأي. ستكون دار الكتب هذه مُلحقة بمدرسة عظيمة وكبيرة وسأوقف عليها الأموال لتكون أكبر مدرسة في السلطنة كلها.

أما الطبيب، فقد استحسن الأمر كذلك وقال في حماس: «وأنا يا مولاي سأنظر فيما سيأتي به هذا التاجر من كتب في الطب وأدرس ما يصلح منها لطلابي».

أما (سليمان) أفندي- الذي صار دورانه بعيدًا عن الأمير فخسره مريدًا ولم يخسره أخًا أصغر ونديمًا- فقام من مجلسه بامتعاض من الشيخ الذي استأثر بالحديث واستأذن بغضب الأطفال لينصرف على عجل، ثم تركهم الطبيب إذ شعر برغبتهما في الجلوس وحدهما.

-أما اهتدى بعد وترك ما هو فيه من ضلال؟

قالها (برهان الدين) في ضيق.

- أدعو الله له في كل يوم يا شيخي. أنت تعلم كم أحبه وأجله.

- هداه الله يا مولاي وعافاه من تلك الشكوك التي تجتاح نفسه.

- ليس وحده الذي تساوره الشكوك.

- ماذا تعني يا مولاي؟

- كثيرًا ما أسأل نفسي، هل ما أنا فيه الآن يقربني إلى الله أم يبعدني؟ فيما مضى كنت مريدًا زاهدًا في الدنيا فلم أعرف شيئًا مما يدور في الدولة ويجد فيها. لكني الآن خضت في أحوالها حتى كدت أنسى نفسي.

كلما أعود إلى كتبي وأقرأ كتب الوعاظ والوزراء وحكمتها التي جمعت من سيرة الإسكندر وملوك ساسان أجد أن هذا عين المراد، وحين أعود فأقرأ

القرآن وسير الراشدين أجد بونًا شاسعًا بين الرجال والرجال، فيختلط الأمر علي وأشعر أنني في ملكي وملك أجدادي أعصي الله.

-حاشا لله يا مولاي. إنما أنت سليل بني عثمان وابن الغزاة الفاتحين الذين عمروا الدنيا وفتحوا الممالك والبلدان وحفظوا بيضة الدين. ألم يكن مولانا الفاتح هو محقق بشارة النبي بفتح القسطنطينية؟

دع عنك هذه الوساوس يا مولاي، وما عدل الراشدين إلا لقربهم من الوحي وشهودهم المعجزات وكان الرسول بين ظهرانيهم فأين نحن منهم؟ فظهر بعدهم قوم من السفلة والدهماء خرجوا على أمرهم، وأسالوا الدماء أنهارًا بين المسلمين، وتفرقوا كاليهود والنصارى، فلا يجمع كلمتهم إلا المُلك وهو عماد هذا الدين وصلاح أمر المسلمين، فلا يغرنك ما يقوله الخوارج عن المُلك فإنهم غالوا في الأمر. إنما هناك ملك صالح وآخر طالح، فالأول تقوم بهمته عظمة المسلمين وبأبهته وفخامته كرامتهم وهيبتهم أمام الكفار، وبجنده وحرسه نصر الإسلام والذود عن حياضه.

لمعت عينا الأمير غبطةً من كلام شيخه الذي طالما حداه إلى الأمام. أجل، فاليوم هو ولي عهد صاحب إمارة وذو علم وفقه، وفي الغد سلطان عظيم كملوك ساسان وفوق تاج كسرى إبرويز.. عمامة سوداء للنبي.

***

يجري.. تناوشه السهام يمنة ويسرة. يستمر في الجري بخفة فُطر عليها. فجأة وجد ظلاً ضخمًا يحجب السماء فوقه ثم ينقض عليه.

-لقد أحسنت تدريب صقرك جيداً أيها الباش شاهين. لم أكن أعرف أن البيزرة[1] ممتعة إلى هذا الحد.

قال ذلك (حسين) باشا الصدر الأعظم الجديد في سعادة مراقبًا الصقر وقد فتك بالأرنب المسكين. بيد أن السلطان لم يبد سعيداً إلى هذا الحد؛ لقد نجح الصقر فيما فشلت فيه سهامه.

غير أنه ابتسم ابتسامة مقتضبة اعتبرها الباش شاهين مدحًا وثناء عظيمًا فانحنى من فوق جواده أمام السلطان الذي دار بحثًا عن صيد آخر يتبعه موكبه في هذه الغابة.

- مولاي البادشاه... مولاي البادشاه.

استشرف الجميع باهتمام ذلك الجاويش القادم بغتة وقد ناول رسالته إلى السلطان. قرأها بلهفة ثم ناولها للصدر الأعظم الذي التقطها بتوتر وقرأها بعناية ثم قال: «حمداً لله أن إسكندر باشا استطاع أن يخرج بجيشه لهؤلاء البولونيين ورد كيدهم».

-هذا ليس كافيًا... يجب أن نثأر لكرامتنا وأن نلقنهم درسًا ألا يحاولوا مهاجمتنا مرة أخرى.

-مالذي حدث؟

تساءل (داوود) باشا بانتباه هذه المرة بعد أن انتابه السأم من لعب السلطان

(١) هو الصيد باستخدام الطيور الجارحة.

الطفولي وتملق الباشوات من حوله. كاد اسم (إسكندر) يذكره بذلك الألباني الذي مات منذ عقود، لكنه تخلص من أفكاره بسرعة وانتبه.

-صدق حدسنا في خيانة والينا جراتسياني؛ فقد أعلن عصيانه ورفض الحضور إلى إسلامبول وقام بقتل الإنكشارية عنده.

هز (داوود) رأسه وغرق في تفكير عميق يستعيد الأحداث الماضية؛ بدأ الأمر بغارات متبادلة بين التتار من جهة والقازاق من جهة أخرى، ذلك النزاع الأبدي على حدود الدولتين، وجهد كل منهما لكبح جماح هاتين الطائفتين؛ العثمانيون مع التتار، هؤلاء البدو الذين كُتب عليهم أن يجتاحوا العالم كموجة مجنونة سرعان ما انحسرت ليدينوا بدين غالبهم ويحرسوا ثغوره، تمامًا كما فعل أجدادهم مع الرومان فتنصروا وحموا حدودها. كذلك متاعب البولونيين من جهة أخرى مع القازاق، فهؤلاء فرسان مشاغبون يقتاتون على الحرب ويتحينون كل فرصة ليشنوا حربًا يرتزقون منها بمعزل عن حكومتهم التي لا تستطيع أن تعين لهم قائدًا. اعتقد الجميع أن معاهدة بوزا قادرة على تهدئة الأمور لكن الأمر ليس بهذه البساطة. يبدو أن حربًا جديدة على الأبواب.

صمت الجميع على الخيل يفكرون كأجدادهم العثمانيين القدامى. قطع السلطان الصمت وقال: «يجب أن نعود إلى القصر الآن وهناك نرى ما يمكن أن نفعل».

لكن نبرة السلطان لم توحِ أنه يريد التشاور قط.

لقد اتخذ قراره وتقلدت أفكاره سيفًا يعود لذلك الزمن البعيد، زمن الفاتحين.

***

رقص وسماع، تلك عادة ليلة العيد. تجلس يا (مصطفى) غازي بين يدي الشيخ الكرماني مجدداً بعد أن استبد بك الشوق لزيارته. مازال كما هو لم يتغير. لحيته لازالت بيضاء كصوف عمامته. وحيداً يعيش في هذه الدنيا بعد أن قطع على نفسه عهداً ألا يتزوج بعد تلك الجارية التي أحبها قلبه وتغزّل فيها. ماتت مريضة قبل أن يمسها فكانت تلك أول خطوة له على طريق الحقيقة. ترى هل يتذكرها الشيخ في وجده؟

تدور يا غازي والكل يدور حولك على طريقته في السماع، فحين تصفق، تخرج الشهوة من الأيدي وإذا رقصت خرجت من الأرجل.

الفناء عن السوى، فما ثمّ إلا الله، تتذكر الآثام والذنوب، تبكي عليها وتراها قد أكلتها نيران الحق وكلمات تتردد في جوف العقل مع كل رعشة تخفق في الجسد. . أيها المريد. . . لقد وصلت

حينها تتلاشى ذكرى أول صلاة في الفجر تركتها لتنام، أول نظرة أتبعتها بأخرى صوب الجسد الحرام، أول جرعة خمر من قنينة الندماء، وأول بيت شعر ماجن قلته في لحظة السورة وأنت نشوان.

-إن الله ليغفر الذنوب للخاطئين، أما يكفي أن فاتهم جزاء المحسنين!

صوت الشيخ الكرماني الباكي صدع بهذه الكلمات، فخرجت زعقة من حنجرة أحدهم وسقط على الأرض مغشيًا عليه. تركهم الشيخ في تلك الليلة الممطرة الباردة ليذهب إلى قبر حفره لنفسه وعلى ضوء قنديل ذابل يقرأ وردًا حافظ عليه سنين طويلة. وبعد أن هدّ الجميع السهر وفترت أجسادهم عن الحركة، التمسوا صاحبهم المغشي عليه فوجدوه قد سبقهم. تنظر يا (مصطفى) غازي إلى العين التي تجمد حولها دموع الندم وإلى الفم المنفرج من شهادة لم تكتمل. تأخذك رهبة الموقف وتحس بطيف ملك الموت حولك. تخرج في شدة البرد تحت سيل المطر تلتمس جوادك فتراه قد لحق بصاحبك. لكنك تطلب جوادًا آخر من أصحابك وتربطه بالعربة بسرعة وجسدك يكاد يخذلك تحت المطر. تتركهم بسرعة دون أن تبكي الرفيق أو تودع شيخك وسط دهشة إخوانك من الإصرار.

لقد أتاك وارد الحق، ذلك الوارد الذي أتى (خضر) (موسى) من قبل.

أن اذهب إلى حدود الروم وحدك.

إنه أمر سُطر في الكتاب، اذهب هدى الله بك الصواب.

●●●

[١٣]

في هذه الكهـوف عـاش الإنسـان الوحـشي أولى أيامـه حـيث لـم تكن أسماء للجبال ولا لنهر الفستول القريب. ولمّا هزم (كراكوس) ذلك التنين الذي احتل إحدى الكهوف وفرض قربانًا بشريًا على أهلها، حملت تلك المدينة الوليدة- تيمنًا به- اسم كراكوفيا.

ثم تتابعت خطوات الزمان على أرض كراكوفيا، من وثنية إلى مسيحية وحين قُـتل المبـشـر (أدالبـرت) على يد البروسـيين و طُوّب قـديسًـا، حج الإمبراطور الجرماني (أوتو) الثالث إلى قبره و توّج الأمير (بولس لاز) بتاج من ذهب لتولد مملكة بولونيا، وهكذا صارت بولونيا هبة بركات القديسين التي تجعل النبيذ و الخبز دم المسيح ولحمه والعشور كنوزًا و الإمارة مملكة!

تزاحمت على أرض بولونيا بركات قديسين كثر؛ كاثوليكية و أرثوذكسية وبروتستانتية. أما الأولى فهي الأصل و ببركات أول قديس مات فيها ظهرت مملكة بولونيا للحياة. والثانية كالمد و الجزر مع الموسكوفيين و قد انحسرت في دوقية ليتوانيا. وحدها الثالثة مصدر الخطر.

حين خرج (مارتن لوثر) بمذهبه الجديد، لم يشغل ملوك أوربة بالهم بالناسوت و اللاهوت، بل شُغلوا بأمور أخرى؛ إباحة زواج القسس والترتيل بغير اللاتينية، وفوق كل هذا حبس العشور عن روما ورياسة الملوك لكنائس ممالكهم بدلاً من الحبر الأعظم. أسرار مقدسة جديدة أضافتها البروتستانتية و آمن بها الملوك الذين راموا كسر طوق روما، وزينوا بذلك المذهب تيجانهم وختموا به ذهبهم آملين في الخلاص... خلاص ممالكهم. في البداية كان الثراء من الأمور التي يرضى عنها الرب، أما عند بعضهم فقد أصبح الثراء هو الأمر الذي يرضي الرب، ثم تعددت الكنائس وانشق بعضها عن بعض و بينما فرق الثالوث بين البروتستانت والكاثوليك، جمعتهم محاكم التفتيش التي تساوى فيها إيمانهم!

لكل هذا بدا أن الغلبة في كثير من الممالك -و منها بولونيا- للبروتستانت، لكن هجمة جاءت على قدر وكان لليسوعيين الكاثوليكيين الكرة على كل تلك الممالك..

انتشرت تعاليم (إغناطيوس لويولا)؛ الفارس الإسباني الذي حوله طرفه المبتور في إحدى المعارك من فارس شاب قد يخوض المهالك

لأجل منديل مخرم من حسناء نبيلة إلى قس زاهد نذر نفسه بعد رؤيا رآها لخدمة (يسوع). أراد التبشير في أورشليم، لكن حالت الظروف دون ذلك، فوجّه أتباعه إلى أوروبة يرفعون راية العودة للكاثوليكية بعد زلزال (لوثر).

اختلط اليسوعيون بالناس، بنوا المدارس و بشروا بين من لم تصله دعوة المسيح بعد، اتصلوا بالملوك و رجال البلاط في كل مملكة حطوا رحالهم فيها.

بكتاب الرياضات الروحية الذي كتبه (لويولا) أدرّوا الدموع من عيون العامة و حلّقوا بهم في آفاق السماوات..

يجب على مريدهم أن يتذكر الخطيئة الأولى؛ خطيئة الملائكة التي أرسلتهم من الفردوس إلى الجحيم لأنهم رفضوا طاعة الرب إلههم و رفضوا السجود لآدم.

ثم يستحضر الخطيئة الثانية؛ خطيئة (آدم) و (حواء) التي خُلقت من ضلعه، أبوي البشرية الأولين اللذين أكلا من الشجرة المحرمة خلافًا لأمر الرب فأخرجهما من الجنة و عاشا في شقاء.

ثم تلك الخطايا التي ارتكبها آخرون فهوت بهم في الجحيم وهي أقل من خطاياه، فيشعر المريد في قلبه بالعار.. كيف يرتكب الآثام ويعصي الرب خالقه؟

يسير مع المسيح له المجد في طريقه إلى الصليب. ينظر كيف تجسَّد الرب من الحياة الأبدية إلى حياتنا الفانية ليموت من أجل خطاياه.

يشعر بكل دَقة مسمار في ساعدي المسيح على الصليب ويفكر ماذا فعل وماذا يفعل لأجل المسيح؟ ماذا يجب أن يفعل للمسيح؟

هاهي جنازة نبيل بروتستانتي تخترق شوارع كراكوفيا مصحوبة بالتراتيل والعويل في طريقها إلى الكنيسة.

فقط بضع طلقات طائشة في الهواء و رعاع بعصيهم وسيوفهم يلحقون بالنبيل المزيد من الأموات.

صرخ نبيل بروتستانتي آخر: «إنهم اليسوعيون! وجرى لينجو بحياته».

كان يعرف أن اليسوعيين كثيراً ما يهاجمون كنائس البروتستانت وجنائزهم، رغم ذلك آمل أن تطمينات الملك (سيجموند) الثالث ستهدئ الأمور وتحفظ وحدة البلاد، لكن يبدو أن بعد موت (زامويسكي) آخر النبلاء العقلاء خضع الملك تماماً لليسوعيين فكشّروا عن أنيابهم.

لليسوعيين إذن أن يفكروا في خطاياهم و صلب المسيح، و يتباكى من رأى منهم سقف كنيسة سكستين التي سطر (مايكل أنجلو) كوميديا (دانتي) على سقفها بالإزميل تصور قصة الخلق و هبوط آدم إلى الأرض بعد الخطيئة. أما سيوفهم، فعلى قبضتها أن تكون في روما وسنها في أي مكان يوجهها إليه الحبر الأعظم، فليقتلوا أعداءهم جميعاً حتى بالشبهة و الرب يعرف عباده الصالحين!

***

- بشرى النصر يا مولاي البادشاه، لقد انتصرنا على جنود بولونيا وعلى

الخائن جراتسياني، وقد أرسل إسكندر باشا برأس زولكفسكي قائد البولونيين على رمح مع الغنائم و الأسرى.

وقف السلطان (عثمان) فرحًا في ظفر والسعادة تعلو وجهه. انتبه أنه بعد في الديوان، فتنحنح ثم جلس مكانه ونظر للصدر الأعظم أن يكمل كلامه فقال: «لقد وجهنا قوات إسكندر باشا للقاء البولونيين وشجعنا (جبرائيل بثلن) الترنسفالي على معاونتنا لما رأيناه قد حنق على بولونيا لمساعدتها أعدائه من الهابسبرج، وراسلنا فرسان البغدان ليكونوا على طاعتنا وقد ساءهم ميل (جراتسياني) للبولونيين وتسليمه البلاد لهم، وتركه فرسان المجانتلار والبولونيين يعيثون فسادًا في القرى، فكان نصرنا المؤزر يا مولاي و حسبنا أن تقر عينكم الشريفة بالنصر. . . .».

- ألا تكف عن التباهي يا باشا.

غمغم السلطان بملل ثم شرد في آمال وطموحات جديدة. .

كلام كثير و ديباجات متملقة تزاحمت على السلطان و توزع الثناء على الجيش حسب الولاء؛ فمن أثنوا على (إسكندر) باشا كانوا خصومًا للصدر الأعظم الجديد (حسين) باشا يريدون أن يعرّضوا به عند السلطان، ويتهمونه بالتقصير لأنه لم يخرج بنفسه. أما أنصار الصدر الأعظم فينسبون الفضل الأكبر بالنصر لتوجيهاته و إقناعه لـ(جبرائيل بثلن) الملك النصراني أن يشارك في الحملة. كل يريد نصيبه من احتفالات النصر التي عادة ما تقترن بذهب يُنثر و مناصب تُمنح وأخرى تُنزع.

-لم يحن الوقت بعد للاحتفال. لقد قررت أن أغزو بولونيا في عقر دارها، فقد مضى العهد الذي نُغزى فيه.

وجم الباشوات و نظر بعضهم لبعض في قلق بينما الخوجة (عمر) يكاد يعض أنامله من الغيظ على الحال التي آل إليها حلمه و أمله. أيصير (عثمان) سلطانًا كالآخرين؟ هل أخطأ حين قصر من حلم الآخيان على الفتوحات و القوة؟

لا بأس قريبًا سيعرف (عثمان) أن جنده لا يصلحون للجهاد و سيستمع إلى كلامه و خطته. أما الآن فلا فائدة من إيغار صدره عليهم و هو منتش بالنصر، فيفقد حظوته عنده و ينجح أحد هؤلاء المتملقين في إزاحته من مكانته التي يحسدونه عليها. فلينتظر و يتربص الدوائر بهؤلاء العبيد.

- مولاي البادشاه، إن هذه الحرب غير مأمونة و قد تستمر شهوراً فيحل الشتاء علينا و يدركنا الهلاك و نحن بحاجة إلى أموال وفيرة و ذخائر كافية.

نظر السلطان في غضب إلى أغا الإنكشارية الذي قال كلماته بهدوء، لكن الصدر الأعظم ظن في هذه الكلمات نيلاً من مقدرته في الحرب فقال في غضب: «من قال هذا أيها الأغا؟ إنني أستطيع أن أحرز النصر في أي وقت. يبدو أن إنكشاريتك يخشون الحرب لا الشتاء. وإذا كنا نتحدث عن المال والذخائر، فإن أموالي هي أول أموال توضع في خدمة الحملة إذا لم يكف مال الخزانة».

همهمات موافقة مسرعة تجاوبت مع الصدر الأعظم من الباشوات، فنظر السلطان إلى أغا الإنكشارية نظرة تقريع ارتاح لها الصدر الأعظم. شعر الأغا بالغيظ وودَّ لو أدب هذا الصبي المدلل الذي يظن الحرب لعبة. ودَّ لو يضربه بالعصا على قدميه كما يؤدب الصبيان وازداد شعوره بسخف ما آلت إليه الأمور حين قال السلطان: «لكن لن تذهب وحدك إلى المعركة يا حسين باشا. سأذهب أنا معكم وأقودكم إلى النصر».

أتم السلطان كلمته و هو ينظر إلى شيخه كأنه يقول له: «ألا تراني وقد أصبحت غازيًا فاتحًا».

لكن شيخه عنى غازيًا غير الغازي و فاتحًا غير الفاتح، فهاهو السلطان سيخرج للجهاد بيد ممسكة بالسيف و يد ممسكة بسلاسل المطامع والأهواء تجر عبيدًا سيدهم الشهوة و نخاسهم الشيطان.

***

تسير بك العربة يا (مصطفى) غازي يجرها جواد مأمور لوجهة لا تعلمها.

صرير العجلات يتمازج مع صوت حوافر الجواد و هي تقدح الأرض الصخرية. أقنعت إخوانك أنك ذاهب إلى بعض أقاربك حاملاً لهم متاعًا، ولابد راجع قبل الفجر.

لماذا أتاك الوارد لتذهب إلى تخوم الروم وحدك؟

أهي واردات حق أم خاطرات شيطان؟

أم وارد حق ألقى الشيطان أمنيته فيه، لتذهب وحدك إلى التهلكة، فيأسرك أحد أشاوسهم ممن يقطعون الطرقات كالصعاليك ويفتنونك عن دينك؟

اللعنة! لماذا ذهبت؟

تحث جوادك على العدو لتسبق هواجسك فلا تلحق بك. قنديل عربتك الوحيد يكاد ينطفئ من سرعة الجواد. تخشى على عربتك من الانفصال عن جوادك بغتة و أنت فيها فتنتبه لنفسك وتهدئ من سرعتك. كان هذا كافيًا جدًا لتراه.

سن رمح انجذب إلى نار القنديل برقَ بسرعة جوارك، فتنحني بغتة لتقفز من مقدمة العربة. تسقط على الأرض وترى الفارس الممسك بالرمح قد قفز في خفة بجواده إلى الجهة الأخرى من العربة. تشعر بلدغة خفيفة؛ لقد لمسك الرمح بسنه. اختلت حركة العربة وسقطت على جانبها منزلقة بضعة أذرع إلى الأمام وقد علق بخشبها قبس من القنديل. حصانك أصابه مس من الجنون فظل يثير الغبار محاولا التخلص من قيوده و قد سقط على جنبه هو الآخر.

تلهث حامدًا الله على النجاة و خيط من الدم يسيل من ذراعك و آلام السقوط تدور برأسك.

تجري نحو العربة وتلصق ظهرك بها بانتظار قفزة الفارس الأخرى إليك. وبحدس اكتسبته من المعارك و أذن مرهفة اعتادت على صمت الغارات، قدّرت القفزة ووجهت سيفك لأعلى في أكثر من اتجاه بسرعة كعصا الكفيف حتى عثرت على مرادك و بقرت بطن جواد عدوك الذي سقط مثلك من فوق الجواد القتيل. على النيران البرتقالية التي شبت في عربتك ومتاعك بدأت المبارزة. أول مرة تبارز فارسًا واحدًا في معركة ليس فيها سواكما. لا أحد منكما يفكر بالهرب. تطول المبارزة و كلاكما مجروح من سقطة مفاجئة وبضع لمسات حادة من سيف. أخيرًا تخور قواكما وتتراجع لتجلس جوار النار التي كادت تخمد بينما ذهب الفارس ليجلس بعيدًا لكن على مقربة من النار كذلك، فالتجوال دون جواد في هذا الليل ليس مأمونًا للجميع. ينظر كل منكما للآخر و أنفاسكما المتقاطعة تسابق بعضها.

تراه يخرج قنينة من حزامه ويجرع ما بها، ثم يشير بها إليك.

- لا أشرب الخمر يا هذا.

ينظر إليك باستخفاف ويجرع ما تبقى في القنينة ثم يلقي بها بعيدًا.

- لقد استبد بك التعب أيها التركي واحترق متاعك، لماذا لا تستسلم؟

- وأنت قُتل جوادك ولست بأفضل حال مني.

- فلنتفق إذن، لا يهاجم أحدنا الآخر حتى طلوع الشمس لنأخذ قسطًا من الراحة وننام. ما قولك؟

- لك هذا .

- أقسم .

- أقسم بالله إني لن أهاجمك حتى طلوع الشمس .

- وأنا أقسم بالرب ألا أفعل أيضًا .

وكأنكما كنتما بانتظار القسم حتى غبتما في سبات عميق .

***

حاول رئيس مجلس الدايت أن يجبر النواب على الصمت، طرق بالمطرقة الخشبية دون جدوى . كانت جلسة عنيفة من أعنف الجلسات التي يعقدها الدايت، ذلك المجلس الذي يضم نائبًا عن كل إقليم في اتحاد بولونيا و ليتوانيا .

تأمل الملك (سيجموند) المجلس من خلال مقصورته . نظر إلى مقاعد النواب التي تراصت في نصف دائرة متدرجة على سلم ينحدر إلى المنصة العالية التي يجلس على مقعدها رئيس المجلس وتحتها يقف مندوب الملك أمام منصة أصغر يلقي كلمته .

يؤمن الملك أن عرشه مرهون بهؤلاء النواب الذين يمكن أن يرحل كل واحد منهم بكرسيه من القاعة ومعه إقليمه لتعود الدولة للفوضى الكبيرة التي كانت فيها .

لكنه كذلك لا زال يشعر بالحنق أن عليه إقناع هؤلاء النواب بقراراته . لا مفر من هذا؛ فكل واحد منهم متجذر كرسيه في إقليمه بالنسب والثروة

والأتباع، ومنهم تؤخذ الضرائب ومن أراضيهم يؤخذ الفلاحون للخدمة في الجيش. ضاعت ملكية الزمن الجميل حين كان كل شيء جميل حلال!

إنهم يتحكمون بكل شيء ولولا ثقتهم أن بغياب المُلك ستقع بينهم الفوضى ويجور بعضهم على بعض فتفسد البلاد ربما ما جعلوه ملكًا عليهم.

أعاد (سيجموند) النظر مرة أخرى إلى النواب، ثمة بيان يُوزع عليهم.

اللعنة! هاهو نائب آخر ينضم للحلف المعارض للحرب. مندوبه على المنصة وقف عاجزاً أمام الأسئلة التي تنهال عليه من النواب:

- من الذي تسبب في استثارة الأتراك؟ و من الذي سمح لزولكفسكي أن يحالف جراتسياني ويورط جيشنا الذي أنهكته الحروب في السويد وموسكوفا.

- ما هو دور اليسوعيين في استفزاز الأتراك؟

- كيف ستُجمع الضرائب والشتاء قادم بعد بضعة أشهر ولا مخزون من القمح يحمي البلاد من المجاعة؟

وقف مندوب الملك حائراً متلعثمًا، اللعنة على اليسوعيين! هم الذين يؤججون روح الغزو مجدداً في الملك مذكرين إياه بماضيه الحزين وانكساراته المتتالية؛ ففي يوم من الأيام كان ابنًا لأميرة بولونية وملك سويدي ومن حقه أن يرث العرشين، لكن بدلاً من هذا وجد عمه يغصبه عرش السويد لأن البروتستانت لن يرضوا بكاثوليكي متعصب ملكًا عليهم،

كذلك حربه ضد موسكوفا بعد موت القياصرة الكبار لم تنجح، وأنهك جيشه في تلك الأصقاع فرضي لولده (فلاديسلاف) بسلطة اسمية على موسكوفا بعد أن اغتصب العرش رجلٌ من آل (رومانوف) ليحافظ على المذهب الأرثوذكسي لتلك البلاد.

أما العرش البولوني فجالس عليه بشق الأنفس يحاول أن يحافظ على الاتحاد بين بولونيا وليتوانيا من جهة، والتخلص من سيطرة النواب ليبني إمبراطوريته وسط كل تلك الإمبراطوريات التي تُبنى حوله، وما زادته إلا بغضًا لتلك الديمقراطية المزعومة التي تكبل أحلامه وتنكس رايات نصره.

انتهت الأسئلة أخيرًا فتنفس مندوب الملك الصعداء، ثم لم يلبث أن امتقع وجهه؛ لقد حان وقت الخطب!

وقف مندوب الملك عاجزًا أمام النواب و هم يتحدثون بصوت عالٍ ويثيرون التعاطف بحديثهم عن الفلاحين وعن إمكانية الصلح مع الأتراك الذين لم يكونوا أبدًا أعداء.

لكن الملك مازال جالسًا في ثبات يرمق النواب في هدوء، كان يعرف أن السياسة لا تختلف كثيرًا عن كرة المضرب التي طالما مارسها.

قاعة فسيحة و شبكة في المنتصف، مضرب خشبي وكرة خشبية خفيفة الوزن لتبدأ المباراة. ليس المهم أن تكون الأبرع والأكثر مهارة، المهم ألا يرد

لك خصمك الضربة، هكذا مبدؤه دائمًا، لا جدال و لا نقاش، لا مزيد من الفلسفة و الكلمات البرّاقة. وحدها الصفقات و تدبير الليل كافيان للقيام بكل شيء.

قام أحد النواب من مكانه و هبط السلم المؤدي لمنصة مندوب الملك ليكون تحته مباشرة و قال: «أيها النواب المحترمون، لا يمكن أن ترقى كلماتي لتعبر عن مدى ألمي و شعوري بالعار من حديثكم. . . دعوني أكمل. إنكم تلقون باللوم هنا على الراحل (زولكفسكي) وتتهمون اليسوعيين، لم يثنِ أحد منكم على ذلك الجيش الذي وقف ببسالة في سبيل الاتحاد أمام البرابرة».

ابتسامة واسعة رُسمت على وجه الملك من كلام النائب (كازيمير)، ضربة رائعة هذه المرة من ذلك النوع الذي يجعل الكرة تحتك بالشبكة و تنزلق من فوقها ثم تسقط من فورها على الأرض.

- نحن لا نتحدث هنا عن أشخاص أيها النائب، إنها مصلحة الاتحاد.

- أشخاص؟

هتف النائب (كازيمير) في استنكار و ازدراء ثم أكمل في غضب: «هل كان (زولكفسكي) يحارب من أجل ضيعته؟ لقد كان يحارب من أجل الاتحاد. . من أجلنا ضد البرابرة الكفار الذين يزحفون علينا الآن».

ثم أخرج من حزامه قطعة قماش حمراء متهرئة عليها نسر أبيض، علم

بولونيا وقال محاولاً أن يجعل نبرته حزينة: «هذا هو ما حارب من أجله (زولكفسكي) وسال عليه دمه، لقد قتل مائة من الكفار قبل أن يقتلوه شهيداً وباركته الملائكة في السماء و أنتم تقولون أشخاصًا! . عذراً أيها النواب المحترمون لو آذت رائحة تلك الراية أنوفكم المعطرة، لكنها تحمل رائحة بطل من أبطال الاتحاد. . . إنها تحمل دماء (زولكفسكي). لن نرسل وفداً يستعطف ملك البرابرة، لن نسأل الصلح، سنقاتل و نأخذ بالثأر وإلا فليوارني الثرى و لا أشهد اليوم الذي يركع فيه الاتحاد على مذبح الكفار».

ثم جثا على ركبتيه و رفع يده بعلامة الثالوث و أطرق برأسه إلى الأرض.

هنا قام النواب الذين تظاهروا بمعارضة الحرب و صفقوا تصفيقًا حاداً لم يملك معه المعارضون إلا أن يصمتوا تمامًا لتخرج من الملك قهقهة خافتة. . . لقد أنهى الملك مباراته كعهده دائماً؛ ضربة خاطفة سريعة لا يقدر أحد على صدها أو ردها. لقد دقت طبول الحرب.

●●●

[١٤]

- هذه ورودك و تلك ورود أبيك.

أومأ الصبي برأسه فضحكت أمه الصغيرة، كم أنت نقية يا (صفية) حتى تخبرك الورود بقاطفيها، وكيف يخفون أسرارهم عن وردة مثلهم استبدلت بتلاتهم الحمراء ببتلات ذهبية داعبها (داوود) في رقة.

- ألن تعلمني ركوب الخيل يا أبي؟

التفت (داوود) للأمير الصغير الذي سبق كلماته بجذب ثوب أبيه، فانحنى الأخير وقال بحنان: صوتك يكفي يا أحمد. الأمير الصغير لا يجذب ثياب أحد.

نظر الصبي إلى أمه و كاد يبادر بالاعتذار لأبيه لكن أباه ربت على كتفه وحمله على كتفيه.

- ثم إنك تريد أن تستبدل الخيلَ بظهر أبيك؟

انطلق (داوود) بالصبي يدور حول (صفية) بسرعة بين أشجار حديقة القصر وسط صياح طفولي لذيذ.

بعد لأي توقف الأغا الرمّاح و أنزل الصبي من على صهوته، وطبع قبلة على خد (صفية).

- سأذهب مع السلطان إلى حوتين!

همهمت (صفية) بكلمات مضطربة لم يسمعها (داوود).. فقط احتضنها بقوة. لأول مرة يخشى الموت إلى هذه الدرجة؛ لن يرى طفله يكبر و لن يجلب الورود لـ(صفية) كل صباح، اعتصر (صفية) بين ذراعيه ليطرد تلك الأفكار عنه، حتى الورود أشفقت عليه و فزعت أن تلقى على قبره بدلاً من أن تهدى لحبيبته، فهوت على الأرض من يد (صفية) كما هوى قلبه بين قدميه حين سمع أبواق الأورطات تنفخ بجوار سور قصره الكبير.

***

جمع الضرائب و إرسال الخراج...

أول مهمة توكل إليه على وجه السرعة تختبر قدرة الأمير محمد كوال جديد لقيصرية.

(سليمان) أفندي يحسب مع الحُسّاب ما يمكن جمعه و إنفاقه وما يتبقى لإرساله، فالدولة ستحتاج لكل الأموال الممكنة تحسبًا لطول فترة الحرب. جلس (برهان الدين) هو الآخر مع الحُسّاب رغم عدم الحاجة إليه.

متنافسان هما على قلبه و عقله كالأطفال، لكن لا يملك إلا أن يبوح بشجونه و مخاوفه لـ(سليمان) ويعمل بنصائح (برهان الدين).

آه يا (سليمان) لو تركت المولوية ودورانها! لكان الأمير أكثر فرحًا بك مما هو الآن؛ فالأمير يرى في الصوفية أهل كسل و بدع و لولا قرب (سليمان) أفندي منه لأقصاه عن مجلسه، فلا يصلح أن يسير على طريقة نديمه القديمة بعد الآن.

ما الذي يدفعه ليعيش كالفقراء مجهولاً معزولاً في تكية مليئة بالمتبطلين؟

إنه أمير ابن سلاطين و غداً سلطان عظيم فلا يوصله إلى هدفه إلا منهج (برهان الدين) و شيخه (الأقحصاري).

هاهو جمع الضرائب أول خطوة يخطوها كوالٍ حقيقي على دربه الطويل.

تخيل الأمير (محمد) وجه أخيه السلطان متربصًا منتظرًا منه أن يثبت جدارته إن حل تلك المعضلة بعد ما تم إنفاقه على حرب العجم و عصيان الجلالية الذي يحدث من حين لآخر لأصعب من لغز اللوغاريتم الذي فشل في حله (علي) بن (ولي) و حله أحد الكفار بعد أن بدأ سلسلة الأعداد من الصفر بدلاً من الواحد!

- ها هو الصفر عدد مُعتبر يا عثمان، أفأرسله لك؟

ويحك يا (محمد)! لقد صار تفكيرك متكلفًا ككلامك حين تبدي معارفك أمام ندمائك. ضاعت تلك الدهشة على وجهك و تلك النظرات المتسائلة و حل محلها التقطيب للوقار و التكلف للتعالي.

لم ينس أن يكمل التكلف الذي انطبع عليه، فألقى نظرة على مواقيت الصلاة التي حددها له ميقاتي المسجد ثم نظر إلى الساعة ذات الدولاب منبئة بقدوم صلاة الفجر فأحجم عن التفكير في قديمه و جديده. قام للتجهز للصلاة آملاً أن يجمع المطلوب دون أن يجلد ظهراً أو يغصب مالاً.

***

سفر طويل، شاق لم يتحمله جسده الواهن، تباطأ (تشودكفتش)- الهتمان الأعظم [1] لليتوانيا و القائد العام لجيش الاتحاد -بجواده متظاهراً بتفقد مؤخرة الجيش، بينما يبطئ في حقيقة الأمر ليلتقط أنفاسه. تجاوز عمره الستين بقليل، وجهه واهن أنضجته شمس المعارك، شارب ولحية فضيان زينا وجهه و قد ارتدى عباءته النحاسية المفضلة وحرملته السوداء.

- أنت قائد بارع يا (تشودكفتش) رغم جموحك ورعونتك أحيانًا. نقطة ضعفك الوحيدة هي القتال في المناطق الضيقة، حاول أن تتغلب عليها، لن يتأتى لك دائمًا القتال في مكان مفتوح.

---

(١) لقب رفيع من ألقاب العسكرية في بولونيا.

أمسك (تشودكفتش) لحيته في ألم و الدموع تطفر من عينيه حين تذكر نصيحة (زولكفسكي) له و هو مازال قائدًا شابًا.

لم يكن (زولكفسكي) مجرد قائد له، لكن رفيق دربه و صديق عمره. جمعت بينهما المعارك، لكنها فرقت الآن بينهما. تذكر أحلامهما معًا وحدود الإمبراطورية التي تخيلاها، تشجيع الملك لهما، ضيقهما بالدايت ونوابه الواهنين الذين يطعنونهما في الظهر لأجل كنز المال فينفق هو و(زولكفسكي) على الجيش من ثروتيهما!

وصلت طلائع جيش الاتحاد إلى حوتين، بدت القلعة القديمة شاهقة أمامهم بهيكلها الحجري وسط المروج الخضراء ونهر الدنستير الذي يسير ببطء أمامهم.

قسّم (تشودكفتش) أماكن المعسكرات؛ معسكره في الوسط و(لبوميرسكي) مع وحداته على اليمين و مشاة (ليزوفسكي) على اليسار، وليترك القازاق غير بعيد عن معسكرهم ليكونوا لقمة سائغة للعثمانيين. لعل البرابرة ينجحون فيما فشل هو فيه و ينهون شغب القازاق إلى غير رجعة!. سأله (فلاديسلاف)-ابن الملك و قيصر موسكوفا- لماذا لا يدخلون القلعة فأخبره أن ذلك يجعلهم عرضة لحصار الأتراك ويضيق عليهم فرصة القتال في أرض مفتوحة يسهل التحرك فيها. أسهب كثيرًا في خطته حتى مل من حوله. لا يهمه ذلك؛ فكل ما يهمه (فلاديسلاف) الذي اعتبره كولده. يشعر بالذنب حياله لأنه لم يستطع أن يربح معاركه في موسكوفا وينصب الأمير الصغير على عرشها.

يزداد مقتًا للنواب حين يتذكر أنهم رفضوا أميرًا شجاعًا كـ (فلاديسلاف) وليًا للعهد مصرين على ديمقراطيتهم الغبية التي تصر على انتخاب الملك من بين النبلاء.

بعد فترة حانت من القائد العجوز نظرة للضفة الأخرى من الدنستير، وجد أشباحًا تتحرك و تتزايد، لقد وصلت طلائع العثمانيين أيضًا.

***

قاربت الشمس على الخروج من خبائها وقد خبت النار التي شبت في متاعك يا (مصطفى) غازي. لم يبق منها إلا دخان أسود في ضوء الفجر الرمادي.

أذناك تلتقط صوت أقدام تجتر نفسها على الأرض الصخرية، كدت تهب لتهرب، لكن جسدك يخذلك فتفتح عينيك ببطء ومن زاوية ضيقة تلمح الفارس الرومي -الحانث بقسمه- وسيفه على بعد ذراع منك.

تحرك ذراعيك كأنك ستتقلب على جنبك لكنك ترتكز على كفيك فجأة لتهب واقفًا و تسلبه سيفه ثم تدفعه أرضًا، و عندما لمست ذبابة السيف عنقه المذعورة قلت باحتقار: «لولا أن الشمس لم تطلع بعد لأرديتك قتيلاً ولا أبالي أيها الكافر خائن العهد، هيا اذهب و إلا أبقيتك حتى طلوع الشمس، فأطأ عنقك بقدمي».

نظر إليك الفارس بمزيج من الدهشة و الغضب ثم قام يجري حتى توارى خلف الجبل القريب.

الآن تتفقد متاعك المحترق و تربت على جوادك الذي كُسرت عظامه. تلتفت خلفك حين تسمع صوت ركبٍ آتٍ فتتوارى خلف حطام العربة تترقب؛ إنهم إخوانك.

- مالذي فعلته يا مصطفى غازي؟ كيف تتركنا و تغيب في هذه الليلة الباردة؟ لقد التمسناك في كل الجهات حتى وجدناك.. أخفتنا يا رجل.

- عذراً.. لم أعرف مالذي فعلته، لقد جاءني خاطر أن أسير إلى هذه الوجهة ففعلت.

- لا عليك يا أخي. فلنصل الصبح الآن، فلقد قاربت الشمس على الطلوع.

تيمموا ثم وقفوا استعداداً للصلاة و ثمة فارس مذعور من الجبل يرقبهم. تخلت عنه دهشته من حفظ التركي لوعده رغم أنهم برابرة خبثاء. إنه الآن يرقب المشهد الجديد.

لم يرهم يصلون من قبل، سمع أنهم وثنيون، لكنهم الآن يصلون للاشيء، ربما لإله بعيد المنال.

يتعجب من طاعتهم لقائدهم وتراصهم، تلاصقهم كجند على وشك مواجهة فرسان عدو، وهو الفارس الذي يتندر كثيراً و يقول إن الرب نفسه غير قادر على تسوية صفوف الرَجّالة!

حين ركعوا . . . أخذته الدهشة من هذه الحركة الغريبة، و حين سجدوا على الأرض للاشيء خاشعين على الأرض دون أن يطلب منهم أحد ذلك، يخفضون رؤوسهم للاشيء. أخذته رعدة لا يعرف مصدرها. رعدة تحثه على معرفة أخبارهم أكثر و السماع عن دينهم الغريب ومن يدري؟

ربما يصير واحداً منهم[1].

❊❊❊

خيم الصمت على القادة؛ كلهم ينتظرون كلمة من (تشودكفتش) الذي وقف في خيمته صامتًا يرمقهم بعينين نافذتين.

أخيراً بعد طول صمت قال بصوت عميق: «من قال إن الأتراك جاؤوا بثلاثمائة ألف مقاتل؟»

سرت همهمات خافتة صمتت بإشارة حازمة من (تشودكفتش) الذي قال محتداً: «إنني لا أريد أن تسري أخبار كاذبة بين الجند تحت أي ظرف. كل ما يهمني هو أن أبقي على روحهم عالية ليخوضوا الحرب، وإلا قُتلنا جميعا هنا من الخوف قبل سيوف الكفار. ولمن تسرّعوا في ترديد كذب الأتراك أقول لهم إن الأتراك يعدون كل من فيه روح ضمن الجيش، فالفارس باثنين؛ هو وجواده ولو كان له أكثر من جواد لعدّوه، وخدم قادتهم و عبيد سلطانهم كذلك يُعدّون. إن الأتراك يريدون أن يواجهوا

---

(١) دانشمند نامه بتصرف.

جيشًا يائسًا يصارع الموت و أنا أريدكم أن تكونوا جيشًا قويًا يحرز النصر.
نحن هنا في حوتين بعيدًا عن الاتحاد ومعركتنا تقع في أرض غيرنا.

كل ما سنفعله هو أن نحصن معسكراتنا بالخنادق و المتاريس و ننتظرهم لعبور النهر ثم نستثيرهم لحرب مفتوحة ونشتتهم بيننا وبين القازاق المعسكرين جوار (لبوميرسكي)».

أومأ القادة برأسهم مستسلمين و قد لهّى بعضهم نفسه بالأمل في النصر، ومن الخيمة سمعوا أصوات أبواق وطبول عالية، لقد وصل إمبراطور البرابرة.

●●●

[١٥]

في زمن آخر و لمدة عقود، اعتاد ناصبو خيام السلطان أن يدقوا أوتاد الخيمة الشاهانية في بستان القصر أو في أي بلدة يزورها السلطان في الصيف. غير أنهم -و لمرات نادرة- منذ عهد السلاطين التنابلة، ينصبون خيمة السلطان في أرض المعركة.

تثاءب السلطان في تعب و قال للصدر الأعظم: «ها قد وصلنا. هل من فارين أو متخلفين؟»

- القليل يا مولاي. إنه جيش كبير و وارد أن يهرب بعض العبيد... أو الخدم أثناء الزحف و الإنكشارية...

- لا تقل إن أحدًا منهم قد تخلف . قبحهم الله! أما يكفي أن إسلامبول كلها شهدتهم و هم يقوضون معسكراتهم هربًا من الحشد ليعودوا إلى بيوتهم قبل أن نؤدب قادتهم و نعيدهم كالنعاج الضالة؟

- لا يا مولاي. أردت القول إنهم جاؤوا جاهزين مع الأغا داوود باشا والسباهية كذلك جاهزون. أما الخان تيمور فقد عسكر بخمسين ألف جندي غير بعيد عنا، وسيبدأ غاراته على البولونيين من الغد. لقد أرادوا استشارتنا طوال الأيام الماضية، لكني أمرت بعدم مجاراتهم إلا بعد أن يصل الجيش كاملاً.

- عظيم، وقراقوش (محمد) باشا، ألم يصل من بغداد بعد؟

- سيصل قريبًا يا مولاي.

لا بأس، الكل جاهز إذن و أكبر جيش منذ تاريخ (سليمان) القانوني خرج مع السلطان (عثمان) غازي، ذلك اللقب الذي حازه لأنه خرج للجهاد ضد الكفار.

الأطواغ التسعة، شارة السلطان، تبدو ذهبية في ضوء الشمس. حانت نظرة منه إلى نهر الدنستير ومعسكرات البولونيين على الضفة الأخرى ليتابع أول معركة تحت قيادته.

خطوة. . . خطوة. . . خطوة.

سار فارس بتؤدة راكبًا جواده يختبر الجسر الخشبي الذي بُني لعبور الدنستير، وحين وصل بسلام لوّح لباقي الجند أن يتبعوه. .

أرجل وحوافر جرت بسرعة لتعبر النهر ثم دبت على الأرض الطينية الزلقة.

مناورة خادعة بالخيالة ناحية معسكر البولونيين ثم انحدر السيل على معسكر القازاق؛ الوجهة الحقيقية.

خرجت عشر طلقات من مدافع الميدان تلحقها خيول بني عثمان والإنكشارية فوقها يطلقون نيران بنادقهم متقدمين نحو معسكر أعدائهم.

- إنه الطابور... تراجعوا!

صيحة خرجت من حلق الصدر الأعظم فجأة حين رأى العربات متراصة جوار بعضها محشوة بالقش و الحجارة تحيط بمعسكر القازاق والجنود من خلفها يطلقون النار بعد طول صبر حتى يقترب أعداؤهم من مرمى نيرانهم.

أياد كثيرة امتدت لتجذب أعنة الخيل فسقط بعضهم و جواده يخر معه أرضًا، وآخرون أصابتهم الطلقات فسقطوا من على جيادهم.

- الله أكبر... الله أكبر.

قفز فرسان من السباهية فوق العربات بجيادهم و عمائمهم تطير من هول القفزة و حين هبطوا استقبلتهم رماح القازاق تمزقهم، فتراجع الباقون بسرعة وطلقات الأعداء تمطر ظهورهم بالنار.

وحين انكشف غبار البارود لم يبق أثر للأورطات المهاجمة.

***

تتالت غارات عثمانية عدة على معسكر القازاق وبُنيت جسور وهُدمت أخرى. كل الغارات انتهت ذات النهاية، إطلاق نار كثيف، ثم تراجع عند المتاريس والخنادق.

أما جيش البولونيين، فكان يخرج من متاريسه و خنادقه عابرًا بواباته ليعضد القازاق أثناء الغارات ثم يعود لمعسكره من جديد. لولا هذه المساعدات من حين لآخر لربما ترك القازاق المعركة ووجد جيش الاتحاد نفسه وحيدًا أمام الأتراك، لكن الجميع يعرف أن هذا لن يحدث طالما تلاقت المصالح، فالاتحاد عينه على البغدان والقازاق يريدون سحق التتار أعدائهم الأزليين، هؤلاء الذين اقتصروا على الغارة في قلب أرض البولونيين لسلب المؤن القادمة لجيش الاتحاد و بث الرعب بقتل بعض الرجال ثم العودة مرة أخرى إلى معسكرهم غير البعيد عن معسكر السلطان.

- لقد وصل قراقوش محمد باشا يا مولاي.

التفت السلطان، الغاضب من تأخر النصر، ناحية الباشا الألباني ذي اللحية الذهبية العريضة والعينين البنيتين الضيقتين. قدم منحنيًا من باب الخيمة ثم اتخذ مجلسه مع الباشوات ليأخذ الصدر الأعظم بزمام الحديث ويقول: «مرحبًا بك يا باشا، لقد استبطأنا قدومك».

انتبه الباشا الوافد أن الصدر الأعظم يلمزه عند السلطان، فتجاهله وقال بلهجة ذات معنى: «علمت أن غاراتنا الماضية لم تحرز أية نتيجة. أرى أن ننهي الأمر بالهجوم على معسكر البولونيين نفسه و أن نبدأ من فجر الغد».

التمعت عينا السلطان وقال في حماس: «ألم أقل لكم من البداية أن نبدأ الهجوم على البولونيين؟»

أومأ الباشوات برأسهم إيجابًا و بدت ابتسامة ساخرة على وجه (داوود) باشا. مازال يتعجب من تلك القوة التي يمتلكها هذا الصبي فيجعل كل هؤلاء الكهول يتملقونه و يتمنون رضاه مادحين حكمة لم يمتلكها و شجاعة لم يروا لها أثرًا. إنه ذلك النسب الممقوت، و هاهو فتح جديد يضيف مزيداً من الأرض و العبيد لبني (عثمان).

كم صبي سيأخذونه ليضيفوا للإنكشارية (داوود) جديد؟

هل سيكونن الوكلاء شرفاء فيأخذون شابًا واحدًا من كل أربعين بيتًا من الرابعة عشر للثامنة عشر و غيرها من تلك الشروط الكثيرة أم يكونون كذلك الحقير الذي انتزعه دون السن من بيت أبيه؟

لم لا يكون كـ(إسكندر) بك الذي عادى الفاتح و منع تقدمه فعاد إلى قومه و أعلن راية العصيان لينقذ ألف (داوود) و (داوود) غيره؟

لم يعد قادرًا على فعل شيء. يقاتل فقط للدفاع عن حياته و لا يشعر بالولاء تجاه بيرق السلطان و تلك الراية التي يزعمون أنها للنبي. لا يدري إلى أي معسكر يميل؟.. (محمد) أم (يسوع)؟

لا هذا ولا ذاك، فقط معسكر (داوود)، هو المعسكر الوحيد الذي يعرفه

ويألفه.. معسكر لا يطلب منك إلا أن تبقى حيا قويًا مترفًا فحسب، لا دين ولا قوم، أنت فقط...

انتبه فجأة إلى أن السلطان غادر الخيمة حالمًا بنصر الغد والباشوات من حوله يتسامرون.

- ما بك يا داوود؟ تبدو متجهما.

- لا شيء يا علي باشا.. لا شيء.

- ربما يفكر في معركة الغد.

- أو اشتاق إلى حريمه.

ابتسم الأغا ابتسامة مقتضبة مجاملة للباشوات، وهمّ بالانصراف حتى سمع قراقوش (محمد) باشا يقول: «اجلس يا (داوود) ودعك منهم. سأحكي لك حكاية مسلية سمعتها من أحد الرواة في بغداد عن أساطير الفرس القديمة».

نظر (داوود) باستغرب لمحدثه، كان غريبًا أن يتحدث معه بهذا الود الزائد والخصومة بينهما معروفة من أيام الصبا في الثكنات، والرسائل القادمة من بغداد حاملة الهدايا للسلطان معرّضة بنظام الإنكشارية المختل توحي أن والي بغداد يرنو إلى الصدارة العظمى أو إلى أغوية الإنكشارية ليكون قريبًا من السلطان.

- يُروى أن رجلاً من ملوك اليمن القدامى اسمه الضحّاك، أغواه الشيطان، فقتل أباه و استأثر بحكم اليمن ثم استنجد به الفرس لينقذهم من ملكهم الظالم، فسار إليهم بجنده وملَكَهم. وحين استتب له الأمر، برز له الشيطان في صورة طباخ وصار يحسّن له أنواعًا من لحوم الغنم والبقر حتى حظى عنده بمنزلة لم يسبق لها أحد، فطلب الشيطان الطباخ أن يقبل كتف الملك لينال الشرف مكافأة له على إتقانه لعمله، ولما فعل، خرج ثلاثة ثعابين من كتف الملك ينهشون لحمه و يؤلمونه، وظهر له الشيطان هذه المرة في صورة طبيب، ونصحه بأن يطعم كل ليلة رأس عجوز لثعابينه فتكف عنه وتريحه من لدغاتها. ومازال الأمر هكذا حتى افتُضح أمره وضج الناس به، فتبعوا حداداً يُدعى كاوة رفع جلد النمر راية له و هجموا على الملك و سجنوه في جبل من جبال فارس فهو فيه إلى يوم القيامة تنهش لحمه ثعابين كتفه، و منذئذ أصبح جلد النمر رمزًا للأكاسرة.

- حكاية ممتعة فعلاً! يا باشا نحن في سمر، فاكفف عنا أحاديث الحرب والدماء.

تجاهل (قراقوش) باشا سخرية (علي) باشا العابرة وسأل (داوود) باهتمام: «ما رأيك يا داوود في هذه الحكاية؟»

نظر إليه (داوود) بحدة وقال في سخرية: «حكاية لطيفة يا باشا، لقد أسعدت ليلتي حقًا حتى أنني أريد الذهاب الآن إلى مخدعي! . . . أراكم غدًا».

ذهب (داوود) متجاهلاً نظرة ذات مغزى من والي بغداد، ذلك لأن الأغا كان يعرف هذه الحكاية جيدًا من حكايات الشاهنامة، لكنه يعرف كذلك أن الوالي حرّف القصة لغرض في نفسه.

لقد كان الضحّاك يطعم ثعابينه كل ليلة رأس شاب لا رأس عجوز.

***

رحّب (برهان الدين) بشيخه (يحيى) أفندي بحرارة بعد أن نزل ضيفًا عليه. كان (يحيى) أفندي أستاذًا لـ(برهان الدين) و قاضيًا للرومللي قبل أن يستثير بجرأته حاشية السلطان (أحمد) فينفونه إلى أقاصي الأناضول في طي النسيان، حتى تذكره الخوجة (عمر) و جعل السلطان (عثمان) يعفو عنه ويستقدمه إلى إسلامبول مكرمًا.

- كنت في الطريق إلى إسلامبول بعد أن وصلتني رسالة الخوجة عمر فأردت أن أمكث معك في طريقي وأعرف أخبارك مع ولي العهد، فمنذ زمن لم تصلني رسائلك.

- أهلاً و مرحبًا يا شيخي، أنا و الأمير على خير ما يرام..

جلسا على حاشية من قطن و بعد الطعام و الشراب، جلس (برهان الدين) صامتًا بين يدي معلمه وأرسل للملامح وجهه العنان فأظهرت همومه التي أثقلته لشهور.

- مالك واجمًا مهمومًا يا (برهان الدين)؟

تنهد (برهان الدين) و قال في ضيق: سألني الأمير عن السلاطين والخلفاء فحسّنت له أمره في عينيه كما تعلمت.

- وماذا في ذلك؟

- مازال في نفسي شيء من هذا.

هز (يحيى) أفندي رأسه و قال في حنان: لماذا يا برهان الدين؟ حسنًا، أخبرني.. إن كنت في جيش على مقربة من الكفار و ظلمك أميرك.. أتخرج عليه بالسلاح، أم تطيعه على كره منك؟

- أطيعه.

- فإن كان من حوله يتملقونه و أردت نصحه، أتلين له أم تغلظ؟

- ألين، فالله أمر موسى و هارون أن يقولا لفرعون قولاً لينًا لعله يتذكر أو يخشى.

- أرأيت إن كان من حوله هم سبب فساده و قد ملكوا قلبه كما قلنا، أتصرح له بفسادهم أم تعرّض ؟

- أعرّض.

- فماذا في نفسك إذن؟

- هذا ما تعلمته يا شيخي، لكن لا أدري. إنه شيء في صدري فحسب.

- يا (برهان الدين)، لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها. وأنت ترى أقوامًا

من حولنا لم يجنوا من خروجهم على الحاكم إلا الخراب ومن يدري؟ لعل الله يقضي أمرًا كان مفعولاً وتعود سيرة الراشدين.

-لكن من بعدنا سيصبون علينا اللعنات ويقولون إننا فقهاء سلاطين.

- من قال هذا؟ يا بني عندما كان الوحي حيًا في النفوس كانت خلافة راشدة على منهاج النبوة، و لما اشتدت العصبيات بين الأمة على مجاري العادات في هذه الدنيا من طمع و تنافس؛ هذا من بني فلان و هذا من بني علان، صارت ملكًا، و من ملكوا هم قوم حسابهم على الله، كان بادئهم معاوية رضي الله عنه صاحب رسول الله ومن قرنه خير قرون الأمة، فلا أمراء غيرهم ولا جيش إلا جيشهم، ولا علماء سوانا. لهم علينا الطاعة ما غلبوا و لهم علينا النصيحة بالحسنى، و الأخذ بأيديهم أخذًا رفيقًا إلى الحق. يا بني من السهل أن تعتزل الجماعة و تشير إلى جباه الناس بعصاك، هذا مؤمن وهذا فاجر. أما أن تخوض معهم و تصبر على الأذى وتختار بين خير الخيرين و شر الشرين، فتلك صفات ذوي الهمة و أولي العزم. أخبرني.. أحال أميرك الآن أفضل، أم حاله قبل أن يلقاك؟ سل نفسك قبل أن تدعها للوساوس، يا بني أخرج هذا الشيء من صدرك، فإنك إن وقفت على حافة المخاضة تخشى على ثوبك الأبيض أن يلطخه الوحل، فتذكر أنك ستبلى و يصير الثوب لك كفنًا لم تُسْدِ للناس شيئًا، بينما كان في وسعك أن تعيش على البر الآخر معهم بثوب موحول.

[١٦]

ماذا يقصد الباشا القادم من بغداد؟

هل يعرف سر الأغا حقًا أم أن تحريف القصة بسبب نسيان يحدث لجل الرواة؟

وإن كان يعرف، فمالذي يريده؟ هل يريد أغوية الإنكشارية؟

كلا، لو كان يريدها لأفضى للسلطان بالسر و اتُهم الأغا بالجنون، ولربما ارتدى أعداؤه ثوب الفقهاء و أفتوا بالقصاص و حرّضوا النصارى على الثورة ليكون (داوود) قربانًا لهم. لقد صحب (قراقوش) في الثكنات ويعلم خسته.

تواردت كل هذه الخواطر على رأس الأغا (داوود) وهو يعبر النهر تجاه معسكر البولونيين. جال ببصره بين القادة الحانقين على تصدر (قراقوش)

باشا الهجوم رغم وصوله منذ يوم واحد فقط، ثم نظر نظرة طويلة للباشا الذي بدا واثقًا من النصر. أراد أن يسبر أغواره بنظرته تلك لكنها ارتدت لم تحمل سوى مزيد من الشك. نظر الأغا حوله يمنة و يسرة ليرى الجيش اليوم أكثر أبهة هذه المرة، لو سار كل شيء على ما يُرام، سينتصرون دون شك.

توقف الجيش بغتة لإشارة (قراقوش) باشا و تقدمت المدافع فصم الجميع آذانهم لتنطلق ستون طلقة دفعة واحدة أيقظت البولونيين من سباتهم العميق.

بدا الهجوم أكثر تنظيمًا هذه المرة، وتحت ستار كثيف من نيران الإنكشارية، عبر الفرسان و الرَجّالة على ألواح خشبية نصبوها ليعبروا الخندق أمام معسكر (لبوميرسكي) و مروا من خلال بوابته التي تهدمت بفعل المدافع العثمانية.

- ماذا حدث؟

استيقظ (فلاديسلاف) مفزوعًا، وخرج بملابس النوم من الخيمة بسرعة ليجد الفوضى قد عمت المعسكر، و(لبوميرسكي) يوجه جنوده و(تشودكفيتش) قادمًا على جواده من بعيد ومعه فرقة من جيشه.

استغرق الأمر لحظات لتنتهي دهشته ثم عاد للداخل ليرتدي ثياب الميدان. ركب فرسه بسرعة و حاول جمع شتات حرسه و خدمه ليدافعوا عن الثغرات التي فتحها العثمانيون بهجومهم المفاجئ.

- صوبوا نحو العيون و الرؤوس . . . لا تجعلوا أحدًا منهم يخرج رأسه من المتاريس . . . الله أكبر!

هتاف قوي تردد من حنجرة (قراقوش) باشا وهو يطوف بجواده مصدرًا أوامره لقادة الأورطات متنقلاً بين الميمنة و الميسرة وإن بقي على حافة الخندق لم يعبره بعد .

- تراجعوا . . . تراجعوا .

صرخ (لبوميرسكي) وجنوده يتبعونه تاركين البوابة وحدها للعثمانيين المتزاحمين عليها .

- يالله! إنهم يخلون الساحة لمدافعهم . . . داوود ابق بمن معك لتؤمن ظهرنا . . . سنتلقى الضربة الأولى ثم نتراخى عنهم ليبرزوا إلينا من البوابة و حين نختلط بعسكرهم مرة أخرى ستصمت مدافعهم كي لا تقتل الجميع ، ساعتها تنضم إلينا بجندك .

ألقى (قراقوش) باشا اللاهث خطته بسرعة دون أن يلحظ قسمات الأغا الجامدة . صاح (تشودكفيتش) صيحة الهجوم وهو يقود جنوده الذين وصلوا للتو منضمين لمن سبقوهم من الجنود والخدم .

كانت فرصة (تشودكفيتش) أن يتقدم تحت ستار دخان المدافع ليبرز للعثمانيين و ظهرهم للخندق و حين اشتبك معهم لم يعد يعرف الحليف من العدو . التحم الحديد باللحم و تزاحمت العمائم و الخوذات ، إنها حرب

الأرض الضيقة التي يكرهها، ففيها يستطيع أي أعمى أن يردي رجلاً بطلقة و تتعثر الخيل و تضيق الرماح بطولها.

- الله أكبر... الله أكبر... لا إله إلا الله.

مازال (قراقوش) باشا يصيح وسط جنده و هو يطلق النار من طبنجته.

و حين فرغت ذخيرته، أغمد طبنجته في حزامه وطاف بسيفه ماسحًا أعناق أعدائه الذين لطخوا بدمائهم ثيابه و وجهه ثم حانت منه التفاتة متلهفة لمؤخرة الجيش.

- هيا بنا... مروا الرجال بالانسحاب،

نطقها (داوود) باشا في برود أصاب من معه بالدهشة، لكنه اكتفى بإشارة حازمة وترديد جامد لكلماته ليتبعه جنده صاغرين وسط دهشة الباشا المنتظر.

- سنرى من سيبول على نفسه الآن يا (قراقوش)!

- اللعنة عليك يا ابن الزانية!

بصق (قراقوش) باشا على الأرض وصوت الرصاص والحديد يصم أذنيه.

نخس جواده لينطلق نحو بوابة المعسكر التي اكتظ طريقها بالأجساد وهو يبارز هذا و يطعن ذاك، ثم كبّر تكبيرة عالية و هو يعدو بسرعة نحو البوابة.

أثار ذلك حماسة جنده فتبعوه وسط تراجع جنود (تشودكفيتش). في ذلك الوقت نفدت ذخيرة رماة (لبوميركسي) الواقفين خلف المتاريس فتراجعوا أيضا إلى داخل المعسكر أمام ذلك السيل العثماني الذي عادت إليه الحياة بشجاعة قائده. مر الوقت على مهل ليفسح المجال لمزيد من القتلى وكل خطوة تقطعها خيالة العثمانين كأنها دهر وكل جندي من الكفار يفكر في حياته و كل قائد يتذكر خيمته ومتاعه.

تقدم (قراقوش) باشا في صدر جنوده الذين أمدوه بالذخيرة فضرب بطبنجته مطيحًا بكل رصاصة برجل من الكفار.

تحسس بأنامله في زهو تلك الآيات القرآنية التي أمر أحد الصناع بحفرها على طبنجته.

حنجرته كادت تُشرخ من كثرة التهليل و التكبير.

مضى الوقت بطيئًا قاسيًا على البولونيين سائرًا كالدرويش في ركاب بني عثمان واثقًا من النصر المحتوم.

لكن طلقة واحدة مسرعة أنهت كل شيء...

طلقة دوى صوتها بوضوح كأن لم يُطلق غيرها أردت الباشا المندفع قتيلاً ليسقط من على جواده.

هوى (قراقوش) باشا من على جواده بعد أن شعر بشوكة تخترق جبهته فجأة، ثم أعقبها لهب نفذ إلى أعماق رأسه.

سقط و هو يرى أمامه كومة من الثياب المتلاحمة، لم يستطع أن ينطق الشهادة و إن ترددت في عقله، بعدها جمدت الرؤية في عينيه بغتة.

ثم مضى الوقت سريعًا هذه المرة. . . لكن مع الطرف الآخر.

تعالت صيحات قادة بولونيا و استرد (تشودكفيتش) أنفاسه وتورد وجهه كأنه عاد إلى شبابه وتبعت جنود بولونيا العثمانيين الذين هاموا على وجههم هاربين كالأيتام الذين فقدوا أباهم، فمنهم من أسر ومنهم من قتل أو ابتلعه الخندق العميق أثناء الفرار السريع.

وسط كل هذا، حانت التفاتة من الأغا الأشقر العائد لمعسكره، وهو يرى الفوضى و انقلاب الآية على العساكر العثمانية وتنهد كأن حجرًا ثقيلاً انزاح من على صدره.

***

«أسعد الله الأمير».

جملة ترددت عشرات المرات بعد صلاة العشاء و عشرات القبلات طُبعت على يد الأمير (محمد) أخي السلطان (عثمان). أشهرًا قضاها أميرًا على قيصرية يرفق بفقرائها و مساكينها، فلم يشقق عليهم في جمع الأموال التي طلبها السلطان لحربه الجديدة حتى لقبه أهلها بأبي المساكين. انتهى الأمير من تحية آخر سائل و سأل كاتبه و نديمه (سليمان) أفندي: «هل بقي شيء من عطاء اليوم يا سليمان؟»

- أربعة أكياس يا مولاي.

- حسنًا، اتركهم على باب المسجد، سيأخذهم من يخرج لصلاة الفجر في هذا البرد، لنعد الآن إلى القصر. أريد تفقد إعداد خزانة الكتب الكبرى.

همّ الأمير، بعد مقالته، بركوب جواده لكن نديمه قال في حرج: «مولاي إن أخاكم السلطان بعث غاضبًا يطلب أموالاً أخرى، إنه في حاجة إلى الكثير من المال حتى لا تكون خزائن إسلامبول خاوية و هو في حربه مع بولونيا».

زفر الأمير بضيق ثم مسح على شاربه الأصفر النامي و قال لنديمه: «الناس أهلكتها الحرب، فقد شهدوا حرب الفرس و تحملوا نفقة جيش أكبر من المعركة، و رغم هذا أرسلت له ما قدرت عليه، فأنّى لي أن أرسل المزيد؟»

- لكن الفرس كانوا كثيرين يا مولاي.

- جيشنا أكثر خبرة و أفضل تدريبًا يا سليمان و نحن كنا ندافع. السلطان: أراد نصرًا باطشًا دون أن ينظر إلى الخسائر. هاهو ذا ينتقل لحرب أخرى بينما الفرس استقدموا الإنكليز ليدربوهم على حمل البنادق و يصبوا لهم المدافع و نحن نخوض حربًا خاسرة في الشمال.

تلفت النديم حوله خشية أن يسمعهم أحد ثم قال بحذر: «إنك تجلب على نفسك المتاعب يا مولاي. أما يكفي أن بعض الباشوات يتهامسون عن تقريبكم لهذا الكافر أرطين و يصفونك بالابتداع».

هنا استبد بالأمير الغضب وقال في حدة: «أو لو كان فاسقًا جاء ليغرقني في الملذات لاكتفوا بالابتسام بخبث أليس كذلك؟»

زفر مرة أخرى و قال بهدوء: «حتى لو كنت مبتدعًا كما يقولون فأجدادي هم من ابتدعوا أولاً. يجب أن يكف هؤلاء عن الاعتقاد أننا مركز العالم، إن خوض دولتنا العديد من المعارك وبذلها أنهاراً من الدماء في سبيل الله أشعرنا أن القوة هي كل شيء. لو سمعت ما يقوله أرطين عما يفعله الكفار لصيانة ملكهم لعرفت أن المسافة بدأت تبعد بيننا و بينهم. إن هؤلاء الباشوات لا يزالون يعيشون بعقول البداوة في ترف القصور. ألا ترى الإسبان يقتحمون عالمًا جديداً و يخوضون بحاراً واسعة يأتون منها بالخيرات و الكنوز بينما نحن لم نستطع سد جوع الأناضول من قمح الشام ومصر، مصر التي لا يربطنا بها سوى وال عاجز يتغير كل بضعة سنوات ودعاء في خطبة الجمعة وخراج يقل عامًا و يزيد عامًا لا يكافئ عُشر ما يمكن جمعه في عام بأكمله. لماذا لا نذهب إلى العالم الجديد فنحوز ما حازه الإسبان والبرتغاليون و غيرهم، و رغم كل هذا لا يهم الباشوات سوى أمر أرطين والكتب! لو أن هناك من يهدم دولتنا فهؤلاء و من يريد أن يسير على نهجهم. ثم إنني لست ساذجًا لأسلم نفسي له، إنه يعاونني لأجل مصالحه معي وحين يفرغ من تجهيز دار الكتب لن يكون له مكان بعدها».

- إنني أخشى عليك.

قالها (سليمان) في ود فنظر له الأمير بدهشة فتابع: «اعتاد السلاطين منذ زمن أن يحبسوا أولياء عهدهم أو يحجبوهم أو حتى يقتلوهم لئلا يثبوا عليهم، فإذا خالف أخوك السلطان عادة من سبقوه وولاك قيصرية تقوم بما يثير مخاوفه؟»

أطرق الأمير برأسه، يجب أن يجهز نفسه للسلطنة رغم أي مخاوف، فأخوه يسمع كثيرًا للخوجة (عمر) الذي يزكي فيه غرور القوة حتى لو شق على الناس في معايشهم من أجل معاركه، ثم ماذا لو ارتكب السلطان حماقة بين أصقاع بولونيا و أغلظ للإنكشارية؟ ماذا سيفعل به الجند؟ إنه يحب أخاه والخوجة (عمر) رغم أن الأخير يفضل (عثمان) عليه، لكن الدولة يجب أن تظل حتى لو زال السلطان. يجب أن يكون جاهزًا ليحسم أمر الفتنة إذا وقعت، لكن هل يعزل أخاه ويسجنه؟

ما أعظمه لو صار سلطانًا! سيجدد شباب الدولة بالحكمة و المهارة، لا بالبطش و الغشم.

- مولاي ماذا بك؟

نحى الأمير أفكاره جانبًا وركب جواده وهو يقول لنديمه: لا شيء، اذهب أنت الآن.

- ألن تذهب لدار الكتب؟

- كلا لقد ضاق صدري، أريد أن أجول وحدي خارج المدينة، سأعود في الفجر. . . أرسل للسلطان مائة كيس من خزائني علها ترضيه.

جذب الأمير عنان الجواد وخواطره تباري ركض الفرس، كلها خواطر مُرّة حتى تلك التي ارتدت عباءة السلطان.

***

غمس (تشودكفتش) الخرقة في الماء البارد حتى ابتلت تمامًا، ثم عصرها و مسح بها وجهه. خلع ملابسه ببطء ومسح على جسده بالخرقة محاولاً طرد تلك الحرارة المنبعثة من مفاصله. لف جسده بمنشفة قطنية و استرخى على فراشه. لم يصدق أنه كان على وشك الهزيمة من الأتراك اليوم. تراخت جفونه تستقبل النوم، لكنه فتح عينيه مفزوعا وقام حين سمع خادمه يستأذن للأمير (فلاديسلاف) بالدخول.

- ماذا بك يا أبتِ؟

- لا شيء يا فلاد. فقط لم يعد جسدي يتحمل كل هذا.

ربت (فلاديسلاف) على كتف الهِتمان وقبل رأسه ثم أرقده برفق على الفراش.

بدا جسده مضحكًا بساعديه النحيفين العجوزين وبطنه المترهلة، بدا عجوزًا واهنًا، شفافًا كقديس على وشك الاستشهاد كما يُقال.

تناهى إلى مسامع (تشودكفتش) صخب بالخارج، فقام بسرعة بعد أن ارتدى ثيابه وحين خرج من الخيمة وجد حرسه مضطربين حوله.

- سيدي الهتمان، لقد هاجم بعض الرعاع من لجأ من البغدان إلى معسكرنا و سلبوهم أموالهم و قتلوا عددًا منهم.

انعقدت حاجبا (تشودكفتش) وقال بصوت متحشرج: يا إلهي! اجمع الحرس جميعًا الآن و مرهم بقتل هؤلاء الرعاع و علق جثثهم في وسط المعسكر ليكونوا عبرة. لا أريد إخلالاً بالنظام في معسكري.

توجه إلى داخل الخيمة مرة أخرى، ثم توقف بغتة و قد تذكر شيئًا فالتفت إلى قائد حرسه قائلاً في لامبالاة: اقتل من تبقى من هؤلاء اللاجئين؛ لا أريد شهودًا على الحادثة كي لا يذيع خبرها، فيأتي البغدان من قراهم ليعضدوا الأتراك نكاية فينا.. ألقوهم في النهر دون إبطاء.

***

«لقد رأيت البقعة التي كان يجلس فيها الإمبراطور متابعًا حوادث المعركة. كانت هذه البقعة فوق تلٍ عالٍ. كان التتار الكفار قد أسروا بعض الخدم الذين ذهبوا لجمع الحطَب لمعسكرنا. لقد جعلوا الخدم يمثلون بين يدي الإمبراطور كي يخبروه بما يعرفونه عن معسكرنا. استجوبهم الإمبراطور الكافر ثم أمر بقطع رقابهم في حضرته و رمي جثثهم من فوق التل. كذلك من لجأ من معسكر بولونيا إلى الكفار؛ تم استجوابهم واستعبادهم و إذا أراد أحدهم الفرار من معسكر الأتراك، تم قتلهم ورميهم من التل العالي وقد امتلأت البقعة أسفل التل بمئات الجثث والرؤوس

المقطوعة. أما أمتنا البولونية فإنها لم تقتل أحدًا ممن أسرته، لكننا أخذناهم معنا إلى بولونيا».

أوكسنت-مؤرخ بولوني معاصر للمعركة

***

أغمض (داوود) عينيه بشدة و أحنى رأسه محاولاً تحمل صراخ السلطان الأمرد الغاضب من الهزيمة. كان يدبدب برجليه وهو يصيح كطفل حقيقي.

كانت حجة الأغا أن (قراقوش) باشا خالف الخطة وتقدم وحده برعونة فأنقذ (داوود) الجيش من هزيمة محققة!

لكن السلطان شعر أن في الأمر خدعة ما و حين هدأ من نوبة غضبه، حانت منه التفاتة لشيخه (عمر) أفندي.

كان الخوجة غاضبًا كتلميذه، حتى لو انتصر الجيش سيغضب الخوجة.

رفع (داوود) باشا رأسه و نظر ببرود للسلطان الذي تظاهر بالحزم وقال محاولاً أن يبدو صوته خشنًا: «بما أنه قد ظهر عجزكم حتى الآن عن النصر، فسأقودكم بنفسي إليه».

سرت همهمة من الباشوات الجالسين في خيمة الصدر الأعظم. كانوا شامتين دون شك في الأغا، شاعرين بالارتياح من رحيل منافس عنيد كـ(قراقوش) باشا.

وحده الكمانكش (علي) باشا حاول منع السلطان من الخروج؛ فلو خرج السلطان مع الجيش فسيقود المعركة بنفسه دون شريك فيضيع الجيش لحداثة سنه و انعدام خبرته. لكن كالعادة وجد الباشوات كلهم إلبًا عليه يشجعون السلطان و يتملقونه.

عض (علي) باشا على شفته السفلى في غيظ وخرج دون استئذان أو انحناء.

كان يرى في مخيلته جيشًا يُساق إلى حتفه.



[١٧]

ظن القازاق أنها غارة عادية من غارات الأتراك التي تتكرر كل يوم، غير أنهم وجدوا جيشاً هو الأكبر هذه المرة. رأوا رايات كثيرة وسمعوا طبولاً تدق كأنها طلقات المدافع.

تبختر السلطان بجواده مزهواً بنفسه و هو في قلب الجيش. أحاط به حرسه الأشداء في رياشهم و زينتهم.

سمع طلقات البنادق من بعيد في مقدمة الجيش. اشرأبت عنقه ليرى بشكل أوضح.

تراجع القازاق أمام عنف الهجمات، فبدا أن الأتراك ما كانوا إلا في حاجة لوجود السلطان معهم ليقاتلوا بهذه الثقة.

تعلّق بصر السلطان بالراية النبوية التي حملها أحد حراسه، كانت تلك الراية و آثار أخرى من النبي رمزاً لخضوع مكة للعثمانيين في عهد (سليم) الأول.

إنها راية النبي التي انتصر في ظلها هذا الدين وسينتصر في ظلها الآن على الكفار أعداء الله.

- مولاي البادشاه... لقد جاءت طلائع جيش البولونيين.

تنفّس القازاق الصعداء لمرأى (تشودكفيتش) قادمًا إليهم في جيش كثيف.

وحسب الخطة التي وضعها الباشوات و استحسنها السلطان، ترك العثمانيون ميمنتهم تناوش القازاق وانطلقوا صوب جيش البولونيين آملين أن يتقهقر الكفار و يكبسوا معسكراتهم من الخلف بينما تستمر غارات التتار من الأمام وفي عمق أراضي بولونيا.

توقف (تشودكفيتش) لبرهة يرمق جيش الأتراك القادم نحوه. عرف من طلائعه أن الإمبراطور خرج على رأس جيشه هذه المرة.

رفع يده عاليًا و صرخ بأعلى صوته: «تراجعوا!»

ثم لوى عنق جواده ليعود مسرعًا والجيش يتراجع من خلفه كما اتفقوا.

- هجوم!

صرخ بها السلطان و كبّر بصوته الرفيع و الجيش يطارد عدوه متلبلبًا مستقبلاً ريح النصر هذه المرة مما جعل (علي) باشا يظن أنه أخطأ في تشاؤمه

وقاد ميمنة الجيش بحماس، بينما سبقت الميسرة القلب فبدا الجيش كخط مائل؛ ميمنته تهاجم القازاق وميسرته تسرع وراء البولونيين الفارين، وبقي السلطان في القلب يلاحق للميسرة.

صرخ (تشودكفيتش): «توقفوا»، فجُذبت أعنة الخيل فجأة و استدار المشاة بينما صُوبت المدافع تجاه الأتراك المهاجمين.

لعق (تشودكفيتش) شفتيه و همس لنفسه: «أخيرًا الحرب المفتوحة التي أريدها».

ثم أمر جنوده بضرب المدافع على الأتراك القادمين في الوادي الأخضر الفسيح.

صرخ الصدر الأعظم (حسين) باشا في فرسانه أن يفسحوا المجال في عدوهم للمدافع العثمانية التي توقفت لتطلق قذائفها ردًا على البولونيين ثم عاودت البغال جرها لاهثة من جديد.

وقف (فلاديسلاف) بجوار الهِتمان و معه حرسه الخاص. راقب البرابرة وهم يتقدمون ثم رأى مشاة (ليزوفسكي) و هم يطلقون بنادقهم صفًا وراء صف. وحين التحمت الجيوش، سمع تكبيرات عالية ارتج لها قلبه؛ إن هؤلاء القوم يجيدون الصراخ حقًا!

توثّب السلطان من فوق جواده يتابع المعركة من كل الجهات، فجأة مرقت طلقة حصدت حارسًا على يساره. نظر إلى الحارس بذهول، تناثرت

دفقة دم من رأس الحارس في الهواء ثم هوى على الأرض. تلفّت السلطان حوله في ذعر. شعر لأول بقرب الموت منه. التف حرسه حوله فجأة كل يريد أن يكون درعًا له و تراجعوا به إلى مؤخرة الجيش.

تتابعت طلقات البنادق من الجانبين كجموع الذباب و تكسرت السيوف وسط صهيل الجياد.

و بينما تدور المعركة ذهب رسول خفي من البولونيين لوجهة غير معلومة بعد أن تلقى كلمات هامسة من (تشودكفيتش).

أما (داوود) فقاتل مع إنكشاريته بكل جوارحه. كان حظه أن يكون في المقدمة معرضًا للموت في كل لحظة. فكرة الموت نفسها تصيبه بالهياج وتجعله يقتل كل من يقع تحت عينه من الأعداء.

استمر تصادم الطلقات في الفضاء وتحت غطاء الدخان الكثيف تراجع البولونيون كثيرًا مما ملأ قلوب العثمانيين بالأمل. لكن الفرسان المجنحين وصلوا ليقلبوا كل شيء رأسًا على عقب...

فرسان الهوسار البولونيون الذين يزينون أنفسهم و جيادهم بجناحين من الريش أقبلوا فجأة مع قائدهم، هجموا في الفجوة بين القلب المتوغل في الوادي الفسيح و الميمنة التي قادها الكمانكش منشغلاً بمناوشة القازاق. نفذوا بسرعة البرق في تلك الفجوة و اشتبكوا مع مؤخرة الجيش.

صاح الصدر الأعظم (حسين) باشا في هلع: «أنقذوا السلطان، إن الكفار يقتربون منه».

اضطرب الجيش، فتراجعت السباهية أولاً ثم تبعتها الإنكشارية، كل يهرع لحماية السلطان الذي وجد حشداً من الأجساد يلتصق به وبجواده وكان هذا كافيًا ليتقدم البولونيون جميعًا ليعضدوا فرسانهم الأشداء.

قال (تشودكفيتش): «ألم أقل لكم؟ الحرب المفتوحة وحدها التي تجلب لنا النصر، فلنهاجمهم الآن حتى الدنستير... هيا».

بكى السلطان، انساب الدمع من عينيه و هو يرى نفسه مُجبراً على الانسحاب أمام الهوسار الذين اشتدوا في قتالهم و قد امتلؤوا بنشوة النصر.

لكن (علي) باشا ترك جزءاً من الميمنة يحجزون القازاق الذين قويت عزائمهم بنصر جيش الاتحاد واشتبك بباقي جنوده مع الهوسار ليؤمّن انسحاب الجيش الذي اضطرب نظامه و لم يعد يريد سوى التراجع بعد أن اطمأن على سلامة السلطان. و حين انسحب الجيش في سلام بفضل الكمانكش الذي فنت ميمنته تقريبًا، تراجع البولونيون كذلك إلى معسكرهم وأسدل الستار على معركة ربما كانت الأخيرة.

***

مضت الأيام سريعًا و أقبل الشتاء ينثر الثلج من السماء معلنًا قدومه، وقتها تراجع جيش الاتحاد إلى قلعة حوتين و عسكر فيها. لم تكن ثمة بادرة

أمل في معركة فاصلة أخرى. حاول (تشودكفيتش) أن يستثير العثمانيين لمعركة مفتوحة أخرى، لكن لم يجد ردًا سوى طلقات المدافع، حتى الغارات التي أراد أن يشنها على معسكر العثمانيين باءت بالفشل بسبب الأمطار. سمع أن قائدًا من قواد البرابرة أقسم، حين رأى دموع الإمبراطور بعد الهزيمة، أن البولونيين لن يذوقوا حبة قمح و لن يجرعوا شربة ماء، ومنذئذ فُرض عليهم حصار مطبق من مدافع العثمانيين و غارات التتار الذين يظهرون من العدم و يعودون إليه.

لم يعد الهِتمان قادراً على تحمل تشنيع النواب المصاحبين للحملة. اللعنة على هؤلاء المنافقين المتملقين. يأتي الواحد منهم للحرب من أجل المجد والشهرة أملاً في موت الملك ليصلح للترشح مكانه، و إذا هُزم الجيش قال: «ألم أقل لكم إنها معركة خاسرة؟»

تجول الهِتمان بتؤدة في ردهات القلعة ضائق الصدر حتى رأى النائب (سوبسكي) متأملاً الخارج من النافذة الزجاجية. كانت فرصته ليخرج ما في جوفه طيلة الأيام الماضية.

- لماذا تؤلّب الجيش عليّ و تنشر الأكاذيب بين الجنود أيها النائب المحترم سوبسكي؟

- أي إشاعات أيها الهِتمان الأعظم؟

التفت (سوبسكي) ليكون في مواجهة (تشودكفيتش) مباشرة. تبادلا

النظر شزراً و دارت بينهم مناقشة حامية بنبرات هادئة دون أن ينسى أحدهم لقب الآخر للحظة :

– إننا نخوض معركة خاسرة .

– حقًا ! و ماذا تسمي ما يحدث هنا أيها الهِتمان الأعظم؟

– أسميه معركة لم تُحسم بعد أيها النائب سوبسكي .

– أترى ذلك حقًا؟ ماذا تسمي الحصار الذي نحن فيه؟ ذخيرتنا تنفد وطعامنا شحيح . إنهم يطلقون عشرات الطلقات كل يوم و نحن لا نفعل شيئًا سوى تلقيها . الجنود يريدون العودة إلى بيوتهم ، و العامة يموتون في المدن القريبة منا لأننا أخذنا طعامهم . حذرناكم مراراً من توريطنا في الحروب لكنكم دائمًا ما تفعلون ما تريدون ثم تأتون مطالبين بضرائب خسائركم في النهاية . . أيها الهِتمان الأعظم .

– ومن أنت حتى تتحدث نيابة عن الناس أيها النائب المحترم؟

– أنا نائب عن الشعب أيها الهِتمان الأعظم .

– أي شعب؟ هل تصدق نفسك أيها النائب المحترم؟ من يحق له أن يترشح للدايت؟ إنهم النبلاء أصحاب الضياع و الأرض الذين لم يجوعوا و لم يشعروا بالبرد يومًا . أنتم لا تبالون بالفلاحين ولا تشعرون بآلامهم . لم تجلسوا يومًا معهم في خندق واحد و لم تحاربوا معهم جنبًا إلى جنب ، لم تروا فرحتهم بالغنائم الصغيرة و حلمهم أن يكونوا سادة على العالم . أنتم تنوبون عن شعب لا تعرفونه .

- هل تعني ما تقوله أيها الهتمان الأعظم؟ كيف تصدق نفسك؟ في بولونيا نساء أرامل و أطفال أيتام فقدوا عائلهم لمجرد أن الملك لم ينسَ أن أباه كان ملكًا على السويد، أو أن ابنه يريد لقبًا في موسكوفا. هذا الدايت الذي تسخر منه هو الذي حفظ الاتحاد و حفظ الدولة و جاء بجلالة الملك إلى العرش. لو تركنا لكم الأمر لنكلتم بالبروتستانت أكثر مما حدث في فرنسا ولأصبحت كل يوم حربًا لا شأن لنا بها و لتفككت الدولة التي وحّدناها.

- هراء أيها النائب المحترم، أبي هو الذي جمع صوت ليتوانيا ليوحدها مع بولونيا في لابلن و حمل النبلاء على الموافقة على المعاهدة. لولا ديمقراطيتكم التي منعت عنا كل مساعدة لانتصرنا في كل المعارك التي تعايرنا بها. ثم أي ديمقراطية تتغنى بها؟.

انتفخت عروق الهتمان وهو يتحدث ضاغطًا على أسنانه، أشار إلى النافذة وأكمل: «انظر إلى هؤلاء البرابرة... آلاف وآلاف جاؤوا فقط من أجل سلطان صبي، يحاربون من أجله و يهبون حياتهم بإشارة من يده وأنت تحدثني عن الديمقراطية؟ كنتم دائمًا شوكة في ظهرنا بجشعكم وأنانيتكم، اللعنة على الديمقراطية... ألف لعنة أيها النائب... المحترم».

دوت فجأة طلقة مدفع دنت من القلعة حتى أن زجاج النافذة التي كانا يقفان عندها تهشم. تناثرت قطع الزجاج في الهواء، فخرّ (سوبسكي) على الأرض بسرعة في هلع، بينما وقف تشودكفيتش ثابتًا لم يطرف له جفن.

انعكس ضوء المشعل الخافت على وجهه و هو يقول في ازدراء: «قُم أيها النائب المحترم و لا تنسَ أنك في حرب. من الآن فصاعداً لا أريد أن أسمع أن هناك من يخذّل الجنود، لن أرحم أحداً عندها حتى لو كان رئيس الدايت نفسه، و اعلموا أنكم بما تفعلون تزرون بالاتحاد و تجلبون لنا العار أمام كفار رحمهم الرب من وجود نواب محترمين أمثالكم».

***

«يسوع... يسوع».

انطلقت صرخات في جوف الليل تبعها صوت غوص في الماء.

هرع (فلاديسلاف) من نافذة حجرة (تشودكفيتش) ليتبين مصدر الصوت. هاهو آخر لم يتحمل الجوع و المرض الذي يفتك بالجميع و أراد أن ينهي حياته بيده. أغمض (فلاديسلاف) عينيه في ألم ثم التفت ليرى (تشودكفيتش) راقداً على فراشه مستسلمًا للمرض الذي اشتد عليه. أعاده وقف القتال إلى عمره الحقيقي فبدا مجرد شيخ فانٍ يصارع الموت.

جلس (فلاديسلاف) على مقعد بجوار (تشودكفيتش) و أمسك بيده الدافئة. فتح الأخير عينيه بصعوبة، ابتسم بوهن و هو يربت بيده الأخرى على يد (فلاديسلاف).

- أنا مريض يا فلاد... يبدو أنني سأموت يا بُني.

- لا يا أبتِ، لا تقلها. ستعيش و ترى نصرنا على الكفار، ستسترد عافيتك و نعود معًا إلى موسكوفا لنؤدب هذا الرومانوف و تعيد إليّ عرشي، ألم نتفق على هذا؟

ارتجفت شفتا (تشودكفيتش)كأنه يتمتم ثم ارتخى جسده و مالت رأسه إلى اليمين.

تملك الهلع (فلاديسلاف)، انحنى على صدر الشيخ لعله يسمع أنفاسه ثم صرخ صرخة عاتية.

لقد مات، مات هكذا دون أن يرفع يده بعلامة الثالوث، دون أن يخطب و يقول كلمته الأخيرة في الحياة، مات في صمت من عاش حياته كلها في صخب المعارك.

مات حاميه و أبوه. كلا، إنه أغلى من أبيه الذي طمع في البداية في عرش موسكوفا، لكن (تشودكفيتش) لم يطمع في شيء، عاش دون أمل في منصب أو إقطاع، كان الأكثر ولاء و إخلاصًا للاتحاد من الجميع.

أفاق (فلاديسلاف) من شروده ليجد القساوسة و القادة تجمّعوا في الغرفة بعد أن سمعوا صرخته.

بكاه الجميع، حتى (سوبسكي) نفسه بكى. و بعد أن أتموا مراسم الدفن و البكاء تقلد (لبوميرسكي) القيادة و كان أول اجتماع . . .

- أرى أن معنويات الجنود في هبوط مستمر بعد موت الهِتمان الأعظم، يجب أن نفاوض الأتراك على إنهاء الحرب.

همّ (لبوميرسكي) بالرد على (سوبسكي) لكن (فلاديسلاف) صرخ في وجه النائب بحدة: «لن نستسلم لإمبراطور البرابرة أيها النائب، لن نضيع تضحيات الآلاف من جنودنا و نخون ذكرى تشودكفيتش». خرج من غرفة القادة و وقف على سور السلم الذي يقود لفناء القلعة حيث تجمع الجنود. هتف فيهم: «أيها الجنود، في الداخل رجال يريدون أن يسلموكم للبرابرة، يريدون أن يحوّلوا صمودنا إلى هزيمة و يلحقون بنا العار. هل نصمت؟ هل نستسلم و نطيعهم؟ أنا (فلاديسلاف) فازا قيصر موسكوفا الذي اغتُصب عرشه لأنه لم يترك دينه، و لم يخن اتحاد بولونيا و ليتوانيا، سأخرج وحدي محاربًا الكفار، سأخرج ناسيًا كل لقب و كل مستقبل ينتظرني، سأتذكر فقط أن هؤلاء البرابرة أعداء المسيح... أعداء الرب و هو معنا فمن يكون ضدنا؟ هو أرسل ملائكته تمتطي سحبها لتحارب معنا.. فمن معي؟»

تعالت صيحات الجنود من حلوق جافة متجاوبة مع ذلك الشاب المتحمس الذي دمع أمامهم من شدة الانفعال ناسيًا لقبه و مكانته. بدا واهنًا مثلهم فصدقوه، أخبرهم أن الرب معهم فآمنوا به و بعيون على الفردوس أيدوه.

وحده (سوبسكي) وقف يشاهد ما يحدث غير متعجب أن هذا الشبل من ذاك الأسد. أما (لبوميرسكي) فقال في حزم: «حسنًا يا سوبسكي،

سأعطيك السلام الذي تريده، فقط اجعلني أثبت للأتراك أننا لسنا ضعفاء حتى لا يملوا شروطهم و يشعر الجنود أنَّا خناهم».

***

انتشرت الشائعات سريعًا أن العالم المسيحي كله يقف خلف بولونيا و لن يدعها تنهزم، حتى أن قيصر موسكوفا المتغلب على عرشها سيرسل جنودًا من عنده، بل إن ملك بولونيا نفسه ذاهب إلى حوتين!

روح جديدة سرت في روح جنود بولونيا فصاروا يقذفون ببنادقهم قطع الحديد و الزجاج و أشعلوا الحشائش بارودًا لقذائف مدافعهم .

و حين افترش الشتاء فراءه الأبيض كاملاً على الأرض و تجمد الدنستير، تراجعت غارات الأتراك المتفرقة و صمتت مدافعهم، لقد انتهت المعركة.

ابيضّ كل شيء كراية هدنة كبيرة حتى أطواغ الصدر الأعظم السبعة المغروسة ساريتها أمام خيمته. قديمًا كانت تلك الأذناب طوطمًا يعظمه أجداد الترك في وثنيتهم و الآن هي شعار قوادهم و سلطانهم، فبقدر عددها تكون المرتبة. كساها الجليد واستحال لونها البني أبيض من انهمار الثلج المتواصل الذي بدا أنه سيدفن الجميع. غير أن كل ذلك لا يقارن بالعاصفة التي اجتاحت مجلس الحرب؛ فالسلطان (عثمان) لم يعد يحتمل المزيد من لوم وزرائه وقادة جيشه بعد أن خالف مشورتهم -كما يدعون- وخرج على رأس هذه الحملة المشؤومة. خرج من الخيمة و وقف لبرهة

ينظر في اتجاه قلعة حوتين يتصورها بعين ذاكرته في الضباب الذي جثم على ما حوله. وقف متأملاً غير مبالٍ بالطقس و تمتم في أسى بعد أن صرف خدمه: «حوتين، أيها الحوت الذي ابتلع أحلامي في أحشائه. كل شيء كان ينبئ بنصر عظيم؛ الجيش الذي لم يجتمع تحت راية سلطان بعد سليمان القانوني، الإنكشارية الذين ظننت أني ظلمتهم بعد تحقيق نصر ساحق في أردبيل، دعوات المشايخ و الدراويش و صلاة الخوجة (عمر) في خيمته كصلاة (آق شمس الدين) في فتح القسطنطينية. كل شيء أصبح سرابًا، حتى فرار أهلك أمامي لم يكن سوى للإيقاع بي في غياهب ضبابك و تكبيلي في ثلوجك. بنيت جسراً لأدخلك لكن لازلت عصية علي. جرأت علي وزرائي و ألسنتهم تقول لي: «ألم نقل لك؟ كسرتني أمام جندي فبت عاجزاً عن الدفع بهم في ساحات الحرب. لست وحدك من هزمني. إنهم الإنكشارية الكلاب هم الذين سمنت بطونهم من خزائني. هم سبب الهزيمة بضعفهم. اعتيادهم الملذات جرأ علينا أعداءنا و دنست ذنوبهم الحملة وجلبت عليها الشؤم».

- البرد هنا شديد يا مولاي، ارحم نفسك من عناء التفكير، سنعقد الصلح و نعود إلى إسلامبول قريبًا.

كان هذا (حسين) باشا الصدر الأعظم، قالها مشفقًا و ربت على كتف سلطانه في حنان أبوي لم يمنع السلطان أن يزمجر و يرد متسائلاً في شراسة: «الإنكشارية هم من أشاروا عليك بذلك».

- مولاي لم يعد التوغل في أوروبة ميسراً كما في الماضي، حتى مولاي القانوني نفسه حالف ملك الفرنسيس ليذلل له ما وقف في طريق فتوحه. البرد حاق بنا و كبّل سرعة الإنكشارية و خفة حركتهم.

قال السلطان في سخرية مريرة: «نعم! سرعتهم في إدراك اضطراب السباهية ليفروا بخفة حركتهم تاركين سلطانهم مع حفنة من عبيده حتى كاد يقضي نحبه. إنهم يفضلون الموت جوعًا على أن يحاربوا كالرجال. لا يزالون يعيشون على نصر أردبيل هؤلاء الـ. .».

- مولاي أتوسل إليك، فلننه الكلام في هذا الأمر الآن حتى نعود إلى إسلامبول.

- حسنا سأكف و سأعطيك الصلح الذي تريد، ثم مال نحوه و أردف هامسًا في حسم: لكن اعلم أن الرسالة التي حدثتك عنها قد أُرسلت ولعلها وصلت أرضروم، و لن أرجع عن قراري هذا أبدًا.

هنا شعر الصدر الأعظم أن الأرض مادت به و كاد يفقد صوابه لأن الرسالة التي ذهبت إلى أرضروم ستقلب الأمور رأسًا على عقب و ستشعل الفتنة إلى غير رجعة.

***

دقق (أباظة) باشا والي أرضروم في وجه رسول السلطان متوترًا، ثم أولاه ظهره وشرع يقرأ الرسالة. انعقد حاجباه بشدة و شعر بقشعريرة باردة تسري في جسده. قبض على الرسالة بيسراه وبحركة سريعة أخرج سيفه من

غمده بيمناه و استدار قاطعًا رأس الرسول بضربة واحدة وضع فيها كل توتره وخوفه.

- إن هذ الأمر يحتاج حيطة أكثر من ذلك يا مولاي.

- همس لنفسه ثم نظر إلى الباب حيث دخل قائد حرسه، جمد مكانه في دهشة، لكن الوالي تجاهل ذلك وقال: اختر خمسة من رجالك وقل لهم أننا سنرحل مع أول ضوء للشمس غدًا.

- إلى أين يا سيدي؟

- لا تسأل وإلا ألحقتك به.

قالها الباشا في عصبية وهو يرمق الرأس المقطوعة ذات العينين الواسعتين من دهشة لم تكتمل. لم يتخيل الباشا أن جملة عابرة في رسالة منذ عامين يمكنها أن تلفت نظر السلطان لخطة عجيبة كهذه.

سار مسرعًا إلى مخدعه وأفكاره تتأرجح بين أطواغ سبعة لصدر أعظم وجثة مصلوبة مقطوعة الرأس.

●●●

[١٨]

البيزرة من جديد، ركب السلطان في موكب صيده بعد أيام طويلة من الاحتفالات.

كان بحاجة ليشعر بالانتصار. صحيح أن وزراءه حاولوا إقناعه بذلك بعد تجديد معاهدة بوزا و حفظ تبعية البغدان للدولة العثمانية، لكنه أراد ما هو أكثر؛ أراد الوصول إلى بحر البلطيق.

حام الصقر حول الأرنب البري من جديد، لكن السلطان وضع كل غضبه في وتر القوس و أطلق السهم نحو هدفه، فأصاب الأرنب قبل الصقر وسط استحسان الباشوات المتملقين و ثنائهم.

دار الصقر حول جثة الأرنب حائراً مما حدث، ثم لم يجد بدًا من الرجوع لساعد مدربه .

لكنه فوجئ بسهم آخر اخترق عنقه فسقط متكومًا على الأرض وسط دهشة الجميع. نظروا للسلطان الذي أحنى قوسه قائلاً بهدوء لم يخلُ من حدة: «إذا عجز صقري عما يبلغه سهمي فلا حاجة بي إليه».

ثم رمى أغا الإنكشارية بنظرة نارية و أمر الموكب بالعودة إلى القصر. ظهرت أمارات الاندهاش على الباش شاهين و سائر الخدم و بعض الباشوات، حتى أن (داوود) باشا انتبه و ضيق عينيه محاولاً الغوص في أعماق السلطان دون جدوى، لكن الوزراء و الصدر الأعظم كانوا يعرفون ماالذي يعنيه السلطان بكلامه، وأن محاولتهم إثنائه عن عزمه قد ذهبت أدراج الرياح.

***

- ما أجمل هذه الليلة! حرام أن ننفقها في لعب الشطرنج.

قالها الكمانكش (علي) باشا متنهداً وقد زاد النسيم المتدفق في أروقة قصر (داوود) باشا انتعاشه.

نظر إليه الأخير في ود مصطنع ثم قال مبتسمًا في خبث: «نعم، انظر إلى السلطان لازال يلهو بالبيزرة و إنه الآن في فراشه يحاول الانتصار على زوجه ابنة الخوجة».

ثم قهقه ضاحكًا في صفاقة فجاوبه (علي) باشا بضحكة قصيرة، لكن

سرعان ما شعر بالحرج فاحمر وجهه و تنحنح. أكمل (داوود) بلا اكتراث: «يقولون إن السلطان ذاهب إلى الحج».

ثم صوَّب بصره باتجاه رقعة الشطرنج و قد بلغ اللعب مداه مع خصم عنيد. هز الكمانكش كتفيه وقال: «وماذا في ذلك؟ السلطان لازال صغيراً يقدر على مشاق السفر».

قاطعه (داوود) و قد تخلى عن حذره قائلاً في جدية: «ويبني قلعة المعظم في تبوك».

اندهش الكمانكش من الحزم البادي في عيني الأغا فقال و هو يحرك بيدقه على الرقعة: «وماذا في ذلك أيضًا؟ أنت تعلم أن اللصوص ينهبون قوافل الحج في كل موسم على طريق القلعة، و لعل نية الحج قوَّت عزمه على بنائها».

- أتظن ذلك حقًا؟

- وماذا تراه يفعل بالقلعة؟ كلامك الليلة غريب يا داوود؛ شكوكك هذه و حديثك عن الأنساب و عن أهلنا الذين لم نعد نذكر شيئًا عنهم، أنا لا أفهمك. اسمع يا داوود، قد يكون الفتى أرعن كما ترى لكنه في النهاية سلطاننا؛ يجافينا لكنه لا يجد غير سيوفنا في النزال. ليس له جيش سوانا وليس لنا سلطان سواه يمنحنا القصور والعطايا و من دونه لظللنا أبناء فلاحين بسطاء. انظر إلى حالنا الآن وإلى حالنا لو كنا لبثنا في أهلنا الذين تتحدث عنهم.

ثم زفر في ضيق و أردف : « بدلاً من أن تبث شكوكك عن السلطان أدّب وجاقك الذين ألحقوا بنا العار أمام العالم في حوتين ثم رفعوا عقيرتهم بكل تبجح يطلبون زيادة في العطايا عن كل رأس يدقونها من الكفار ، كأنهم يظنون أن احتفالات النصر التي أُقيمت هنا تعبر عن حقيقة الأمر » .

أنهى (علي) باشا مقالته الطويلة و حرك فرس الشطرنج في ضجر واضح حاول الأغا تخفيفه و مداراة حديثه بمزاح حول اللعب أجابه الكمانكش بمثله و هو ينظر إلى رقعة الشطرنج قائلاً : «أو تؤذي البيادق الشاه؟»

رد (داوود) : «لا تفعل بالطبع . . . وحدها» .

وحرك فيله ليهدد شاه خصمه و أكمل : «أتعلم أن الفرنسيس يسمون الفيل أسقفًا ؟»

ضحك (علي) باشا وهو يحرك الشاه حركة يائسة و قال : «ويسمون الوزير عندنا ملكة كأنهم يقصدون السلطانة الوالدة» .

ضحك الاثنان قبل أن تزول ملامح السرور من على وجه أغا الإنكشارية وهو يطيح بشاه خصمه من على الرقعة واضعًا بيدقه الأبيض مكان الشاه وقال في ظفر : «مات شاهك يا باشا» .

توقف (علي) باشا عن الضحك لا حزنًا على خسارته ، بل لأن وجه مضيفه أشار إلى أنه لم يكن يتحدث عن شاه الشطرنج مطلقًا .

***

مررت كوسم أصابعها على شاربه النامي، ناعمٌ كالزغب لا يقدر على الوقوف في وجه أناملها الدقيقة، فقط أعطاها ملمسًا مختلفًا عن البشرة الناعمة ليعلن وجوده.

- كبرت يا مراد! . ابتسم الفتى ابتسامة واسعة زينْت محياه، اعتاد منذ الصغر أن يفعل كل شيء لينال منها نظرة الرضا.

نظرة رضا واحدة من أمه تكفي سعادة يوم، لكنها لا تدوم، فسرعان ما تنقلب إلى نظرة حزن حين تذكر أباه، أو تنقلب إلى نظرة تفكير عميق يتلوه درس من دروسها التي لا تنتهي. لا يعرف لأمه طبعًا واحدًا، حين تتلو دروسها يترك لعبه و ينصت باهتمام، وحين يفكر فيما تقوله ويبادرها في اليوم التالي بالسؤال عن السياسة وأحوالها. لا تجيبه، بل تصرفه عن الأمر وتحتضنه و تغني له!

اليوم دور التفكير العميق، صرفته كالعادة مشيعًا بالقبلات، ارتمت على فراشها و تأملت المكان لتردد ذات الخواطر دون ملل. إنه سراي قديم، لكنه سراي على أية حال. هوّنت على نفسها في حسرة. نظرت (كوسم) إلى الثريا الضخمة في غرفتها. قطع زجاجية شكّلت كأوراق الشجر و تراصت في شكل مخروطي ثُبتت فيه أربعة قناديل. ترى بذهنها تلك الثريا تتهشم كأحلامها و تعود إلى أصلها ترابا متناثرًا كنفوذها الزائل. كانت تمنّي نفسها أن تقتل (هندان) (عثمان) و(محمدًا) بقانون الفاتح، ثم تستغل هي فساد عقل (مصطفى) لتدفع بولدها (مراد) للسلطنة. لكن تلك الجشعة (هندان)

اغترت بقوتها و أرادت قتل كل الأبناء. كان لزامًا عليها حينها أن تغير حليفها وتعاون (عثمان) كنج [1] ليكون سلطانًا. ظنت أنه حين يقدم صنائعها كما اشترطت سيكون ألعوبة في يدها، وأنها ستفوز في كل الأحوال. لكن صنائعها خذلوها. أربع سنوات كانت كفيلة بضياع نفوذ عشر سنوات ونيف. تجاهلوا رسائلها و ركنوا إلى السلطان الذي أعطاهم الكثير. كنج نفسه لم يعد يخشاها و يرمي إليها بالمال بكل صلف. وحده (داوود) الأحمق لا يزال يثق بها و يحسبها قوية كما في الماضي. إنها عاجزة مسجونة و لولا مالها لكفت عيونها عن نقل الأخبار فتغيب عن عالم تتوق للعودة إليه. فلتتمنَ أن تكون أخبار خطة السلطان التي يزمع تنفيذها صحيحة. عندئذ ستستطيع العودة. ستعود بمالها و بـ(داوود) و بمقابلة ثقيلة عليها لكن لا مفر منها...

***

- ثبت عجز البندقية على عضدك حتى لا ترتد بعد ضرب النار.

- لا تغمضوا أعينكم، فوهج الفتيل لن يذهب بأبصاركم.

- اجعل سيفك يعلو سيف خصمك في أية مبارزة.

تفقّد (أباظة) باشا الجنود في ساحة قلعة أرضروم وسط صوت البارود وعناق السيوف عاقدًا ساعديه خلف ظهره. استمع إلى توجيهات ضباطه

---

(١) معناها الصغير.

المسؤولين عن تدريب الجنود الجدد ثم وقف جوار قائد جيشه و قال: «كم بلغ عدد كل من جمعناه إلى الآن؟»

- خمسة آلاف.

زفر (أباظة) باشا لتخرج طبقة بخار رقيقة من فمه. عقد حاجبيه في عدم رضا و قال: «قليل... هذا عدد قليل».

- هذا ما استطعنا جمعه دون أن نلفت الأنظار يا سيدي، ثم لا تنس أن لنا أنصاراً من السباهية بعتادهم وجنودهم ممن انتُزعت منهم إقطاعاتهم أو انتُقصت، كلهم ساخطون على ما فعل الإنكشارية رغم مرور زمن ويتمنون أن يثأروا من خرابهم للبلاد...

ابتلع القائد لسانه حين رفع الباشا يده وتلفت حوله قبل أن يقول: «كُفَّ عن اللجاجة، لا يجب ألا يعرف أحد عن خطتنا إلا من نريد استمالتهم من القادة فحسب. يجب أن نخفي الأمر كله عن هؤلاء الفلاحين، فلو عرفوا لماتوا من الخوف. انتظر حتى نلقي بهم في أول معركة».

زفر الباشا مرة أخرى وأكمل: «اذهب بجندك إلى الجبال و الخرائب حيث قطاع الطرق و الهاربين من الجنود، اغرهم بالمال فسنحتاجهم عما قريب كطلائع لنا. و حين نعلن دعوتنا آمل أن نستغنى عنهم؛ فسوف ينضم إلينا من العامة كل من له ثأر عند الإنكشارية و لا تنس أن ترسل (لدلاوار) باشا تسأله عما فعل في ديار بكر من جمع الأكراد».

صمت الباشا برهة ثم تذكر شيئا فقال: «لا تتهاون لحظة في مراقبة من يدخل ويخرج من القلعة، خاصة قائد حرسي؛ فإن تحركاته تثير الريبة وأخشى أن يشي بنا . . . اسمع، أرسل من يجهز عليه فلست رائق البال لهذه الشكوك».

ثم انصرف في هدوء وفي عقله تُبنى قصور وقلاع و ترتفع رايات وأطواغ، وسور يحيط بعاصمة جديدة لدولة جديدة.

***

كل شيء يبوح بداخل الأمير محمد؛ أنامله المتوترة التي داعب بها معرفة جواده، قطرات العرق البارزة على جبهته، وارتعاشة جسده التي زادها هواء الفجر الأزرق. سأله نديمه سليمان أفندي قلقًا عن عزمه الرحيل.

«نعم».

قالها الأمير (محمد) واستدار ببطء لمواجهة نديمه الذي قال بذات القلق: «أليس من الممكن أن ترسلني مكانك؟».

هز الأمير رأسه نافيًا وقال في بطء: «يجب أن أذهب إليه بنفسي لعلّي أرجعه عن عزمه».

-وإذا رفض، ماذا ستفعل.

أشاح الأمير بوجهه عابسًا وقال بحزم مرير: «أثب عليه، فالدولة باقية والسلطان زائل و قد أفتاني الشيخ برهان الدين بهذا». نظر النديم بدهشة إلى

أميره وقال بهلع: «خذ حرسًا معك إذن و أبلغ الباشوات في قيصرية و..»
أوقف الأمير نديمه عن الكلام بغضب وهو يقول ضاغطًا على كلماته محذرًا: «إذا عرفوا في قيصرية أن السلطان يجهز جيشًا في أقصى الشرق ليهلك الإنكشارية فستقع الفتنة.. تكفيني فتنة إسلامبول. وإذا فشلت في حمله على رأيي فلن أحتاج حرسًا، سيسعى الإنكشارية إليّ لئلا يثوروا وحدهم، فالسلطان إذا وثب على السلطان بطش بقدر الحاجة لأنه يريد دولة قوية. أما القولار إذا وثبوا على سلطانهم فلن يغمدوا سيوفهم حتى يشبعوا شهوتهم و يحوزوا الغنائم إلى بيوتهم و يقتل بعضهم بعضًا»، لم تفلح إجابة الأمير المطردة في طمأنة نديمه، لكنه لم يكترث لذلك فوثب على جواده بسرعة ليلقى خدمه الذين سيرافقونه في سفره إلى مراده البعيد.

***

رجل بكل ما تعني الكلمة. خطواتها، جلستها، حركات يديها حتى جمالها الأنثوي الطاغي يوحي أن (كوسم مهبيكر) رجل. جاء هذا في خاطر (هندان) وهي تسلم على رفيقة العزلة و كل منهما تحمل خلفها خنجرًا سرمديا من الأحقاد و الأضغان. خفضت (هندان) رأسها ناظرة إلى الأرض بعد أن جلست، حاولت التفكير في كلمات تبدأ بها حديثها، بينما سددت (كوسم) نظراتها الخبيثة إلى غريمتها. إنها تعلم أن تلك العجوز حمقاء، لا تجيد سوى انتظار الفرص فحسب.

قالت (هندان) بتردد: «هل عرفت ما الذي ينويه السلطان؟».

ردت (كوسم) بخبث: «لست وحدك من يتخلى عن جزء من ماله ليعرف ما يحدث بالخارج».

-ولم الحاجة إلى المال؟ ألم يخبرك أغا الإنكشارية يا كوسم؟ ضحكت (كوسم) ضحكة قصيرة ساخرة من ضيفتها و حاولت أن تنفي صلتها بـ(داوود) حتى تحتفظ به إذا جاء العهد الجديد. تعللت بأن نية السلطان الأحمق أظهر من أن يخفيها أحد. سادت فترة من الصمت تمنت (هندان) فيها أن تبدأ (كوسم) بعرضها بينما اكتفت الأخيرة بمبارزة غريمتها بالنظرات مراهنة على نفاد صبرها. ربحت رهانها في النهاية حين قالت (هندان): «يعود ولدي إلى السلطنة ويلي العهد ولدك مراد».

هزت (كوسم) كتفيها بغباء و تساءلت: «ومحمد.. ماذا سنفعل به؟»

- نقتله بقانون الفاتح كما اتفقنا سابقًا.

-حسنا، ليوفقك الله، تعلمين أنني هنا حبيسة لا أقدر على شيء تأففت (هندان) وامتعضت وقالت بعصبية: «كوسم، كفى مراوغة، الجنود سيثورون عاجلاً أم آجلاً ويريدون محللاً لثورتهم، نحن سنعطيهم إياه مع مالي ومالك».

اتسعت ابتسامة (كوسم) و هزت رأسها بظفر ثم قبضت على يد غريمتها متممة الصفقة بيمناها و يسرى كل منهما تقبض على خنجر وهمي في زمن قُدر فيه للحريم أن يصنعن الكثير.

***

-منذ متى صار الحج حرامًا يا شيخ الإسلام؟ .

توقف (أسعد) أفندي عن التسبيح على يمناه كما اعتاد عقب كل صلاة. رفع رأسه ليرى الخوجة (عمر) غاضبًا كما عرف من صوته فرد بهدوء: «حاشا لله يا خوجة، إنما هو حج السلاطين الذي يعطلهم عن تسيير أحوال الرعية؛ فالحج يستغرق شهوراً كما تعلم. إيه يا عمر جئت أخيراً إلى جامع السلطان (أحمد) تصلي فيه بعد أن قلت إنه بُني في إسراف لغيرة السلطان (أحمد) من آيا صوفيا».

-لا تتعامَ عن سؤالي يا (أسعد). تركت كل المنكرات من حولك و كل ما يشغلك تحريم حج السلطان ولديه من يستخلفه و هو ذاهب إلى مكة؟ أم أنك صرت لا تعرف من الفتاوى غير هذا؟

-أليس ذلك ما أراده السلطان لي؟ ألم يحرمني من حضور الديوان؟ ثم إنه لو كان ذاهبًا إلى مكة لما قلت ما قلت.

حاول الخوجة مداراة مشاعره لكنه أخفق و هو يسأل في قلق: «و هل هناك حج إلى غير مكة؟»

ضحك (أسعد) أفندي و قال باستهزاء: «منذ رأيتك يا عمر و أنت لا تعرف كيف تداري مشاعرك و ربما ورث منك سلطانك هذه الصفة. لماذا تظن أن «كنج» بهذه الحصافة بحيث يدبر ما يدبر دون أن يعرف أحد؟ قل لسلطانك أن الحج إلى أرضروم وديار بكر حرام و سيلقي بالدولة إلى الهاوية».

دهم الخوجة غضب شديد، ورد في حنق: «أأنت من أفتى بهذا أم أغا الإنكشارية؟ لم تفعل ذلك بربك؟»

-ماذا أفعل أنا أم ماذا تفعل أنت؟ كم أخطأ السلطان أحمد حين جعلك خوجة لولده. ملأت رأس الفتى بترهاتك التي لم تجنِ عليه إلا كره الإنكشارية. أوهمته أن السلطنة هي عصا موسى التي ستفعل كل شيء، ثم تقول الآن إن القولار أصل الشرور!

-نعم، أنا ما تقول لأنني رفضت وهنكم و ضعفكم و كتمانكم الحق يا تلميذ مشايخك النجيب.

- لست رائق البال لأرد عليك لغوك. إذا كنت ناصحًا حقًا للسلطان فقل له أن يلتفت لنفسه أولاً، فذلك الوجاق الذي يريد هلكته هو ما وصل بالدولة في عهد الفاتح و القانوني إلى أطراف الأرض، وأظهرهم الله به على الكفار. إنما شاهك الذي يفتقد الحزم الذي يحملهم على طاعته. أما أحرارك فليسوا ملائكة يا عمر؛ من الذي عقد مجلس الكباب و الشراب (لبايزيد) الأول أليس (علي باشا الجندريلي)؟

ألم يأخذ (خليل) باشا رشوة من ملك الروم ليثني الفاتح عن دخول إسلامبول؟

كما ترى، الآثام ليست حكرًا على القولار وحدهم، وأقسم بالله لو أن أحدًا غيري في المشيخة لأفتى بعزله».

- صرخ الخوجة ساخطًا وآخيان نامه تتردد في صدره لا تجاوزه«لم يخن الجميع الفاتح يا أسعد، اكفف عن حسدك وبغضك. أتستنكر على السلطان أن يسير سيرة الخلفاء المهديين؟»

- المهديين! أتراه راشدًا بما يفعل؟ لا يا خوجة، إن سلطانك اعتاد عيش القصور و رغدها و لا تظنن أن عزمه هلاك القولار حنينًا إلى عهد سيدي عمر، بل إلى عهد القانوني الذي لبس عباءته و هو ذاهب إلى حوتين. . . .

***

«في عهد القانوني فسدت الأخلاق و زاد الإسراف و نُبذ عرف الغزو»

(لطفي باشا وزير القانوني)

***

-ثم إن لكل عصر ملوكه و عرفه يا عمر. . .

***

«فإذا أراد الغازي أن يستبد بالأمر دونكم قائلاً إنه يستبد ليعدل، فقولوا له إن العدل مع الاستبداد كنار الإغريق قد تشتعل على سطح الماء ظنًا أنها حطب لكن قليلاً من الماء يُصب عليها فيطفئها، و إذا قال لكم إنها عادة ملوك عصره فأعلموه أن عندنا ما ليس عند هؤلاء الملوك؛ كتاب الله وسنة رسوله والشورى التي أمر الله بها، ولو قال إنه يحقق مقصود الشرع دون صورته فأعلموه أنه يلبس علة الحكم التي قررها الله

بحكمة يظنها في عقله، وعلى هذا، لقُصرت الصلاة عند المشقة لا السفر، ولتساوى الأبناء في الميراث، ولحُرمت الخمر عند بلوغ السكر. فتعسًا للقوم الظالمين».

آخيان نامه

***

-كل ما في الأمر أن سلطانك يريد جنودًا أكثر قوة و طاعة ليحقق مجده. يظن أن الخلاص في جيش أباظة باشا. كلا يا عمر، وأقسم أنه لو فعل ما يريد لجاء يوم نرى فيه العساكر الكردية يطلبون و المصرية يرغبون و الشامية يريدون. حينها سيحن إلى قولار الدوشرمة من جديد.

أنهى شيخ الإسلام خطبته و هو يرتعد من الانفعال و حين رفع رأسه مرة أخرى لم يرَ الخوجة الذي ذهب دون أن يرد، فعقد الشيخ يمناه مرة أخرى ليكمل تسبيحه داعيًا الله ألا تتفاقم الأمور.

***

«تُرى هل تسرع؟»

تذكر السلطان عثمان أحداث الأيام الماضية. فضحت قلقه خطواته المضطربة. استعاد خلاف وزرائه حول رسالته، ذلك الخلاف الذي يخشى أن يتسرب إلى الإنكشارية، تُرى هل عرفوا شيئًا؟ كان أهوجًا حين رفض الزواج ببنات الجواري مكتفيا بزوجه، وزلّ بلسانه أن عصر القولار قد

انتهى، فهل انتهى فعلاً؟ هل يستطيع (دلاور) باشا و(أباظة) باشا أن يقوما بالمهمة الخطيرة؟ وإذا فشلا فماذا ستفعل الإنكشارية؟ لا ريب أنهم سيعزلونه حتى يموت وحيدًا، لكن من سيصلح مكانه؟

هل يولون عمه؟ لا، الأحمق لا يُولى مرتين. إذن لا يبقى سوى ذلك القادم بغتة من قيصرية.

قال الأمير (محمد): «مولاي البادشاه» وانحنى أمام أخيه الذي أخذ بيده و قال في فتور قلق: «لا بأس يا محمد نحن الآن وحدنا. ما أخبار ولايتك؟ سمعت أنك تبلي بلاء حسنًا».

نظر الأمير بدهشة لأخيه إذ شعر أن نبرة صوته أبعد ما تكون عن الثناء، ورغم ذلك لم يجد سوى أن يقول: «إنما أنا ولي عهدك و ما وُليت إلا بأمرك».

-ما الذي جاء بك؟

توقف الفتى عن الاندهاش فقد ألف طبيعة أخيه. قال متلطفًا: «جئت أرى ما بك وما الذي يحدث في إسلامبول بعد أن عدت من بولونيا».

هنا زاد تحفز السلطان و قال في حدة: «وما الذي يحدث في إسلامبول؟ كل شيء على ما يُرام. أم أنهم أرسلوك لتهددني؟ لا يا أبا المساكين اذهب إلى فقرائك».

- ما جئت إلا معينًا لك يا عثمان. أعلم أنك لا تريد إلا إصلاح الدولة، لكنك لا تلقي بالاً لأولئك الذين اعتادوا الأمور كما هي منذ عقود. إنك تستثيرهم و تزيد مخاوفهم من فتنة لا تبقي و لا تذر. لا يمكنك أن تفعل ما تريد حتى لو كنت السلطان».

قالها الفتى وقد ارتدى ثياب الحزم وطرح المراوغة جانبا. فضم السلطان أظفاره وقال في خوف متدثر بالحذر بعد زلة لسانه: «ماذا تعني؟»

-أعني ما تعرفه يا (عثمان)، فلا سر يبقى تحت قبة الديوان. الحشود التي يجمعها والي أرضروم، وعزمك الحج، والقلعة التي بنيتها في تبوك، وكنوزك التي نقلتها إلى أدرنة. كل هذا يحدث وتظن أن ما تفعله سرًا؟ خطتك بلغتني وأنا في قيصرية.

-والآن جئت تتوعدني.

قالها السلطان صائحًا.

-لا أحد يتوعدك. أنت من تجلب لنفسك عداوة الجميع. تريد أن تهدم ما أقرّه الفاتح ومن بعده في أيام معدودة. اسمع يا عثمان، ما جئت إلا ناصحًا لك. ارجع عن عزمك و صالح الإنكشارية، أزل الوحشة بينكما بالعطاء وأرسل(أباظة) باشا و(دلاوار) باشا إلى ولايتين بعيدتين أو اعزلهما إذا ضمنت أنهما لن يثورا بجندهما و إلا أوردتنا جميعًا مورد الهلاك.

«هذا هو ما أرسلوه من أجله إذن» نعم، أيها البادشاه، ترى ولي عهدك الأمير و قد ارتدى عباءة السلطنة و ثبّت عمامتك على رأسه باسم الثغر. ترى نفسك تسير في أغلالك إلى سجنك الأبدي. كلا هذا لن يكون، سيفك في غمدك كعادتك و يدك متحفزة. إن الأمير يقف أعزل أمامك فهل تفعلها؟

●●●

[١٩]

«ماذا بك يا داوود؟»

نعم، ماذا به؟ تلك الجملة التي قالتها له (صفية) ليست مجرد سؤال، بل جملة جعلته أسيرها منذ سنوات . حين تزوجها، لم ير فيها سوى درجة في سلم أحلامه، مجرد خطوة واثقة أخرى على طريق القوة، تدبرها له (كوسم). بعد ذلك رأى فيها ما يثير جذله؛ إنها رمز لكل ما يكره وفي ذات الوقت زوجه، «تحته» كما يقول العرب. تعمد إيلامها في كل شيء، في المعاملة و الحديث و الفراش. لكن ذات يوم وحين جلس يبكي منتفضًا بعدما قتل أبًا جديدًا، رآها تسأله ماذا به. كان ينوح كالطفل، حتى هي لم تتخيل أن ترق له بعد طول غلظته. في البداية قرر أن يداري دموعه ويكمل

إفراغ غضبه فيها، لكنه لم يستطع. أراد أن يضربها بأغلال روحه ويلف أصفاد قلبه حول عنقها. فجأة وجدها تحتويه ووجد نفسه يبكي على صدرها و يتشبث بثيابها كالغريق. يقولون بقدر ما في حياة الرجل من دماء بقدر ما يحتاج امرأة في حياته، وأي عنف عاشه! منذ تربيته القاسية في الثكنات وهو يكتم حزنه و غضبه، يلقي بمشاعره في سرداب الحذر خوفًا من المؤامرات. عزف عن الجواري بعد أن كرّهته فيهن (كوسم) و ها هي زهرة احتوته. لم لا يقبل؟

يريد دائمًا أن يبكي معها، يريد أن يشعر أنه ضعيف حزين.. يشعر أن هناك من يحبه و يهتم به. إن كل ما أحبه كان من أجلها، إنها الشعاع الوحيد في ظلام حياته.

-ماذا بك يا داوود؟

تكرر (صفية) سؤالها مرة أخرى ليفيق داوود من شروده. قال في اقتضاب: «لا شيء يا صفية».

-كيف لا شيء و القادة يدخلون و يخرجون و يجتمعون بك كل ليلة؟ هل وقع شيء بينكم و بين السلطان؟

-قلت لك لا شيء يا أميرتي. لا تشغلي بالك بأمور الحكم. قالها وهو يسرع خارجًا من غرفته لينهي المناقشة. خرج ليُكبل بالأغلال من جديد ويتدّرع بها مع ارتدائه قلنسوته المميزة لمرتبته و رفع طرف عباءته الطويل على

كتفه و ثبّت سيفه في حزامه و قد ثُبتت سلاسل روحه من جديد في وتدين؛ عبودية الماضي و مجد المستقبل.

❊❊❊

«على رجل الدولة المثالي أن يقسِّم إيراده ثلاثة أقسام؛ قسم لمصروفاته و آخر للادخار و الثالث لأعمال البر و الخير.»

وعى (علي) باشا نصيحة (لطفي) باشا، وزير القانوني، وجعلها نهجه في الحياة. أحكم وضع القلنسوة على رأسه وتفقد سلاحه. كان دائمًا قدوة للضباط الصغار، حتى (داوود) قبل أن يتغير ويكمل طريقه بمفرده. شعر بأتم امتنان للدولة التي أعطته كل شيء، لم تنظر لنسبه و رفعته إلى أعلى المراتب. ربما اكتسب هذا الرضا من سجية أبيه. كان أبوه من سعى ليسلكه في الإنكشارية و هو بعد صبي. حين كبر لم ينظر للدولة على أنها بقرة خُلق ضرعها من أجلهم فقط، بل هي من أجل الجميع على اختلاف مراتبهم، كان دائمًا أكثر جدية من الجميع و أحسنهم بلاء في الحرب و القرب من السلاطين، لكن هذا الزهد في المؤامرات لم يمنعه أن يرأس حزبًا من العسكر يحميه من نوائب الدهر، سألته زوجه الشابة عمًّا به، ولماذا يذهب إلى سراي (داوود) باشا كثيرا و هي تعلم التوتر بينهما. لم يرد، فقط قبلَّها على خدها وذهب إلى فراش ولده الصغير الذي رزقه الله به بعد زمن طويل من الانتظار فقبله كذلك ثم نزل إلى ساحة قصره ليصحب باشوات حزبه

المتظرين ويطوي في يمينه فتوى شيخ الإسلام بتحريم حج السلطان. دعا الله أن يغلب صوت العقل قبل أن تسيل الدماء بلا رحمة.

***

-«هل قتلته»

لم يرد السلطان، ظل وجهه جامداً إلا من رعشة تسري في شفتيه. لم يرد؛ يعلم أن فعلته ذاعت حتى بلغت أستاذه. توقع أن يضربه الخوجة، أن يثورويغضب. لم يكن ليستنكف ذلك؛ فهو في حاجة دائمة لأب بدلاً من ذلك الذي لم يعره دومًا أي اهتمام. لكن الخوجة الأب لم يفعل. أدار الشيخ ظهره لسلطانه و تلميذه و تمتم بصوت يعبر عن انفطار قلبه: «لقد كان تلميذي مثلك، كنت أحبه مثلك...».

قاطعه صوت تلميذه الواهن: «إنه ليس كما تظن يا شيخي، الـ.. الإنكشارية أرسلوه لتهديدي فخفت على حلمنا أن يضيع. ألم نحلم بأن نعيد أيام عثمان غازي و القانوني؟»

نظر الشيخ بعين دامعة إلى فتاه و قال بذات الصوت: «لا يستويان، الغازي و القانوني لا يستويان. جمع الفاتح بناصية كل شيء ظنًا أنه يعدل ويسير بالسوية، لكنكم يا من جئتم بعده أعطاكم قوة عظيمة تعينكم على الباطل وتغلُّ يدكم في الحق، فما أقبحها من قوة يا سلاطين آل عثمان! اتركني يا ولدي و عد إلى قولارك فعلام اختلفتم و أنتم متفقون؟ اتركني يا بني فلست (أده بالي) جديداً. ليس لمثلي مأوى سوى سحيق الوديان أو

قمم الجبال». جر رجليه خارجًا من غرفة العرش. ناداه تلميذه برفق ثم بغضب، برجاء ثم بأمر، لكن الخوجة واصل سيره حتى خرج إلى غير عودة. شعر السلطان بالدم يتصاعد بقوة إلى رأسه و آلام عظيمة تجتاحها. وقف متسمراً في مكانه لا يدري ما يفعل. عصفت به مشاعر شتى وانفجر بارود الظنون و الخيالات.

- مولاي، فتوى شيخ الإسلام أرسلها (علي) باشا و الإنكشارية خارج القصر ينتظرون ردكم.

هنا وجد فرصته الأخيرة ليخرج ما به من غضب و حزن. أخذ الرسالة و مزقها ثم ألقاها في وجه الطواشي ليخرج بسرعة حامدًا الله أن رأسه لا زالت فوق جسده لم يطح بها غضب السلطان.

الإنكشارية عرفوا

الجيوش تحتشد بعيدًا

شيخ الإسلام أفتى

قُتل (محمد)

الخوجة تركك

الكل ضدك، الكل تخلى عنك. وحيدًا أعزل أمام من لا يراعون فيك إلاً ولا ذمة. غرفة العرش الكبيرة تضيق عليك و تطبق جدرانها على جسدك. تسمع بأذن ظنك وقع خطوات الثائرين في جنبات السراي. يدك

تتحسس عنقك من الخوف. رباه! إن هذا أكثر مما تتحمل أعوامك الثمانية عشرة. ترمي بعباءتك و عمامتك لعل ذلك يطفئ نار جسدك. يشق العرق طريقه على وجهك و تتراءى لك صور الظنون القاتمة، كلها تعني الهلاك.

***

-«ماذا كان رده؟» قالها (داوود) باشا كأنه يعرف الإجابة، لكن (علي) باشا ذا الوجه الممتقع حاول أن يبدو غير مهتم و هو يقول: «إنه حاد المزاج اليوم و الطواشي شاهده و هو يتشاجر مع شيخه فلربما تلك بادرة خير...»

-«ماذا كان رده؟» رددها (داوود) بإصرار.

-«مزّق الفتوى و ألقاها في وجه الطواشي، أليس هذا ما تود سماعه؟»

تجاهل الأغا الغضب البادي على وجه أقدم قواد الإنكشارية و قال في ظفر: «سيحسم هذا تردد العلماء و يؤكد لهم أن نزولهم معنا في ميدان الخيل كان قرارا صائبًا، فحقًا ما أجرأه!».

-«العلماء ما نزلوا إلا لإصلاح الأمور يا داوود و ما حدث الآن لحظة غضب و سيعود للسلطان رشده بعدها، فما سبق لسلطان أن جابه ثورة أيدها المشايخ».

توقف (علي) باشا لحظة ثم أكمل بنظرة ذات مغزى: «كما لم يسبق للإنكشارية أن آذوا سلطانهم أو مسوه بسوء».

فهم الأغا مُراد (علي) باشا فرد متصنعًا الحكمة: «بالطبع يا باشا، ولو راجع السلطان نفسه ووافق على رسالتي التي أرسلتها الآن مع أحد الجنود

و سلّمنا الوزراء و الصدر الأعظم و كبير الطواشي السود و الخوجة، فأعدك أن نتصرف من أمام القصر و ينصرف الثائرون من ميدان الخيل».

بُهت الكمانكش ثم احمرّ وجهه من الغضب و صاح في الأغا قائلاً: «أتريد قتل كل هؤلاء؟ ولماذا لم تطلب رؤوس جواري الحمام كذلك فربما يوغرن صدر السلطان علينا؟ أقسم إنك لا تريد سوى استثارته وستجلب اللعنة علينا جميعا بما تفعل، فقد دبرت أمرًا لم يسبقك إليه أحد ولا تدرك عاقبته».

ودّ الأغا لو يصيح، لو يطيح بمحدثه العجوز و يصرخ في وجهه مُحدثًا إياه بنواياه و تدبيره، لكنه لم يفعل لأنه يعلم مكانة (علي) باشا وأن بقاء سلطانه ونفوذه مرتبط برضا القواد عنه حتى لو فاقهم في عدد الأطواغ والمرتبة، وهو الآن في السابقة التي يفعلها يحتاج إلى كل ذي قوة ليعضده. لذا فقد تجاوز صياح الباشا و قال مستأنفًا دور الحكيم: «ما دفعني لهذا إلا أن السلطان فعل ما لم يسبقه إليه أسلافه و ما أردت إلا تخليص الدولة من بطانة السلطان الفاسدة».

لكن الطبع يغلب التطبع. لم يملك الأغا الصمت بعد هذه الكلمات وقال بسخرية: «لكن ماذا نقول للجند وكيف نكبح جماحهم و هم يعرفون أن السلطان يريد أن يهلك نسلهم ويستبدل بهم جندًا غيرهم؟».

ثم ارتسمت على وجهه علامات المقت الواضح وهو يكمل: «فلربما تلتمس العذر لهم يا باشا لو أنهم هاجموا قصور الصدر الأعظم ونهبوها و.. واقتحموا قصر السلطان عنوة الآن».

نظر (علي) باشا إلى (داوود) ثم إلى الاضطراب البادي في صفوف الإنكشارية، رآهم من فوق جواده يقتربون من باب الهمايون فعلم حينها أن أغا الإنكشارية لم يصبح درويشًا أو منجمًا كُشفت له أسرار الغيب، وأنه انجر إلى مؤامرة دُبّرت بليل وصارت الفتنة قدرًا لا ينفع معه أي حذر.

***

خطوط سوداء و خضراء، رموز لجبال و هضاب وبحار ومدن تشابكت على رقعة كبيرة لترسم دولة آل (عثمان). تفحصها (دلاوار) باشا والي ديار بكر متأملاً علاماته الحمراء و قال مفسرًا لـ(أباظة) باشا: «الجند الكردية على أتم استعداد، فهم قوم حرب منذ الأزل و معاركنا و عطاؤنا ستلهيهم عن محاولات الرافضة استمالتهم. إنهم مستعدون للتوغل في الأناضول مع جندك فهل جمعت العدد المطلوب؟»

-نعم، كانت هناك مشكلة في البداية. فكرت أن أدرب الأرمن لكن ذلك قد يكون أكثر ضررًا، لذا استعنت بالفلاحين و الحطابين و قطاع الطرق....

اندهش والي ديار بكر من كلام (أباظة) باشا الذي قال في حزم: «أعلم أنهم لصوص، لكنها ثورة يا باشا، سلطان ينقلب على نفسه، دولة جديدة تُصنع و جيش يحل محل آخر. إنها معركة نحارب فيها من عصانا بمن أطاعنا حتى لو كان من أطاعنا الشيطان نفسه».

تنهد والي ديار بكر في استسلام و قال: «حسنا، لنكمل الخطة».

ثم عاد يشير إلى الخريطة وقال: «الجند المصرية و المماليك المختارون سيجتمعون في قلعة المعظم في تبوك عدا بعض منهم تحسبًا لغدر والي مصر والفتك بإنكشاريتها. تبقى الجند الشامية وهي ستحتشد في قلعة البرك بالقرب من بيت لحم. وفي النهاية ننتظر أن يأتينا السلطان بحجة الحج وتأديب أمير الدروز المتحصن في الشام، هذا سيبرر وجود المصريين والشاميين، بعدها ننقض على الإنكشارية الذين سيصاحبون السلطان على حين غرة، ثم نغزو الأناضول ونشق الطريق لأدرنة حاضرة السلطان الجديدة بالترك والكرد محاصرين إسلامبول في الطريق لنعزلها عن باقي السلطنة، ما رأيك؟»

قطّب (أباظة) باشا و قال بصوت أجش: «خطة ممتازة يا باشا، لكن يؤسفني أنها لن تتم». استوضح (دلاور) باشا والي أرضروم متوترًا فأجاب: «تنامت إليّ الأخبار أن شيخ الإسلام أفتى بعدم جواز حج البادشاهات قبيل وصولك بيومين، فيبدو أن السلطان لم يأخذ حذره كما نبهته فكُشفت خطتنا على أسوأ الفروض. نحن معرضون لأي هجوم من السباهية الآن إذا كانوا يتمتعون بالسرعة و الحزم الكافيين، و هذا أيضًا أسوأ الاحتمالات. يجب أن نتحرك من فورنا إذن و نمنع أي أذى قد يصيب السلطان أو أي صلح يجري معه على حسابنا».

-«ماذا تقول يا باشا؟ الأمر يحتاج مزيدًا من التجهيز و الترتيب، نحن لا نتحدث عن الأناضول وحدها بل مصر و الشام».

أشار (أباظة) باشا (لدلاوار) باشا بالصمت ليقول منهيًا الحديث: «فات الوقت يا باشا. أعلم أن جنودي الآن يتجهزون للهجوم على أرزنجان.. لم نعد نملك ترف الخيار فإما أن ننفذ خطة السلطان...».

ثم أخفض رأسه و أردف: «أو نرفع قميص عثمان».

***

«مولاي البادشاه».

انتفض السلطان في رعب، لكنه هدأ لما رأى (محمود) باشا قائد حرسه يربت على كتفه محاولاً التظاهر بالهدوء. قال: «هون عليك يا مولاي. يجب أن تخرج الآن فالوضع جد صعب».

رفع السلطان رأسه بصعوبة شاعرًا بفتور في كل جسده و قال في تلعثم: «أين هم الآن؟»

-لقد أثارهم رفضك فتوى شيخ الإسلام و تسليمك حاشيتك لهم، فاخترقوا باب الهمايون و الديوان و هم الآن على مشارف باب السعادة. يبدو أنهم قادمون إلينا.

-وهل يجرؤون؟

-لا أحد يعرف يا مولاي ماذا يمكن أن يفعلوا، لقد جنُّوا تمامًا و الحرس السلطاني يتراجع أمامهم و لا نستطيع سوى أن نؤخرهم لبعض الوقت.

أُسقط في يد السلطان فزال عنه كل عناد و كبر. لم يعد سوى صبي خائف لا يرجو سوى النجاة بنفسه فقال -لأول مرة- بخوف: «هل سيقتلونني؟»

أجاب الباشا في حزم: «لن أسمح لهم بذلك يا مولاي، أقسم أن أموت قبل أن يمسوا ذاتك الشاهانية بسوء، سأحصد من استطعت بالمدافع، لقد أرسلت فارسًا إلى أرضروم يسبقك إلى (أباظة) باشا. عليك أن تخلع الآن ثياب السلطنة و تلبس ثياب الخدم».

ثم أشار إلى البحر وقال: «هناك قارب ينتظرك عند المرسى السلطاني، اركب جوادي بالخارج لتصل إليه. بعد ذلك أبحر بحذاء الشاطئ حتى تبتعد عن القصر وتنزل في إسلامبول نفسها، وعند السليمانية ستجد أشجع فرساني ينتظرك ليرافقك إلى أرضروم». شعر السلطان الصبي بغصة في حلقه و هو يسمع هذا الكلام و تملّكه اليأس أكثر و أكثر لكنه لم يستطع أن يمنع نفسه و يسأل: «والعامة؟ أين العامة من كل هذا؟ أيتركوننا للإنكشارية و نحن نريد دفع الظلم عنهم؟»

-لا وقت لهذا الكلام يا مولاي. لم يكونوا معنا في أول الأمر ليعضدونا في آخره. إنهم خائفون و الحوانيت أغلقت و الناس حبسوا أنفسهم في بيوتهم و ميدان الخيل يعج بالجنود و العلماء .

ثم أمسك الباشا بيد الصبي وقال في صرامة: «مولاي يجب أن ترحل الآن فلا وقت للحديث».

سار السلطان صاغراً منكس الرأس و قد أولى ظهره لمملوكه الذي تبدل صوته من الصرامة إلى الحزن قائلا: «مولاي، بعدما يظهرك الله على أعدائك و تدخل إسلامبول مرة أخرى بجندك، لا تترك جسد عبدك ممثلاً به وادفني في تربة آيا صوفيا المباركة».

التفت إليه السلطان ثم أشاح برأسه بعيدًا ليخفي دموعه التي جاوبه فيها الباشا المملوك. واصل سيره وصوت صليل السيوف و انفجار البارود يخبره أنه لأول مرة يُستباح قصر السلطان. ***

فهم كبير الطواشي السود إلى أين يتجه الإنكشارية. لا ينهبون شيئًا لأنهم يعرفون أن قصر السلطان غير قصر الصدر الأعظم. لا يحصدون سوى أرواح الحرس في طريقهم لمرادهم وغايتهم.

عرف أن الخيانة دبرت كل شيء بعناية؛ صوت المدافع التي صمتت يدل على هذا. أدرك لمَ هرع الإنكشارية إلى جناح الحريم. ركض ممسكًا بخنجره الطويل، ووقف على أبواب الحريم الأربعة التي لا يدخلها إلا رجل واحد وأشباه رجال؛ سلطان و خصيان. ارتجفت شفتا (سليمان) أغا وهو غارق في هواجسه تلك. حين أفاق و هو صبي فرأى نفسه مخصيًا، أصابه شلل مؤقت وانحسر تاركًا أثره على شفته ليذكره أنه مهما عاش في حياته فلن يكون هناك ألم مماثل أبدًا في حياته الرغدة القادمة، حتى إذا غضب عليه السلطان، فما العقاب إلا نفي مريح إلى مصر. لكنه الآن أدرك أن هناك آلامًا أشد هولاً في الطريق.

الإنكشارية لن يرحموه بعد أن رفض مجاراتهم في مؤامراتهم. لم يحدوه في ذلك حب وإخلاص قدر ما يحدوه رحيل (إبراهيم) أغا صاغراً إلى مصر. أخطأ الحساب وجاء يوم الحساب. سمع صراخ الصدر الأعظم في الإنكشارية على مشارف الحريم. صوته أظهر شتات عقله بين قصوره المنهوبة وسلطانه المختفي و الخيانة التي فتحت للفتنة الأبواب.

مضى صاغراً معهم من قصره علّه يئد الفتنة، لكن الأغا يعلم أن الصدر الأعظم سيخفق. إن الأمر لا يحركه إنكشاري مجنون فحسب، بل هناك من دفعوا المال و الوعود و استغلوا حماقة السلطان لتنفجر غضبة لا مثيل لها بين الجنود. تدافعوا، هجموا، طوفان من السيوف اجتاح كل شيء.

-ابتعد أيها الخصي.

أطل وجه أغا الإنكشارية المقيت لكن أغا الطواشي حاول أن يظهر رابط الجأش بين خصيانه و قال في جلد: «أنا أغا باب السعادة يا أغا الإنكشارية و لا يحق لكم أن تطلعوا على حريم السلطان».

سرت همهمة بين الجند و تردد بعضهم، لكنهم رأوا سيف الباشا ينغرس في قلب الطواشي و هو يقول في ازدراء: «الأغا تُقال لمن يمسك بالسيف لا من يمسك بالـ. . . .».

تراجع الأغوات السود في هلع بعد مقتل سيدهم وأفسحوا الطريق للجند ليؤدوا مهمتهم الأخيرة.

***

رؤوس تطايرت و دماء سالت، جياد وثبت و سهام انتشرت كالجراد ثم خيانة في اللحظة الحاسمة. كل شيء تم وفق الخطة. ها هي أرزنجان تسقط في ثلاثة أيام.

غسل (أباظة) باشا يديه ووجهه من غبار المعركة، ثم التفت لقائد جيشه الذي سأله عن الخطوة التالية، فأجاب: «نبيت ليلتنا هنا ثم نسير إلى طرابزون فأماسيا و نتحصن هناك».

-لكننا سنترك ثغرات وراءنا في هذا التقدم السريع.

-نسدها بالسياسة، يجب أن نستغل المفاجآت، فيبدو أنهم لم يحتاطوا كما يجب ظنًا أن كل شيء بيد السلطان، فجل الجنود من السباهية و كبار قوادهم رحلوا فجأة إلى إسلامبول. لا تنس كذلك أننا لا نهجم وحدنا فدلاوار باشا سيهجم بجيشه كذلك.

-إلى أين؟

-لا شأن لك إلا بمعاركنا فحسب.

ابتلع القائد نظرات الوالي الحادة وسأل في توتر: «ألن ننتظر أخبار السلطان من إسلامبول؟

-أي خبر يأتي سيكون بعد فوات الأوان. نحن بعيدون هنا. يجب أن نجعل كل الاحتمالات قائمة، السلطان عنيد و سيصطدم بقواد جيشه فإما أن يتمكنوا منه أو يهرب هو منهم».

-يهرب إلى أين؟

نظر الوالي لقائد جيشه و عقد حاجبيه مفكراً بعمق ثم وضع قبضته على شفتيه و قال ببطء: «إما إلى أدرنة أو إلينا، أدرنة فيها كنوزه لكنها غير مأمونة فهي محاطة بالإنكشارية من كل جانب. لا يبقى إذن سوى أن يهرب إلينا».

-كيف يفكر في قطع هذه المسافة الطويلة إلينا و هو لا يعلم أننا بدأنا الحرب.

-لا أدري، ربما تكون محقًا. لكن يجب ألا يمكث بينهم دون قوة تحميه. عليه أن يختفي في أي مكان، وحين تقوى شوكتنا سندبر كيفية وصوله إلينا.

تمتم القائد في خفوت «هذا لو استطاع الهرب» ليتردد ذات السؤال في ذهن (أباظة) باشا، هل ينجو السلطان؟

***

سار متسربلاً بالظلام الموشّى بضوء القمر. مع كل خطوة يخطوها الجواد، شعر الخوجة (عمر) بحوافر شقائه تطأ قلبه وتسحقه بلا رحمة. هل هذا هو الحلم الذي ترك الجبال من أجله؟ لقد صار كابوسًا يطبق على أنفاسه، صارت جنته صريمًا، و هشيم الآمال والأحلام تذروه رياح الأحقاد وحب السلطان. كان في جنة آدم معزولاً في الجبال عن الناس لكنه رام النزول حيث الشقاء والآثام. حسب تلك الجنة من قبل كهف فتية سيهبط منه ليجد قومًا مؤمنين، لكنه لم يجد الورق غير الورِق فحسب، بل وجد

الناس غير الناس، و حين صبر على ما كره و كتم الحقيقة في قلبه، وعزّى نفسه بالأمل حين قُتل أخوه، لم يدرِ أنه يأكل من شجرة الأوهام وأن أوراق شجر الدنيا كله لن يستر سوءته التي تَبدت له الآن . .

ها قد نزل من كهفه راجيًا أن يرى وعد الله الحق بتمكين الصالحين لكنه وجد وعدًا آخر حقًا .

***

قال رسول الله ﷺ : «إن من أشراط الساعة إماتة الصلاة واتباع الشهوات ويكون الأمراء خونة والوزراء فسقة» .

فوثب سلمان رضي الله عنه وقال : بأبي وأمي ، إن هذا لكائن؟

قال : «نعم يا سلمان، عندها قلب المؤمن يذوب كما يذوب الملح في الماء و لا يستطيع أن يغير . إن أذل الناس يومئذ المؤمن يمشي بين أظهرهم بالمخافة ؛ إن تكلم أكلوه وإن سكت مات بغيظه» .

من أصول الحكم في نظام العالم

***

رأى الآن شمعة الأرض تضيء رويدًا رويدًا، ترى ماذا يحل بسلطانه؟

هل أخطأ حين تركه وحيدًا؟ لم يستطع أن يمكث معه لحظة واحدة بعدما حدث، إنه يفعل ما يفعله (أسعد) أفندي؛ يهرب خشية اللعنة، قبض بأجفانه على عينيه و شعر بقبضة قوية اعتصرت قلبه، رأى سراب سلطانه

وهو يرجوه ألا يتركه ويعرض عليه الصدارة العظمى ظنًا أن ذلك يرضيه.

يذكر إجابته على عرض السلطان بصوت منتحب: «أيها البادشاه لا ترسمني صدراً أعظم فسيفي ثلم على الضعفاء، وترسي من خوص لا يمنع دعوتهم عن السماء».

هل أحب (عثمان) حقًا، أم رآه مطية لأحلامه؟

ألم يفز من هذه الفترة الطويلة بشيء حتى بالحب؟

أنزله الألم من على سرج الجواد و مع صعود الشمس في الأفق حث خطواته ليباريها في هذا الفضاء الموحش.

ربما يموت آخر الفتية في الطريق، لكن لن يبني أحد عليه بنيانًا أو مسجداً، ربما يجده أحد السائرين فيدفنه أو تأكل الجوارح من جثته. ربما يواصل سيره إلى الجبال و يموت بين عظام الأجداد، لقد ضُرب على الأخية بسوط الفناء و مُحي ذكرهم للأبد من الأنباء.

●●●

[٢٠]

مملحة ودرع حصان وزوجان من الأحذية، قطعان من الغنم والخيل. تركة (عثمان) غازي تحصرها يا مصطفى غازي مع أهل مشورته. تنظر للأخين (أورخان) و(علاء الدين). ترهف السمع لحديثهما الخافت وتنصت: «ماذا تقول بشأن هذا الميراث يا علاء الدين؟»

قال (علاء الدين): «من الواجب على الأمير الذي يتولى رعاية هذه الولاية أن يهتم ويرعى الجميع. إن هذه الأغنام والخيل من حقه ولقد أوقفها أبي على الغزو. أنت الأخ الجدير بأن تحل محل أبيك يا أورخان».

واحتضن أخاه الصغير الذي قال: «وأنت الأخ الجدير بأن تكون وزيري

وناظم القوانين في دولتي. إنني راحل إلى بورصة لأنفذ وصية أبي وأفتحها لأدفنه تحت قبتها».

ثم صمت هنيهة وأردف: «أنت تعلم أن الرعايا سيتحاكمون إلي وأنا على السفر ولا علم لي بالأحكام الشرعية فعين لي واحدًا من طلبتك ليسافر معي ويحكم بين الناس عند الحاجة».

فكر (علاء الدين) مليًا ثم أشار لأحد تلاميذه بفخر: «هذا (خليل الجندرلي) يا (أورخان) من أنبغ تلاميذي وأكثرهم ذكاء وسيكون لك خير معين وناصح.....».

طرق.. طرق.. طرق..

تسمع الطرق على باب قفصك فجأة. تشعر بنفسك تُنتزع مما حولك كأن روحك تخرج من حلقك. آلام رهيبة تحف رأسك. تسمعهم يقولون: «افتح يا مولاي».

ترتجف، تطرد «مولاي» كل أثر للتجلي من قلبك. تثبت بصرك على العارضة التي تسد بها بابك وتتمنى ألا تنكسر للمرة الثانية.

ماذا أصاب هذه الدنيا؟ ماذا يريد هؤلاء هذه المرة؟ هل قتلوا (عثمان)؟ لم لا يتركونك وشأنك تناجي ربك وتتنسم ريح العيش مع الأجداد؟

تنزوي في ركن غرفتك وتصيح بصوت عال: «اذهبوا.. مصطفى يريد القرآن ولا يريد السلطان».

تتشبث بمصحفك الأحمر تخشى أن يثب منك كقلبك. تكرر كلامك مرات ومرات، لكنهم لا يتوقفون عن الطرق كأنهم صُمُّوا. ترى بلطة تطل من بين الباب تتلوها أخواتها فيتهشم سترك الخشبي. تدفن وجهك في الحائط كاتمًا أنفاسك. تتمنى ألا يروك كما أنك لا تراهم. تتوالى ذكريات الأشهر الثلاثة التي أخرجوك فيها سلطانًا.. الكل يتملقك ويسخر منك في غيبتك. يسموك دلي[1] مصطفى، يحكمون خلافًا لكل دين وكل ذلك باسمك.

اللعنة عليهم لماذا يريدون عذابك؟ أضنّوا عليك بمحبسك الذي تأنس به؟ تشعر بهم يحملونك مرة أخرى. تقاوم محاولاً التملص، ترفرف بذراعيك لتطير بعيدًا لكنك تفشل. تبكي، تتشنج، تتهيب أن تلمسك الشمس بعد سنوات من العزلة. تفقد وعيك وآخر ما تراه مصحفا مُلقى على الأرض.

***

هنا ميدان الخيل، حيث التقت آثار الأمم السابقة. استعمله الروم قديمًا ميدانًا لسباق الخيل ليصير عند بني (عثمان) اليوم ميدانًا تتسابق فيه الأطماع ويُقتسم فيه النفوذ. ثمّة مسلة مصرية من أيام الفراعنة نُقش عليها صورة فرعون يشكر وثنه على عظيم الانتصار. أما عامود (قسطنطين) المغطى بالمعدن النفيس قديمًا، ظلت آثار الحرق على حجره العاري شاهدة على غدر اللاتين الذين نكلوا بالروم باسم الصليب منذ زمن مضى. التف

(١) قاضي القضاة.

عامود الحيات النحاسي الأصفر حول نفسه واقفًا في الميدان لينتهي برؤوس حيات ثلاث ظن من بنوه قديمًا أنه يطرد الحيات، لكن بدا اليوم أنه يجذبها وبنفس العدد.

وسط كل هذا لازالت القازانات مقلوبة بيد الإنكشارية. لم ينسوا أن أسلافهم طهاة ولـمَ ينسون؟ يذكّرون أنفسهم أن أحدًا لن يستطيع سلب شيء منهم أو يعيدهم إلى ما كانوا عليه.. حتى لو كان السلطان. احتشدوا وجامع السلطان (أحمد) خلفهم يشهد الثورة على ولد بانيه. احتشد المشايخ كذلك إلا بعضهم قبع في الزوايا يقرأ القرآن والبخاري لعل الله ينجيهم من النازلة، لا يدرون أستدرجهم خبث الإنكشارية أم حميّتهم وخوفهم على السلطنة. شاركهم قلقهم العامة في البيوت؛ فالخشب واللبن لن يقفا حائلاً أمام الإنكشارية لو شعروا أن ليس لديهم ما يبقون عليه. رجوا لو أن ما يتردد عن عزم السلطان حق، شريطة أن ينفذه بنجاح، لكن الإنكشارية بدوا الأسرع والأقوى؛ في البداية انتشروا بسلاحهم حول إسلامبول خارجين من ثكناتهم وزعموا أنهم يصلحون جسور المدينة، ثم اتضح الأمر بعدها بمهاجمة قصر الصدر الأعظم والسلطان.

لن تعود السلطنة كما كانت قبل هذا اليوم، خاصة حين سمعوا أن الخيانة قبضت على السلطان عند السليمانية.

هاهو ذا يسير ذليلاً على جواده، ثيابه ممزقة ولا يغطي رأسه سوى عمامة

أعطاها له أحد السباهية كي لا يسير بينهم حاسر الرأس. اتحدت الإهانات والسخرية مع قرع القازانات لتصيح صيحة العصيان والمروق. تعثر جواده فوق جثث رجال كلهم رجاله؛ الوزراء وكبير الطواشي و(محمود) باشا. تذكر وصية الأخير وبكى حتى مر فوق جثة الصدر الأعظم (حسين) باشا مقطوعة الرأس فصاح: «إنه مظلوم لا ذنب له في شيء. لو اتبعت مشورته لما وقعت في هذه المحنة أبدًا».

رفع وجهه وخاطب العصاة محاولاً التماسك قائلاً: «يا قادة الإنكشارية والسباهية..».

لكنه سرعان ما انهار وقال بصوت يمزق نياط القلوب: «ماذا تريدون مني؟ لماذا لا تسامحونني؟ يا من كنتم آبائي، يا سيوفي المشهرة على أعدائي. إن سلطانكم قد أخطأ واستمع لنصائح خرقاء فلم لا تصفحون؟»

نظر الجند إليه كأنهم يرونه لأول مرة ورق عقلاؤهم لسنه الصغيرة وصاحوا: «لا نريد حكمك ولا دمك».

ثم صاح الإنكشارية جميعًا كأنهم اتفقوا: «يعيش السلطان مصطفى خان»، لتثور ثائرة العلماء وقالوا كيف يُولّى من أفتينا بعزله!

شعر (أسعد) أفندي بهذه النهاية مبكرًا، حاول أن يفزع إلى الصلاة ويهرب من هذا الزحام لكن لا مخرج ولا ملجأ، هل كان (عمر) أفندي محقًا أم واهمًا؟ هل ما فعله كان من أجل الدولة، أن يخضعوا لمن غلب أيًا كان حتى لو جلد الظهر وأخذ المال. جلس مستسلمًا هذه المرة للعنة التي

طاردته طويلاً، جلس عالمًا أن قدميه لن تحملاه مرة أخرى، سقط وسط ضجيج العلماء المستمرين في صياحهم، لكن سيوف الإنكشارية أعادتهم إلى صواب (داوود) باشا الصدر الأعظم الجديد وصواب وزرائه الذين عينهم بعد مزاد سريع. أمر الصدر الأعظم بعد سكوت المؤيدين باقتياد السلطان المخلوع إلى سجن الأبراج السبعة ليُسجن سلطان بيد جنده لأول مرة منذ قيام الدولة. نظر المخلوع نظرة متحسرة لشرفات بيوت العامة. ظن أنه (الحسين) سائرًا وحده في فجاج كربلاء. أرجع البصر كرة أخرى يستوضح وجوههم.. علم أن قلوبهم معه، لكنهم لا يملكون حتى سيوفًا ليكونوا عليه.

***

تشعر بحالة من التيه أيها السلطان الجديد، لا تغيب عن وعيك ولا تعود له. أيد غليظة تقودك إلى عربة تسير بك إلى مسجد غريب، فيه المصابيح تدور كالأفلاك حول شمسها، تسمع من حولك يقولون إنه مسجد (أيوب شمس الدين)؛ الصحابي الذي بركت ناقة النبي عند بيته فبات في بيت الرجل المتواضع وبنى مسجده في البقعة التي بركت فيها الناقة المأمورة.

تقترب من المحراب وترى شيخًا مهيبًا يمسك سيفًا ينسبونه لـ(عثمان) غازي. تجد المسجد من حولك يتبدل وتمضي عبر الصحراء وسط الموكب. كسرى يسير في عربته الشاهانية يجرها عشرة بغال، على عباءته السندسية جلد النمر رمز العدل الذي رفعه (كاوة) الحداد في وجه طغيان (الضحَّاك)،

وعلى رأس كسرى تاج من سبعة طوابق رمز السماوات السبع تمايل فوق رأسه كالهودج.

معه ألف فارس وعشرة آلاف عبد أسود وعلى يساره سار موبذ الموبذان[1] على حمار له وردتان في أذنيه.

تهادى الموكب خلف الطاووس المقدس الذي وقف لبرهة وعبث بمنقاره في التراب فتوقف الموكب بغتة، ونظر كسرى لموبذ الموبذان فأخبره أن هذا هو المكان المنشود.

كانت أرضًا فضاء فيها بعض النخل وكوخ من الخوص. أشار كسرى بيده للعبيد أن يذهبوا للكوخ فيهدموه ومن بعيد سمعوا أحد الفلاحين يستغيث. أمر كسرى بأن يمثل الفلاح تحت قدميه وقال موبذ الموبذان مفخمًا صوته: «أبشر أيها الفلاح إن كسرى سيبني قصره هنا».

-وبيتي أيها الموبذ، ماذا سيحل بي وبنخلي وعيالي؟.

نظر كسرى إلى الفلاح في ملل ثم قال: «سأبني لك بيتًا في القصر، ستكون عبدي وواحدًا من بستانيّ الحديقة».

قام الفلاح مذهولاً وقبل قدم كسرى من شدة الفرح، فأبعد كسرى قدميه في اشمئزاز، تراجع الفلاح مذعورًا وذهب إلى كبير العبيد ليختمه بختم العبيد قبل أن يراجع كسرى نفسه.

---

(١) قاضي القضاة.

انحنى موبذ الموبذان على أذن كسرى يذكره بوعده ببناء معبد كبير لـ(أهورا) إله (زرادشت) الحكيم، كان كسرى لا يسمع من شدة وطأة التاج على أذنيه، لم تكن به حاجة لذلك وكل ما يسمعه تملق ونفاق؛ عليه أن يتوقع من هيئة عبيده حاجاتهم المزعجة، فأومأ برأسه في صعوبة تحت وطأة تاج السماوات، انتفخت أوداج موبذ الموبذان في حبور وحرك الحمار أذنيه مجاوبًا سيده.

ظللت تضحك أيها الدرويش من هيئة الحمار وراكبه حتى ظن من حولك أنك سكران، ثم بكيت حتى ظن من حولك أنك تبكي (عثمان).

تشعر بمن حولك يجرونك بعيدًا إلى العربة مرة أخرى ووردتا حمار موبذ الموبذان لا تكفان عن الحركة.

***

تطايرت الأنباء بسرعة وعبرت البر والبحر. عُرف جديد يتحطم منذ قيام الدولة؛ لقد سجن العبيد سلطانهم. أغمض (أباظة) باشا عينيه ألمًا حين سمع الخبر ثم دفن رأسه بين كفيه. قال لقائد جيشه في غضب واضح: «من كانت له اليد الطولى في خلعه؟».

-الإنكشارية.

ظن أن سيده سيسب ويستنزل اللعنات لكنه مالبث أن رفع رأسه وقال: «ما رأيك إن خطبنا في الجند والعامة نلعن الإنكشارية ونطالب بتحرير

السلطان الأسير، ثم نذبح كل الجند السباهية في طرابزون وكذا يفعل (دلاوار) باشا في قيصرية؟»

قال القائد في هلع: «لا يا باشا! ليس من السياسة أن نلعن الإنكشارية ونهاجم السباهية. . نحن هكذا ننتحر».

فوجئ بالباشا يبتسم ابتسامة غامضة ويقول: «آمل ألا يفكروا بغباء مثلك».

همّ القائد بسؤال الباشا عن مراده، لكن نظرة حازمة ذكرته بأنه لا شأن له إلا بالمعارك فحسب فتراجع عن السؤال وإن لم يستطع التراجع عن حيرته.

***

قيصرية. . .

الكتب المكدسة حوله احتلت بصره وأخذت جلبة المنية بسمعه. جلس (سليمان) أفندي وحده وسط الكتب. لقد ضاع كل شيء؛ مات الأمير وهرب (أرطين) وسُحق الأفندية تحت سنابك الخيل وذرف (برهان الدين) بضع عبرات ثم عاد لإسلامبول لاحقًا بـ(يحيى) أفندي. هاهي المدينة يجتاحها جيش (دلاوار) باشا يطلب الثأر للسلطان فمن يثأر لأميره؟

أتطير أوراق الكتب لتقطع بأطرافها الحادة الأيدي والأعناق؟ لن تستطيع. قصف المدافع يصل الآن إلى دار الكتب والمشاعل تخترق النوافذ كالشهب تخط على الصفحات الحواشي والتعاليق بمداد من فحم.

ماذا عساه يفعل؟ لا شيء في الأرض قادر على أن ينجيه، هو نفسه لا يريد أن ينجو بعد أن مات ولده وأميره وأحب الناس إليه. اشتاق لرؤيته وعناقه، اشتاق لأن يحادثه ويحاوره. سما الأفندي بروحه فوق الأصوات والأضواء، رمق النيران بعين تائهة وهي تضيء المكان بلون القهوة اللامع، مال برأسه يمنة ويسرة، خلع العباءة من على جسده وعرى قدميه من الخفين. فرد ذراعيه ببطء، مال برأسه إلى اليمين، دار بتؤدة حول نفسه وأبيات المثنوي والرباعيات تُسكب في أذنيه. رقص رقصة السماع الأخيرة، تصور حمامًا سرمديًا يطير من حوله حافًا جلبابه الأبيض. يشعر بالوجد للمرة الأخيرة.

ممتلئ بك

جلدًا، دمًا وعظامًا وعقلاً وروحًا

لا مكان لنقص رجاء أو للرجاء

ليس هذا الوجود إلاك

***

أدرج على أرض عاري القدمين أذهلها بالدوار

فهي حبلى بالمرح والبراعيم

ربيع مصطخب يرتقي نحو النجوم

والقمر ينشده مما يدور

***

أقول ما في خاطري لا بد أن أفعله تقول مت

أقول إن زيت قنديلي صار ماء تقول مت

أقول إني كفراشة أحترق

إلى شمعة وجهك تقول مت

(من رباعيات جلال الدين الرومي)

***

تدلت الكرة الذهبية أمام بصرها مباشرة. رأتها من ثقوب نافذة برج العدل الذي يشترك جداره مع جدار الديوان الخلفي.

أخيراً عادت، شعرت بالظفر، بالنشوة. أقسمت يوم خرجت من السراي أنها ستعود. كانت تشعر بحمق «كنج»، وطيشه، لكنها خشيت إن عُزل أن يلي (محمد) الحكم وهي لا تعرف مقاتله. لكن السلطان حقق لها كل أمانيها قبل أن يخلعوه. قطعت كثيراً من الوعود وأنفقت كثيراً من الكنوز لتستعين بـ(كوسم) التي ولي العهد ابنها مراد. (داوود) صار صدراً أعظم يقبض على الدولة بقبضة من حديد ويلحق رجالها بالمراتب العليا لتتفق مع الأموال التي أخذوها ثم التي قدموها رشاوى ليكونوا أصحاب اليد العليا في العهد الجديد. لكن جل ما تخشاه الآن أن. . .

-ماذا تقصد بمقالتك يا باشا ألم ننه الأمر في ميدان الخيل؟

كلمات (داوود) باشا الغاضبة قطعت حبل أفكارها واستثارت حواسها لتنصت لـ(ناظم) باشا وهو يقول: «أنا من قادة السباهية يا (داوود) باشا،

ولست وحدي المعترض. كما أن العلماء غير راضين عن عودة السلطان مصطفى ولا أرى بدًا والبلاد مضطربة بعد ما حدث سوى أن نطلق سراح السجين فلا شك أنه عاد إلى رشده»

رأى الصدر الأعظم الموافقة في وجوه بعض القادة فقال في غضب متلعثمًا: «أطلقه ليبطش بي... بنا؟».

جال (ناظم) باشا ببصره في وجوه إخوانه من قادة السباهية وتابع بلا اكتراث: «السلطان علم الآن أنه لا سيف له سوانا».

ثم هز كتفيه وقال في برود: «كما أنه لن يؤاخذنا بما فعل السفهاء منا خاصة حين يخوض رجالي من أجل هؤلاء العصاة حربًا لا هوادة فيها في الأناضول».

هنا تشابكت حبال فكر السلطانة والصدر الأعظم عبر نافذة برج العدل، ورأوا بغير اتفاق أن آخر عُرف وضعه الفاتح يجب أن يُكسر وأن على ملك الموت أن يقطف روحًا جديدة، روحًا شاهانية.

●●●

[٢١]

بعيداً عن كل شغل تقف وحيداً في الحديقة يا مصطفى خان. النسيم الحريري الأزرق ينزلق على وجهك ويسري في أوصالك، يثقل جفنيك وينبض في جسدك برعشة خفيفة ويغمرك بفتور لذيذ. تتلفت حولك فلا ترى سوى الصمت. يبدو أن الكل يحرص على رضاك هذه المرة فتركوك وشأنك. لم تعد مسجوناً في العباءة الشاهانية فترى من عظم همك سَوءة الأجداد ولم تعد مسجوناً في قفصك فتنفق وقتك في مرأى فضائلهم. صار لك عالم جديد لا يصحبك فيه سوى (قسمت) ذلك الخصي الأبيض الذي ظل يخدمك في صمت منذ خُلعت. تتأمل الحديقة موطن الذكريات، ترى طفلين يمرحان بين الزروع؛ أحدهما طويل نحيف والآخر

صغير بدين. تراهما يجريان بين أزهار الخزام وأشجار السرو. تشعر بحنين غريب لذلك الصغير. وجدته مرات يبكي وحده بين الأشجار يقول إنهم حجبوه عن أخيه. لا تعرف من هم، لكن يبدو أنهم آذوه كثيراً. يملأ الدمع عينيك. إنه ضعيف، وكل ما يحتاج إليه أن يحبه الناس ويعطفوا عليه. ينتابك الحزن من أجل الصبي فيثير في نفسك أحزانًا أخرى؛ ترى الحدائق من حولك جنات شوك.. ها هي قطعان الغازي تكاثرت قصوراً وذهبًا وفضة وأراضيَ شاسعة لكنها جعلت عائلته أتعس عائلة على وجه الأرض. سالت بينهم الدماء أنهاراً وجعلت الأخ غير الأخ والابن غير الابن. حتى الأم تريد أن تغشاه بالجواري فيطردهن. إنه في نظرها محض تيس تريد نطفة منه تصير سلطانًا يضمن بقاءها على العرش لسنوات وسنوات. هل أنت مجنون مثلهم لتنجب أبناء يقتلون بعضهم بعضًا؟ يكفي ما أنت فيه من انكسار روح وعقدة لسان. حسبك أنك لا تعبر عن فرحك إلا بابتسامة باهتة وعن غضبك بأن تشيح بوجهك دون أن تملك إمساكًا لفرح أو صرفًا لحزن. يشهد حالك على بعض الرحمة في قلوب بني (عثمان) أن أحدًا حبس أخاه وأبقاه حيًا لم يقتله!

يقولون إن الدراويش يُبكمون ويعيشون في عالم آخر لأنهم يعرفون أكثر مما ينبغي، يعرفون ما لا يطيق معرفته بشر وما لا يجب أن يعرفه بشر.. معرفة لا تشحذ همة أو تقوي نية، بل تكبل العزم وتكسب الهم وتجعل جسد المرء قبراً لقلبه.. يعيش في ملكوت غير الملكوت بعد أن يرتدي

خماراً من جنون، تقوى بصيرته في صمت فتتساقط الحجب أمامه لتبدو شمس المعارف ساطعة أمام عينيه.. نورها لا يضيء له بل يأخذ ببصره وعقله فلا يبوح بأسرارها. هأنتذا أيها الدرويش حُزت دونهم العلم النفيس ويخذلك لسانك في الحديث.

***

صرير الباب الحديدي تسرب إلى أذنيه، تُرى هل انتصر (أباظة) باشا وجاء ليحرره؟ أم أن عقلاء الإنكشارية علموا أن الأحمق لا يمكن أن يحكم مرتين؟ استمع إلى وقع أقدام كثيرة زادت أمله. حاول أن يعدل من هندامه قليلاً ويساوي خصلات شعره المبعثرة، لقد حانت ساعة العودة. فُتح الباب ببطء وفجّر وجه (داوود) باشا و(مير حسين) باشا معاونه كل أحلام المخلوع. هل يجرؤون ويفعلونها؟ أيقتلونه؟ فيما مضى كان يطمئن نفسه بأعراف الدولة، لكنها كُسرت واحدة تلو الأخرى. إنهم قاتلوه لا محالة إذن فلا يموتن كالنساء. كسر قائمة فراشه الخشبية الهشة، ووقف متحفزاً قد نفرت عروق وجهه، لكن قاتليه حين اقتربوا منه رأوا اضطراباً بادياً عليه لوهلة. ذلك لأنه تذكر كلمات فرضت نفسها بقوة على مخيلته...

***

«إنك لا تقتلني بأمر الله أيها البادشاه، بل بهوى نفسك يا أخي وسأتعلق بياقتك يوم القيامة بعد أن تلقى ذات المصير، لكن ليس شهيداً مثلي».

***

هل يدخل النار كما قال أخوه؟ كلا، لقد فعل ما فعل لدولته وصلاحها فليمت فداء لما أراد. استعد للنزال وهو يترنم ببيت شعر سيؤثر عنه للأبد:

كانت نيتي الخدمة لحكومتي ودولتي

وللعجب أن الحسود يعمل لنكبتي

بدأ الهجوم عالمًا أن لن يستطيع سوى صد أول ضربة وضرب أول مهاجم. تقدموا منه خطوة وأخّروا أخرى. لا هيبة منه، إنما هيبة المقام. أزالت ضربته الخشبية كل توتر عندهم. وقف وحده بينهم يقاتل كأبطال المغازي. استل أحدهم سيفه وهوى على يد لم يحلموا يومًا أن يقبلوها. رأى السلطان يده تهوي على الأرض بجواره وأصابعه المقضومة الأظفار المتآكلة الجلد من توتره تتحرك وتتذبذب. أمسكوا به كالذبيحة والتف حبل من حرير حول عنقه..

لمسة ساخرة لا يفكر فيها سوى (داوود)، حبل يليق بالعنق الشاهانية. ابتسم ابتسامته الساخرة المعتادة وشد طرفي الحبل بقوة والموت كالبومة يقف متربصًا على قضبان نافذة الزنزانة. ترك (داوود) باشا الحبل ليسقط طرفاه من يده وأخرج سيفه من غمده ثم غرسه في البطن الصغير ليطرب أذنه صوت تمزيق الأحشاء كتقطيع ثمار البطيخ في الصيف، ثم رمق في جذل نقش مقبض سيفه «لا غالب إلا هو» الذي أثنى عليه شيخ الإسلام مرة واعتبره علامة تنسك. قهقه في سخرية لأنه وحده يعرف من «هو»! انتهت المهمة حين خمدت حركة الجسد النحيل

وحمل صورة أصابع اليد المبتورة -وقد سكنت أخيرًا- آخر شعاع انعكس على العينين الخاويتين من سر الحياة.

***

«لم تعد هناك حاجة إلى (داوود) وحان الآن أن تجني ثمرة صمتك واعتزالك الفتن أيها الصدر الأعظم الجديد».

رسالة من جملة واحدة قرأها (علي) باشا بعناية قبل أن يضعها جانبًا.

هذه هي الرسالة التي انتظرها من (كوسم) طويلاً. إن (داوود) لم يبدُ عليه أنه يفعل ما يؤمر فقط، بل يستمتع بما يفعل ويشعر بقوته الآن أكثر من أي وقت مضى بعد قتل السلطان المخلوع، حتى همّ بقتل من يعرفه من رجال (كوسم) وقتل رسولها. لقد تعديت حدودك في نظام العالم يا (داوود) ويجب عليك أن تتنحى.

-«يعلم الله، لولا الدولة ونظامها ما وضعت يدي في يدك أيتها الأفعى».

تذكر أول رسالة منها بعدما سُجن السلطان الصغير، وتلك الياقوتة الخضراء التي جلبها رسولها في صندوق خشبي، في البدء همّ بالرفض ونهر الرسول، لكن وجده انصرف بسرعة كأنه أراد أن يعطيه فرصة للتفكير.

إنه مسؤول عن حزب بأكمله قد ينقلب عليه لو علم رفضه عرضًا كهذا، قد تكون حياته هي الثمن ومستقبل ولده. كان عليه أن يقبل ويحاول أن

يوجه دفة المؤامرات لمصلحة الدولة. انتهى (علي) باشا من خواطره سريعًا وقام ليستقبل ضيفه الذي جاء ليلاً على عجل. . . (يحيى) أفندي شيخ الإسلام الجديد.

***

كثيرًا ما تتبدل الأحوال وتتغير الظروف والمقادير، ويفعل المرء أمورًا لم يتخيل أنه يفعلها، أو يحب أناسًا شب على بغضهم. آمن (قسمت) بهذا وهو يتذكر كيف أُخذ غلامًا وتم إخصاؤه لينشد بصوته الرفيع في الكنائس، لكن العثمانيين غنموه ليصير خادما للسلاطين. لا يجد حجة واضحة في حب ذلك البدين الشاب ومرافقته منذ خُلع حتى عودته، ربما لأنه مسكين مثله أو ربما لأنه يذكّره بأخيه في قريته؛ كان جهلاؤها يضربونه ليخرجوا الأرواح الشريرة من رأسه على غير عادة أهل إسلامبول الذين بنوا المارستانات لمرضاهم. يجوز كذلك أنه أحبه من جملة العثمانيين الذين - ربما - يكونون أفضل من غيرهم؛ فهو لا يجد في قصرهم سوى الراحة والأمان. رغم الدماء التي أُريقت في الفتنة إلا أنه لم يُمسس بسوء على عكس الطواشيّ السود الذين ذُبح منهم من ذُبح بأمر الصدر الأعظم خشية نفوذهم. وها هي دماء جديدة تُسفك وعليه هذه المرة أن يحمل نبأها؛ نبأ موت (عثمان) الصغير. كان السلطان يؤمّل كثيرًا على عودة (عثمان) من أسره ويسأل عن أخباره كل يوم علّ الغازي يعود إلى عرشه ويعود هو إلى قفصه، ها قد ذهبت أحلامه كلها أدراج الرياح. وقف (قسمت) أمامه في

الحديقة بأدب جم وبعد إشارات وتكرار لحديثه أنبأه بالخبر غير عالم بوقع الخبر على سلطانه الدرويش. . لقد ظن أنه سيبكي ويغشى عليه، لكنه جرى بكل قوته كأن جياد الحمم تطارده. .

اجرِ. . اجرِ. . عباءة السلطنة تضيق عليك وإن لم ترتدها وعمامتها تاج من شوك يُجري الدم على صدغيك. لقد قتلوا ابن (أحمَد). روح جديدة تُزهق في السراي لكن هذه المرة باسمك. هل تتحمل أوزارها؟ يالهذا العالم! اجرِ. . لعلك تبلغ جدران السراي فتقفز هاربًا أو تصل إلى البحر ففي زرقته النجاة. تعثر على طفل صغير يبكي، توقفه سائلاً عما به. لا يتمتم سوى بكلمات قليلة: «مصطفى مات، أمي روكسلانة قتلته».

هنا تظلم الدنيا وتضيء مرة أخرى لتفهم كل شيء. ترى نفسك تمشي بخطى واثقة وقد نحف جسدك واستطال. تُرى ماذا يريد أبوك (سليمان) القانوني؟ أفاجأه أنك امتثلت لعزله إياك من أماسيا وجئت ضاربًا خيمتك بجواره في معسكره وهو ذاهب لقتال الصفويين؟ لم يكن أمامك خيار آخر وإلا عدّك خائنًا، وصدَّق الشكوك التي زينتها له زوجته الروسية (روكسلانة). كم يكره هذه المرأة بقدر ما يحب ولدها الصغير (أحمد). تُرى ماذا يريد السلطان؟ أعاد لعقله وعلم أنك ولده الأحب إليه من ولده (سليم) المخمور ابن (روكسلانة)؟ ليس ذلك بغريب، فهو أبوك ويعلم كم تحبه وأنك جدير بثقته، والجند كذلك يحبونك. بيد أنك تعلم أن الأخيرة سبب نقمته عليك. يغيب عنك وأنت تدخل خيمة أبيك في تؤدة أن جدك

خلع أباه من قبل، وآن لأبيك أن يعتبر من التاريخ. لا تجد أباك في خيمته ولا تراه وهو يرمقك من فرجة خفية فيها والجند الصامتون يقتربون منك.

***

«ولا أراها سوى لعنة تصيب بدمي عقبك يا. . . مولاي»

***

تلحظ وجودهم وتستل سيفك، تدافع عن نفسك بشجاعة. زادت الجند ضراوة نظرات أبيك الغاضبة وانقباض أجفانه الحازم على عينيه. خشي أن تنجو وتخرج من الخيمة فيوليك باقي الجند عرشه. تشعر بوتر قوس يُشد على عنقك. تلوح بيدك كالمجنون طلبًا للهواء.

-أفق يا مصطفى، إنه تجلٍ، يجب أن تنتقم.

تقع على الأرض ويلتصق ظهرك بأحد الأعمدة، تتمتم لاهثًا: «مصطفى ضعيف».

-ابن أحمد مات باسمك.

«لا» تصرخ وتتقيأ.

يرتجف جسدك، تريد الهروب إلى التجلي مرة أخرى لكن لا تستطيع. تشعر أن روحك تفارقك لكن يدًا تربت على كتفك فجأة تعيد لك الانتباه.

-«(عزت) أفندي!» تقولها مسرورًا وأنت تمسك بثيابه تتسلقها لتقف. يمسك بك ويقول في رفق: «نعم يا مصطفى. مرت سنوات طويلة منذ

تركتك. ما الذي يحزنك يا ولدي؟».

تطرق برأسك وتنظر إلى الأرض صامتًا لكنه يكمل: «تريد أن تنتقم».

يقولها بذات صوته الهادئ فترد بصوتك المخنوق: «مصطفى ضعيف».

هنا يشتمل صوته بالجد والحزم قائلا: «تلميذي ليس بضعيف وحتى إن كان، فضعف السلاطين قوة يتكالب عليها الجميع. الجند سيشعرون بالذنب كمن قتلوا الحسين وخذلوه، فيقتل بعضهم بعضًا ليرفعوا الحرج ويمنعوا أن يرفع أحد قميصه ويزاحمهم على الغنيمة، إنهم رهن إشارة منك».

تلمع عيناك وتومئ برأسك بشدة لكن لا تلبث أن تقول بخيبة أمل: «كيف أخطب في الجند ليأخذوا بالثأر ولساني لا ينطق إلا أمامك؟».

يبتسم شيخك وهو يمسك بلحيته البيضاء الطويلة ثم يغمز بعينيه وقال: «ستجد لذلك حلاً يا مصطفى... حافظ[1]»، ثم تبخّر في الهواء.

●●●

(١) تُقال لمن حفظ القرآن.

[٢٢]

تصاعد الصخب من جديد، تنحت اللياقة جانبًا وانخرط الباشوات في الصراخ واللعاب يتطاير من أشداقهم. شعر (علي) باشا برغبة عارمة في سد أذنيه والخروج من المكان فارًا بعقله من نقار الديوك هذا، لكن ما العمل والأحوال تزداد سوءًا، وقد أُلقي على كاهله مهمة أن يجمع كلمة قادة السباهية والإنكشارية على رأي واحد ليقفوا ضد أطماع (داوود) المتزايدة.

-لقد وصل شيخ الإسلام يا مولاي.

ها قد جاء (يحيى) أفندي ليزيد الطين بلة ! أشار (علي) باشا لخادمه أن يجعل شيخ الإسلام ينتظر حتى لا يطلع على شقاق الباشوات فيقرعهم كالصبيان ويقرضهم من شعره الحاد.

مرة بعد مرة يأتي هذا الشيخ الطموح ليمد جسور الود معه وكأنه يعرف من أين ستنطلق معارضة (داوود)، هل أرسلت له (كوسم) أيضًا ؟ لا أحد يدري كم من الرسائل تخرج وعليها طغراء «السلطانة».

«ولماذا ننقلب على داوود وهو لم يسلب منا شيئًا ويبذل لنا العطاء؟».

قال (نصوح) باشا منهمكًا في نقاره مع أترابه: فصفق الكمانكش بيديه لينهي الصخب وقال لـ(نصوح) باشا في ضيق: «إذا تركنا داوود يعيث فسادًا في الدولة، فلن يتوقف حتى يسلب العامة منا أرواحنا. وسيكون هذا السخاء وبالاً علينا».

-وهل يجرؤون على هذا ؟.

-نعم، يا (نصوح) باشا. أنتم لا تدركون الخطر الذي يحيق بنا، داوود فقد صوابه؛ إنه يهدم الدولة، وينهب التجار ويرسل رجاله الأسافل من الجواري يأخذن البضائع من الدكاكين لأنفسهن دون ثمن، ويجور على الأوقاف ويجوس حرسه في الناس تقتيلاً بدعوى أن بينهم من يناصر (أباظة) باشا، إنه بفساده يشعر العوام بالذنب أن لم ينصروا السلطان القتيل.

-نقتل داوود إذن وندفع الشر عنا فتخرس الألسنة ولا يجد أباظة باشا ما يقيم دعوته.

كان ذلك (ناظم) باشا، قال عبارته بغلٍّ لم يستطع أن يخفيه بعد أن نكل

به (داوود) ريثما تخلص من (عثمان) فصار هاربًا لاجئًا إلى قصر الكمانكش.

-وحزب داوود. . أتظنهم يتخلون عنه؟

سرت همهمات حائرة بعد هذا التساؤل؛ ليس من بينهم رجل من حزب (داوود)، ولم يحاولوا استمالة أحد منهم حتى لا يفتضح أنهم يجتمعون لتحديد مصير الصدر الأعظم. كلهم يدركون أن رجلاً كـ(داوود) لا يمكنه أن يُقصى ويموت في هدوء دون أن يحرق الدولة بأسرها ويجعلها فتنة بين الإنكشارية.

-سيفعلون.

نظر الباشوات بدهشة إلى شيخ الإسلام الذي ملّ الانتظار فدخل غاضبًا قاطعًا في كلماته واستطرد: «الأمر أكبر من دم (داوود)، إنه نظام العالم يا باشوات. ذلك النظام ليس سلطانًا وتسعة أطواغ، إنه كل حجرة في سراي الطوبقابي، كل طغراء على فرمان، كل ميري يأتي من الإيالات، كل أرض مُنحت لعائلة سباهي، كل عمامة على رأس شيخ، كل خوذة على رأس إنكشاري. نظام العالم هو الذي يجمع كل ذلك على مر العقود الخالية في مسبحة واحدة رأسها عمامة السلطان، والناس يسبحون على هذه المسبحة صباح مساء ما داموا يصيبون الكفاف وما دامت المسبحة تدرؤ عنهم الفتن. علينا ألا نفرط حبات المسبحة يا باشوات وأن نعيد لنظام العالم هيبته، وإلا فسيخرج الناس لا فتوى تعظهم ولا فرمان

يردعهم ولا سيوف تخيفهم، فتُحرق الأرض وتُعفر العمائم وتُشج الخوذ ويستحر القتل، فندخل في فتنة لا يعلم مداها إلا الله. لديكم ما يكفيكم يا باشوات من مال الأمة والأمة راضية صابرة، لا أحد منا يريد أن يدخل في الفتن، أليس كذلك؟».

ابتسم الكمانكش في ارتياح وهو يرى عجز الباشوات أمام الحجة البالغة. قام إلى الشيخ وربت على كتفه مؤمّنًا على كلامه وقال: «موعدنا يوم الجمعة، سيكون الناس ثائرين يريدون الخلاص من ذنب المقتول والقصاص من الفاجر، لكن قبل أن يفعلوا سيجدون شيخ إسلام ينطق بلسانهم على المنبر، وقبل أن يصنعوا السيوف سنقطع عليهم الطريق بسيوفنا ونقتص لهم، فإما أن يخضع حزب داوود وتكون يدهم بأيدينا، ونطمئنهم ببقاء الصدارة العظمى فيهم، أو نلحقهم بسيدهم ونعيد لنظام العالم هيبته».

تنهد شيخ الإسلام في ارتياح بعد تصديق الكمانكش على كلامه، وبينما انهمك الباشوات في تفاصيل خطتهم تحسس (يحيى) أفندي ثوبه الفاخر وسط ديوان قصر الكمانكش المنيف، كل ما حوله يوحي بالترف والنظافة، لكن شيخ الإسلام وحده يدرك أن ثوبه موحول.

***

-أتحتجبين عني؟

صاح (داوود) باشا في غضب كاف لإخراج الجواري من حجرة زوجه.

أمسكها في غلظة لكنها تملصت منه. عيناها متورمتان من كثرة البكاء ووجهها شاحب من طول ليالي الرثاء. حولّت وجهها عنه في حزن وأنفة زادت غضبه وأطارت صوابه. نعتته بالقاتل فقال بسخرية: «قاتل! يا إلهي وماذا كنت أفعل حين تزوجتك يا ابنة السلاطين؟».

زادت في إعراضها عنه، فجذبها من ذراعها في قسوة لتنظر إليه. لم تتخيل أن يحدث هذا لها في يوم من الأيام. في بداية زواجهما كانت تتنازعها الزوجة والأميرة فتغلب الأولى حين تراه يبكي على صدرها دون سبب أو تصدر منه بادرة ضعف، وتغلب الثانية حين يقسو عليها ويسخر منها. لماذا أحبته؟ هل لأنه أول رجل تعرفه؟ أم لأنه لا يكشف عن ضعفه إلا أمامها رغم مكانته وقوته؟ وماذا تريد المرأة أكثر من ذلك؟ لكنها الآن لم تعد تهتم بعد أن سالت الدماء، لقد تغلبت الأميرة إلى غير رجعة. حتى هو أطبقت عليه أغلال روحه وانغرست في لحمه وضارت حلقاتها المعدنية ناتئة في جلده.

أكمل صياحه المجنون: «أنت حزينة لأنه منكم، من آل عثمان، لكن من كنت قاتلهم من قبل لا ثمن لهم عندك. إنهم فلاحون وعبيد أليس كذلك يا أميرة؟ أحزينة أنت من أجل ابن أخيك؟ كم مرة رأيته وكم مرة جلستما معًا؟ لا توهمي نفسك بأنك العمة الحزينة على ابن أخيها كالفلاحين الذين يلتصقون ببعضهم حول النار في الشتاء وينامون تحت دثار واحد. اغضبي كما تريدين لكنك سترين غداً ماذا سيفعل داوود.. سترين».

تركها وغادر مسرعًا. سينتقم من الجميع.. بالأمس قتل السلطان وغدًا السلطنة بأكملها. سيصير سلطانًا كما فعل مماليك مصر مع آل (أيوب). ما عاد يخشى شيئًا وسيكمل ما بدأه ولن يهدأ حتى يرى تلك الدولة أثرًا بعد عين.

***

اكتظ جامع أية صوفيا بالعوام ووقف شيخ الإسلام الجديد (يحيى) أفندي خطيبًا في المصلين.

أنكره بعض الباشوات وبدا أنهم نسوه، فرماهم بنظرات ذات مغزى مرتقيًا المنبر ليذكرهم بتلك الواقعة التي كانت بينهم.

***

-فيم شكواك يا قاضي الروමللي من درويش باشا؟.

-لقد أمرني بقتل رجل دون جريرة يا مولانا السلطان، وحين سألته قال إن مثله لا يُسأل، ولا يجوز أن يوطأ في عهدكم رقاب العلماء من كل فاجر فاسق لا يرعى حدود الله.

بُهت (درويش) باشا من جرأة القاضي في حضرة السلطان (أحمد) وكاد ينسى موقفه، وهمّ بالاعتداء على (يحيى) أفندي، ثم رأى أن الأفضل أن يدافع عن نفسه أمام السلطان، لكنه فوجئ بتجاهل السلطان له وتوجهه لقاضي الروමللي بالكلام: «وما جزاؤه يا قاضي الروමللي؟».

-«يُقتل يا مولاي وإلا ضُيعت هيبة القضاء وهيبة الدولة، كلما استخف قوم برجل قتلوه ولا أرضى وعمامتي فوق رأسي أن يُقتل أحد ظلمًا يا مولاي» .

أومأ السلطان برأسه إيجابًا وأُسقط في يد الباشا وحين سيق للقصاص عُرف (يحيى) أفندي من يومها خصمًا عنيدًا يجب التخلص منه .

***

تذكر (يحيى) أفندي واقعته مع السلطان باسمًا في خبث ذي مغزى، ورمق (داوود) باشا بنظرة حادة متوعدة بالصدام، ها قد دار الزمن ومن أبعدوه إلى أطراف الأناضول يرونه اليوم شيخًا للإسلام يجتمع عليه المشايخ بعد ما شعروا بالمهانة مما فعله الإنكشارية في ميدان الخيل. استثارهم اجتراء الإنكشارية عليهم بسبب (أسعد) أفندي الذي داهن كل فاجر وأزرى بمكانة شيوخ الإسلام. ليتهم لا يعلمون بزيارات الشيخ إلى الكمانكش إذن!

نزل (يحيى) أفندي بتؤدة من على منبره ومر أمام جميع الباشوات واحدًا واحدًا في طريقه لتصدر الصلاة إمامًا ونظر بتوجس لذلك السلطان المتدثر بالسواد، وشرع في الصلاة محاولاً أن يرتب في ذهنه ما سيقوله بعدها من الحديث عن الدم الشاهاني المسفوك. . .

«السلام عليكم ورحمة الله» .

تسلم من صلاة الجمعة يا (مصطفى). أول مرة تصلي بين الناس. تحاول ألا يغشاك خوف الزحام فتداري وجهك بقطيفة سوداء، تلتمس طريقك

مرتجفًا للمنبر مستندًا على (قسمت). عيناك جاحظتان.. تراجع خطبتك التي عاونك فيها شيخك قبل أن يختفي مرة أخرى. تقف على هيئتك تلك تحدق في شيخ الإسلام الجديد. الناس كفوك مؤونة التفكير في بدء الحديث يسألون عن دم السلطان. لا يريدون سوى إبراء الذمة مكتوبًا بالخط الهمايوني الشريف يسقط وزر ما سبق ويرفع أعراف الدولة التي هتكها العصيان. تلوي عنقك وتصيح بصوت جهوري مستمرًا في التحديق في شيخ الإسلام: «يا أيها الناس.. واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين».

ثم تنظر للصدر الأعظم كما سماه من حوله وتقول: «قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورًا واستفزز من استطعت منهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم السلطان إلا غرورًا.

وقتل (داوود) جالـ. (عثمان) ففسق عن أمر ربه في سجن ذي سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم». يتهدج صوتك وتتلاحق أنفاسك غير مصدقٍ أنك تخطب.

ابتسم شيخ الإسلام (يحيى) أفندي ابتسامة ظافرة أن سهلت المهمة لهذه الدرجة.

يقاطعك الناس ويثور اللغط بينهم، ومن كانت له حاجة عند (داوود) قام ليحاجج عنه و(داوود) مذهول يتميز من الغيظ في جلسته.

قام (يحيى) أفندي ورفع يده ليسكت المجادلين. استحضر على لسانه شعراً طالما جلب له المتاعب وصاح في غضب ملوحًا بيده:

«فليكفف المراءون عن الرياء في المسجد

تعالوا إلى الحانة، فليس في الحانة موضع للرياء ولا المرائي»

صمت الجميع دهشة.

تلقي بكلماتك الأخيرة أيها السلطان الموتور: «يا أيها الناس كُتب عليكم القصاص في القتلى، الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى».

تنهي كلماتك وقد بلغ انفعالك منتهاه فتجلس على المنبر لترى سواعد الرجال تحيط برؤوس الفتنة حتى ممن لم يفهموا العربية. تراهم بعين زائغة يسوقون الصدر الأعظم إلى حيث سبق ابن أخيك. تتمتم بكلمات الثناء والشكر وقد ارتخى جسدك بعد طول ارتجاف وإرهاق. تظن أن العدالة أخيرًا قد أُرسيت دون أن تعرف أن أول قبضة أطبقت على الصدر الأعظم كانت قبضة (مير حسين) باشا.

***

-رباه! لقد مات السلطان!

قالها قائد الجيش في أسى قارئًا لـ(أباظة) باشا الأخبار الواردة من إسلامبول. لكن الوالي أدخله بسرعة إلى الخيمة حتى لا يسمعه الجند، وقال في اقتضاب: «اصمت وإلا قتلتك».

لكن القائد تمتم يندب: «لقد ضاعت تضحيات الرجل سدى، ضاعت الدولة الجديدة والجيش الجديد».

-اصمت أيها الغر. أقسم لو أنك هكذا في المعارك لهُزمنا قبل أن نقاتل.

ثم أضاف وعيناه متقدتان: «إن السلطان ذهب لكنه ترك ثأرًا». أخذ قائد جيشه من يده وخرج من الخيمة، ويمم وجهه شطر الصفويين وقال في خفوت وهو يضغط على كل حرف من كلماته: «لطالما كان الأخذ بثأر الحسين أنجح من القتال معه. انظر.. هؤلاء قوم أقاموا دولة على نوح كربلاء وصفين، وحصدوا رؤوسًا لم تشهد أيًا من المشهدين. يبكون حسينهم وهم أول من قتلوه، يزعمون أننا جعلنا من أنفسنا أكاسرة على دم الحسين، وهم يسجدون لكسرى آخر يأخذ لهم بثأره. نحن سنقاتل، فإما أن يكون السلطان الجديد حصيفًا ويعطينا الأمان، أو نرفع قميص القتيل وننذبه، فلا يموت ثأر وراءه مُطالب».

***

مرت أيام كثيرة طابت فيها نفسك. عدت إلى عالمك الجديد القديم. تعيش أوقاتًا من السعادة و أوقاتًا من الشقاء؛ أوقاتا تجد (قسمت) ينظر إليك بحب من بعيد أو تحنو على ذلك الصبي البدين الذي يتجلى لك، أو تأنس إلى (عزت) أفندي قبل أن يختفي في الفضاء، وأوقاتًا أخرى تعلم فيها الشرور التي تُفعل باسمك. في البداية خدعت نفسك وظننت أنك تستطيع أن تغير. نسيت أنك السلطان المجنون الذي تلثم رداءه الشفاه وتزلقه

الأبصار. لا تعرف كنه الشرور التي تُختم بطغرائك الشريف. شرور تُكتب بالخط الهمايوني الذي ييسر كل شيء، ويالها من تسمية، أن يُنسب خطك لذلك الطائر الخرافي (الهما) الذي ما إن يحط على شيء حتى يمتلكه، فهناك من يجارون ذلك الطائر ويملكون بخطك أنت أيها الدرويش السلطان. تشعر إزاء هذه الأمور بالعجز فتهرب تارة للتجلي، أو تنسى أن (عثمان) قد مات، فتدق الأبواب وتنادي عليه أن يعود ويحمل عنك وزراً يشقيك، لكن اليوم مختلف، لقد جاءك (قسمت) بوجه كالذي أتاك به منذ عام. إن أمك تريد أن تقوم بأمر جلل. كلا إنها ليست أماً إنها «سلطانة أم». هذه المرة يجب ألا تعجز وألا تجري. . يجب أن تتحدث، ولمرة أخيرة.

***

قال شيخ الإسلام والشرر يتطاير من عينيه: «لقد طفح الكيل أيها القادة، القازاق يغيرون على شواطئ إسلامبول يروعون أهلها والدروز ثائرون في الشام. أما الكفار فينتقصون من أطراف دولتنا حتى يصلوا إلى القلب، وذلك الأباظة يقود جنده، ومن هرب إليه من مصر والشام يذبحون السباهية في الأناضول، ويرفعون راية السلطان المقتول، فلا أدري ماذا تنتظرون».

قابل الكمانكش وصحبه كلام الشيخ بارتياح كالمعتاد. جولة جديدة تربحها في الطريق إلى الصدارة العظمى كما وعدتك (كوسم) يا (علي)، هل صرت مثلهم؟

عام كامل تتربص حتى عاد رجال (هنداان) يسيرون سيرة (داوود)، فأزحتهم من الصدارة كما فعلت بسلفهم، هل فعلت ذلك من أجل نظام العالم أم من أجلك أنت؟

أما الوزراء فقد نظروا إلى الشيخ ذاهلين من حدته، وقال أحدهم «وماذا تريدنا أن نفعل يا شيخ الإسلام ؟»

-أريدكم أن تخلعوا ذلك الذي أكرهتمونا على بيعته، فجاء بالنكبة لنا جميعًا وبلغت سفاهته أن يجعل سائقًا للحمير صدرًا أعظم ويولي ويعزل أربعة صدور عظام في عام واحد ويؤثر الفسقة بالوزارة، ثم تبلغ حماقته الآن أنه يريد قتل أبناء أخيه فيفنى نسل آل عثمان وهو بلا عقب.

نظر الوزراء إلى بعضهم البعض وقد ألجمتهم حدة لسان شيخ الإسلام حتى تناول السلطان، فقام أحد القضاة ، وكان مريدًا يقرأ القرآن في ليالي رمضان للباشوات يدافع عن السلطان وعن وزرائه وتقواهم حتى شبههم بالصوفية وأنهم أقاموا معه ليلة في صلاة وذكر، فرد شيخ الإسلام ساخرًا: «كم من المريدين لهم البراعة في إجراء الماء تحت التبن الأصفر!».

قال أحد الوزراء متحديًا: «وماذا سيحدث إذا لم نفعل؟».

ثار الجدل في الديوان وتكلم الجميع في وقت واحد فرد عليه (يحيى) أفندي: «سأخرج بالعلماء إلى ميدان الخيل وأفتي بخلع السلطان، وأجمع العامة في المساجد ونغلق الحوانيت ولنر ماذا يمكنني بعدها أن أفعل يا باشا. اعلم أنني لست بالشيخ الضعيف ولا المداهن كمن كان قبلي».

تعالت أصوات كثيرة لكن الكمانكش (علي) باشا غادرهم بعقله كالعادة. كان يتذكر خطوب العام العصيب الذي مر، خاصة ذلك اليوم...

***

-أتقتلني من أجل تلك العاهرة يا كمانكش؟ كنت دائمًا ما أنظر إليك أؤنب نفسي وأقول مازال هناك إنكشاري شريف في هذه الدولة! لكني الآن سأموت مرتاحًا أيها الكمانكش! هل أرسلت لك (كوسم) ياقوتة خضراء مع أول رسالة؟ إنها هديتها المفضلة. أم أنك تابعها منذ البداية تمنعني من قتلك وتستبقيك معززًا مكرمًا بينما أكتسب كل يوم عدوًا جديدًا وسيفًا جديدًا يتوق لقطع عنقي، ثم ترفعك بعدها فوق جثتي.

-«لا حاجة لهذا الكلام يا داوود».

بدا الاضطراب لوهلة على (علي) باشا، فأكمل (داوود) ساخرًا: «أتؤنب نفسك يا كمانكش؟ لا أظن. لا أحد هنا يؤنب نفسه، ستقتلني الآن وتبكيني قليلاً ثم تعزي نفسك أنك تضحي لأجل الدولة ونظام العالم، وإذا رفضت فسيفعلها غيرك ولن يكون بمثل حكمتك، أليس بهذا أوقعتك العاهرة وضمتك إلى حزبها؟ كلكم تخدعون أنفسكم أما أنا فلم أفعل يومًا؛ عشت لنفسي وقد بلغت مالم يبلغ أحد. اقتلني يا كمانكش فلست أهاب الموت، لقد انتقمت من كل من آذوني، وأقسم لو عاد بي الزمان لفعلت ما فعلت. اقتلني، لقد عاشرت الموت فلست منه أهاب».

-ألا تنطق الشهادة وتصلي ركعتين يا داوود؟ .

قالها الكمانكش مشفقًا، لكن (داوود) اقترب منه واحتضنه بقوة قائلاً في خفوت حتى لا يسمعه من حوله: «أريد فقط أن أحتضنك يا علي، تمنيت أن أموت وسط أهلي. . أهلي الذين حقّرت من شأنهم ونحن نلعب الشطرنج، كل امرئ يتوق للموت وسط من يحبونه، أنت أهلي يا علي لم أعرف غيرك لي عصبة وقومًا منذ أُخذت من أهلي ذات يوم. . . أو ربما أريد أن أحتضنك لأفرغ كل حب بداخلي قبل أن أموت» .

ثم وضع يده على يد الكمانكش التي تقبض على السيف وضحك ضحكته الساخرة لكنها بدت مصطنعة هذه المرة ثم أغمد السيف حتى المقبض في صدره .

***

«من لغير الله سلّ المُغمدا. . . . . . في صدره السيف قد أغمدا» .

***

نزلت دمعة باردة من عينيه وهمهم بكلمات غير مفهومة ليصمت للأبد، أتذكر ولده وزوجه التي كرهته وتمنى لو عاد إليهما؟ أتمنى لو استعطف الكمانكش وهرب متخفيًا بولده ليعيش فلاحًا فقيرًا يموت في هدوء؟

لا أحد يدري سواه، كل ما عرفه الكمانكش أنه طوال هذه السنوات لم يعرف أحد (داوود) سوى (داوود) .

انهال على الجثة بالبلطة بعدئذ (مير حسين) باشا وسط كل من له دم عند (داوود)، فيوم الثأر قد جاء، ثم خرج (مير حسين) من الزنزانة ليصير صدراً أعظم يفتح الخزانة السلطانية للإنكشارية منحازاً لهم ضد السباهية ويعيث فساداً بعد أن يُعزل وتثور الفتنة في كل مكان.

❊❊❊

«لقد فرغت من المشورة مع المشايخ قبل أن آتي واجتمعنا على تولية كمانكش علي باشا صدراً أعظم فماذا ترون؟».

طرد صوت شيخ الإسلام ذكريات الكمانكش وإن لم يثر دهشته، ثم قام السباهية وبعض كبار القادة لتأييد الشيخ الذي يبدو أنه لم يأخذ رأي العلماء فحسب، فها هو ذا يقف بثقة ليقول وسط الجميع بعد أن قهر معارضيه: «وأنا أريدكم الآن أن . . .» بتر عبارته فجأة ونظر الجلوس كلهم إلى حيث نظر الشيخ؛ رأوا سلطانهم مع طواشيه فانحنوا له باحترام وشيخ الإسلام ينظر إليه متحفزاً، لكن السلطان الشارد رفع عينيه للسقف وقال: «سبحانه يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء بيده الأمر وهو على كل شيء قدير. لقد وليت الذي بعدي ولله عاقبة الأمور»، ثم انصرف مع طواشيه والجميع ينظرون إليه في حيرة ودهشة؛ أهو مجنون لا يدري من أمره شيئاً، أم ضعيف ضاق بالأمانة فأودعها خلفه؟

انتهى كل شيء إذن. . انتهت الهائلة العثمانية وأتى عهد جديد. . عهدٌ مراد.

❊❊❊

ماذا سنفعل مع عمي يا أمي ؟ هل نقتله؟ .

-«لا!» اندهش بشدة من كلام أمه، لم يرها ترفض قتل أحد بهذه الطريقة من قبل، نظر لها مستفسرًا فغمغت بجملة واحدة: «كان أحمد يحبه».

لماذا اندهشت يا مراد ؟ هل تظن أمك قاسية كالآخرين؟

تشعر بالخواء بعد ليال من القلق والخوف من قادم الأيام، ها قد ولت تلك الليالي بلا رجعة؛ أصبح ولدها سلطانًا وأصبحت هي السلطانة الوالدة، صاحبة الأمر والنهي، مدبرة الدولة صاحبة الصولجان السحري الذي تخضع له الرقاب. أخيرًا وصلت إلى نهاية السباق وفازت خيلها. خلعت نقابها الحريري وملابسها. ارتدت ثوبها الأحمر الذي يكشف أكثر مما يستر. تأملت نفسها في المرآة، وتحسست جسدها. هل كان لزامًا عليها أن تحقق المُراد لتتذكر أنها أنثى؟ ترى نفسها وردة يانعة معطرة بلؤلؤ الندى، محرمة تؤذي من يقترب منها بألف شوك وشوك، ومن سيقترب منها؟

اللهم إلا الجواري والخصيان، حتى نظرة الافتتان التي تبلل شفتي غرورها الأنثوي صارت بعيدة المنال.

طفرت قطرة ماسية على خدها ترثي حالها، كم هي قاسية تلك الحياة!

ألا يكفي ما هي فيه؟ لماذا يحسدونها على السلطنة؛ الشيء الوحيد الذي تملكه وتعزي به نفسها؟

أين أنت يا (أحمد)؟ إنها تحن لكل شيء فيه، حتى ملمس لحيته الخشن على خدها. لقد تركها كملكة النحل بشموخها وكبريائها. . وظمئها وأنين رغبتها.

هل كانت تحبه؟

***

الآن عهد جديد. . .

مسجد (أيوب شمس الدين) دخله من جديد واحد من أبناء السلطان (أحمد)؛ صبي بدين في الثانية عشرة من عمره قصير القامة جميل المحيا. ولّى السلطان الجديد وجهه شطر مقام (أيوب شمس الدين) وقرأ الفاتحة، سمعه الناس يدعو أن تكون أعماله مقبولة عند الله وعند الناس. الآن سيتصرف كما ربته أمه وعلمته.

-أريد أن أذهب إلى الخزانة.

اندهش (علي) باشا من مقالة الصبي. قاده مستسلمًا إليها، فوجد الصبي يجثو على ركبتيه وسط الخزانة الخاوية ويقول في حزن: «ستة أكياس من النقود وبعض الخزف!».

ثم دمعت عيناه وتضرع إلى الله قائلاً: «إن شاء الله سأعيد ملء هذه الخزانة من ثروة الذين اغتصبوها ظلمًا، وسأنشئ خمسين خزانة أخرى.

-«إن شاء الله يا مولاي».

ربت (علي) باشا على كتف الصبي وسار بهما الموكب السلطاني وحولهما الوزراء والقادة، وحين اقتربوا من الديوان قال سلطانهم: «مير حسين باشا لقد تجبرت، وعثت فساداً في الأرض، واجترأت على سلطانك ومن يجترئ على سلطانه لا يؤمن على غيره».

ساد العجب من تلك الكلمات التي حملها صوت السلطان الرفيع، واتسعت عيونهم حين رأوه يغمد سيف (عثمان) غازي، الذي تقلده في المسجد، في صدر القاتل في أول يوم من عهده الجديد. ينبئهم بغير كلام أنه سينتقم من كل من توارى خلف طالبي الثأر، وسيقتل كل من تسول له نفسه مرة أخرى كسر أعراف الدولة. بدا أن السلطان الجديد يعرف الكثير، وها قد كتب بعضًا مما يعرفه بمداد من أول دفقة دم تسيل في عهده بين جنبات السراي.

***

«لماذا أردت أن نصلي العصر معًا في آية صوفيا ونترك الجمع يا شيخ الإسلام؟».

أنهى (يحيى) أفندي تسبيحه بسرعة، ورمق القناديل المطفأة في سقف آية صوفيا ثم قال للكمانكش: «قد علمت ما حدث اليوم وهو أول يوم لسلطاننا الجديد. ما إن قتل الفاجر (مير حسين) حتى استبشرنا به وظنناه رجلاً، فإذا برسول يأتيه بعدها ويهمس في أذنه فيستوزر رجالاً بدا أنه يحفظ أسماءهم بمشقة. إننا لا نريد للدائرة أن تدور يا باشا وتقوم السلطانة الوالدة بما كانت تقوم به وهي باش قادين».

-وماذا بيدنا أن نفعل؟

-الكثير يا باشا؛ لست الآن قائدًا في الجيش. . أنت الصدر الأعظم. أنت من بنيت الدولة وكل جرح في جسدك أضاف لها مدنًا وقلاعًا، لست مثل الآخرين، قرّب السلطان منك ولازمه. لا تدعه لأمه وللجواري، دعنا نربِّه كولدنا ليكون سلطانًا بحق يليق بعمامة الفاتح الشاهانية فلا تسقط من على رأسه ويتلقفها أصحاب الأهواء.

-وهل ستتركنا (كوسم)؟

-رويدًا رويدًا يا باشا، لن نكلف الفتى فوق طاقته، كما فعل الخوجة (عمر)، ويومًا ما سيضيق بتجبر أمه فلن يجد سوانا بجواره، وحينها نبايعه سلطانًا وفاتحًا.

رسم شارب الباشا ولحيته الفضيان ابتسامة وقورة قد منّاها الأمل، لقد عاصر أربعة سلاطين حتى الآن. . .

فهل يكون مراد «مرادًا» حقا؟

***

تسير بهدوء أيها الدرويش إلى قفصك والشمس مائلة للغروب. تنظر إلى الحدائق حولك نظرة أخيرة. تنظر إلى شجرة السرو المجوفة، إلى الأكشاك الزجاجية وإلى النافورة الرومانية المعطلة. حتى مداخن المطبخ السلطاني ألقيت نظرة عليها وهي تضج بالعمل استعدادًا لأول ليالي الاحتفال بتنصيب السلطان الجديد. تسير وخلفك خادمك الوفي (قسمت)، تبتسم له ابتسامتك الباهتة في رضا وصمت.

تفتح باب قفصك وتهمّ بغلقه وتثبيت العارضة الخشبية خلفه، لكن عنق الفتى الطيب المشرئبة تدفعك للسماح له بالدخول. يطلب منك أن تقرأ له القرآن ويشير إلى المصحف الأحمر عشر مرات ليتأكد أنك تفهمه، تبتسم ابتسامتك الباهتة مرة أخرى. أخيراً سيشاركك أحد في قفصك حتى لو تناسيت وجوده بعد أول آية تقرؤها. ستعود إلى عالمك الأثير مع كل حرف تنطقه، ينظر الفتى إليك بتودد. من لن يكتفي بهذا القرب الصامت في المستقبل. سيظل معك ولن يتركك وحيدًا، سيعتني فيك بأخ افترق عنه ويلمس في كلماتك أمنًا وسعادة لم يعرفها رغم أنه لا يفهم ما تقول. تذهب إلى العارضة الخشبية تمسكها، ثمة طائر سابح في السماء يرمق قفصك من عَلٍ وبابه يُغلق وسط القصر وحدائقه الغنّاء الفسيحة.

سيمكث معك الطواشي أيامًا طالت أم قصرت تعلم أنك في نهايتها ستموت في هذا القفص، وستخرج جنازتك من باب السراي الذي خرجت منه كل جنازات سلاطين آل عثمان، باب السعادة.

●●●

مسرد المصطلحات الواردة في الرواية

(من المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية بتصرف)

(أ)

الآخية: مفردها آخي. وهي مؤسَّسَة اجتماعية نشأت في الأناضول في القرن الرابع عشر الميلادي، تركَّزت أعمالها في القيام بخدمة الناس وتعليمهم حب العمل ومساعدة المحتاجين والفقراء. ويذكر المستشرق الفرنسي دني أنَّ كلمة آخي جاءت من اللفظة التركية «آخي» بمعنى الرجل الذي يجمع بين الشهامة والكرامة، وأنَّها ليست مأخوذة من الكلمة العربية «أخ».

أغا باب السعادة: المُشرفُ على دائرة الحريم في القصر السلطاني. وكان على رأس خدم القصر ولأهمية منصبه كان يأتي بعد شيخ الإسلام مباشرة في الترتيب الرسمي. وكان يأتمرُ بأمره كل الآغاوات القائمين بالخدمة في القصر السلطاني. وكان الآغاوات القائمين غلى خدمة الحرمين الشريفين يأتمرون بأمره أيضًا فهو الرئيس المباشر لهم. وهو من مراكز القوى في القصر السلطاني. وفي حال عزلهم من منصبهم يُرسَلُونَ إلى مصر ويُعطَون راتبًا.

الأمانات المقدسة: متعلَّقات النبي ﷺ والكعبة المُشرَّفَة والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم الموجودة في غرفة خاصة بقصر الطوبقابي باستانبول سُمِّيَت بها، حيث وردت تلك الأغراض إلى السلطان سليم بعد فتحه مصر في بدايات القرن العاشر الهجري من شريف مكة السيِّد بركات.

الإنكشارية: بمعنى القوات الجديدة، وهي فيالق عسكرية تكونت من أبناء رعايا الدولة الذين تم جمعهم ما بين السادسة والخامسة عشرة من عمرهم من مختلف الولايات العثمانية في أوروبا، في وقت معيَّن من السنة.

(ب)

باش قادن: باش يعني الرأس، وقادن المرأة، وهذا المصطلح في عُرف العثمانيين كان يطلق على الزوجة الأولى أو الزوجة الرئيسة في القصر السلطاني.

(ت)

تذكره جي: مدير المكتب الخاص للصدر الأعظم أو الوزراء الآخرين أو المسئول عن المور الكتابية في الديوان الهمايوني.

(خ)

الخط الهمايوني: الاسم العام الذي يُطلق على الأوامر الصادرة من السلاطين وبكتابة أيديهم أو ما حرَّره الكُتَّاب وأمضاه السلطان.

(د)

دفتردار: أي ممسك الدفتر. وهي تتكون من كلمتين: دفتر ودار، بمعنى القابض على الدفتر، وهو أكبر منصب للشئون المالية في الدولة العثمانية، يقابله في الوقت الراهن وزير المالية.

دفشرمة: مصطلح أُطلِقَ في الدولة العثمانية على أولاد النصارى الذين

جُلبوا للالتحاق بالسلك العسكري بشكل خاص وتتراوح أعمارهم بين ٨ إلى ١٥ سنة من العمر، وتتوافر فيهم اللياقة البدنية. وقد بُدئ بجلب الأولاد، أي استُحدثُ هذا النظام في عهد يلدرم بايزيد، لا سيَّما بعد انهزامه في معركة أنقرة، وكانوا في أول الأمر يُجلبون من رعايا الدولة في ألبانيا واليونان وبلغاريا وصربيا والبوسنة والهرسك والمجر، ثم في نهايات القرن الخامس عشر الميلادي بُدئ بجلبهم من نصارى الأناضول. وفي القرن السابع عشر الميلادي عمَّ الأمر نصارى مناطق الدولة العثمانية كافة. وبعد وصولهم إلى استانبول كانوا يُطهَّرون وإنطاقهم بكلمة الشهادة ليدخلوا بذلك في الإسلام.

الديوان الهمايوني: دائرة حكومية مرموقة في الدولة العثمانية، وظيفتها مناقشة القضايا السياسية والإدارية والعسكرية والشرعية والمالية.. إلخ، من الدرجة الأولى والثانية وإصدار قرارات بشأنها. وهي تشبه، إلى حدٍّ كبيرٍ، مجلس الوزراء في الوقت الراهن.

(س)

السباهية: الخيالة، والفرسان في الجيش العثماني. واصطُلِحَ على استخدامه للدلالة على الخيَّالَة صاحب الأرض الميري، الذي يشترك في الحرب مع أفراد من الذين كُلِّفوا بإحضارهم للحرب.

(ش)

شيخ الإسلام: أعلى منصب ديني في الدولة العثمانية. كان مسئولاً عن

تعيين القضاة وعزلهم والإشراف على التدريس والمدارس وإصدار الفتاوى الشرعية.

(ص)

الصدر الأعظم: الشخص الذي حاز منصب رئيس الوزراء في الدولة العثمانية. وكان وكيلاً مطلقًا للسطان.

(ط)

طُغرا: الشعار الذي اتخذه سلطان من السلاطين العثمانيين علامة له وتوقيعًا. كان يُدوَّنُ به المعاهدات والفرمانات والخطوط الهمايونية وغيرها من الوثائق.

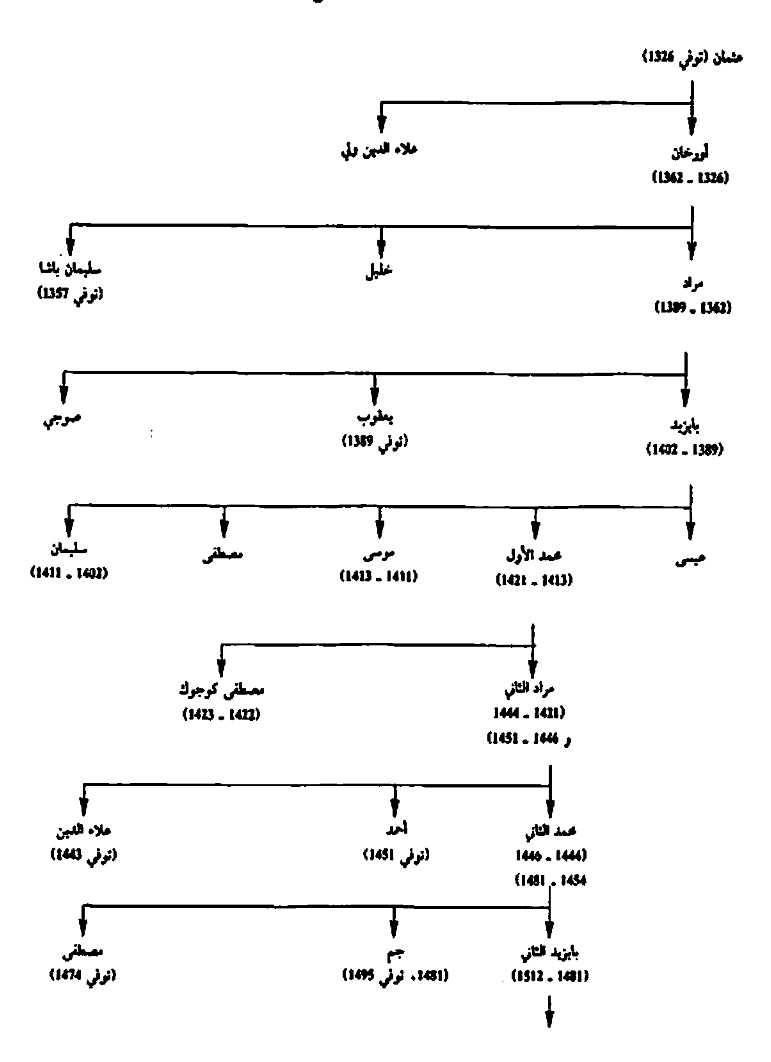
(ع)

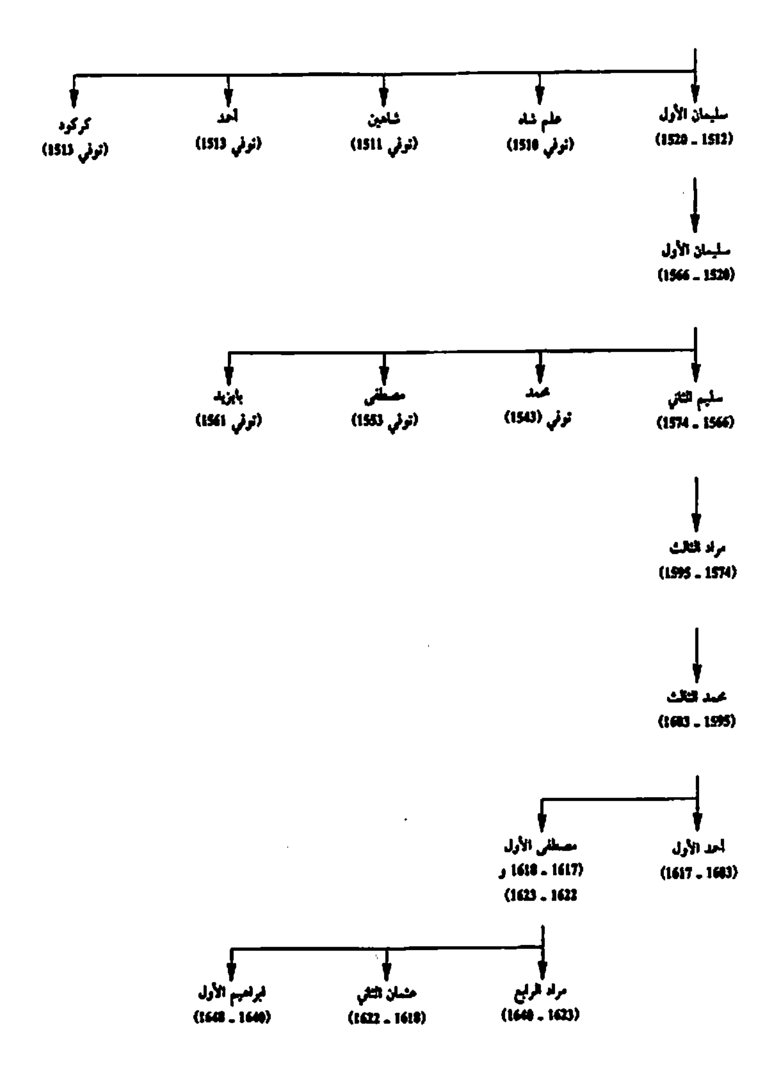
العلوفة: الراتب الموسمي الذي كان يدفع للإنكشارية وبعض الفرق العسكرية الأخرى وبعض الموظفين في الدولة العثمانية. كان يُدفع لهم مرة كل ثلاثة أشهر.

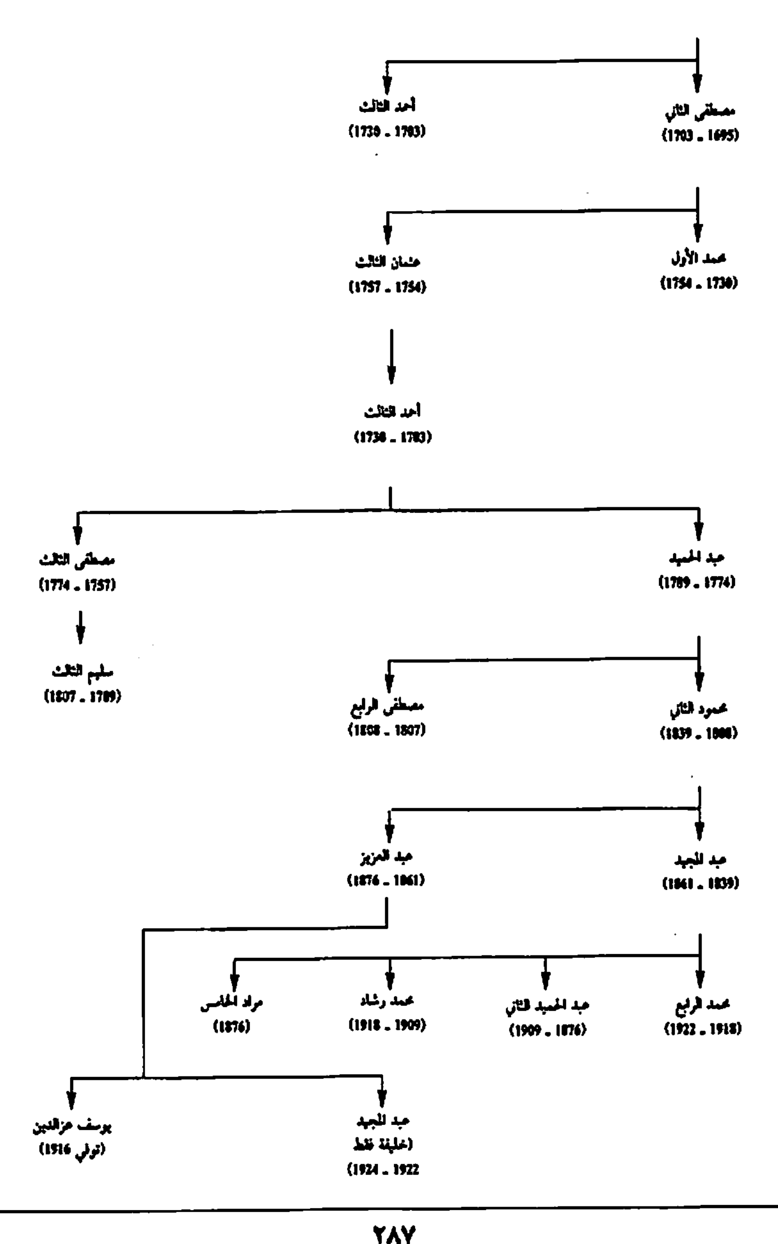
(هـ)

همايون: كلمة تعظيم خاصة لسلاطين الدولة العثمانية. فـ«هُما» باللغة الفارسية و«أُمَا» باللغة التركية تعني طائرًا أسطوريًا ذا حظٍّ وقدرة، وقد اتخذها سلاطين الغُزِّ الأتراك رمزًا لهم. وانتقل منهم إلى السلاطين العثمانيين. كان يُستخدَمُ مُضافًا للمتعلِّقات الخاصة بالسلاطين، فيُقال: الذات الهمايوني، الطُغراء الهمايوني، الجيشَ الهمايوني وهكذا.

السلالة العثمانية




سليمان الأول
(1520 - 1512)
علم شاه
(توفي 1510)
شاهين
(توفي 1511)
أحمد
(توفي 1513)
كركود
(توفي 1513)
سليمان الأول
(1566 - 1520)
سليم الثاني
(1574 - 1566)
محمد
توفي (1543)
مصطفى
(توفي 1553)
بايزيد
(توفي 1561)
مراد الثالث
(1595 - 1574)
محمد الثالث
(1603 - 1595)
أحمد الأول
(1617 - 1603)
مصطفى الأول
1618 - 1617 و
(1623 - 1622)
مراد الرابع
(1640 - 1623)
عثمان الثاني
(1622 - 1618)
ابراهيم الأول
(1648 - 1640)


مصطفى الثاني
(1703 - 1695)
أحمد الثالث
(1730 - 1703)
محمد الأول
(1754 - 1730)
عثمان الثالث
(1757 - 1754)
أحمد الثالث
(1730 - 1703)
عبد الحميد
(1789 - 1774)
مصطفى الثالث
(1774 - 1757)
سليم الثالث
(1807 - 1789)
محمود الثاني
(1839 - 1808)
مصطفى الرابع
(1808 - 1807)
عبد المجيد
(1861 - 1839)
عبد العزيز
(1876 - 1861)
محمد الرابع
(1922 - 1918)
عبد الحميد الثاني
(1909 - 1876)
محمد رشاد
(1918 - 1909)
مراد الخامس
(1876)
عبد المجيد
(خليفة فقط
(1924 - 1922)
يوسف عزالدين
(توفي 1916)